

دكتور محمد الدالى

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الوحدة الفنية

في

القصة القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال صلى الله عليه وسلم

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه »

مقدمة

الحمد لله ا لذى وفقنى وجعل مرجع هذا البحث كتابه الكريم ، وقرآنه العظيم ، والصلاة والسلام على من أنزل عليه الذكر الحكيم ، هدى للمتقين – وعلى آله وصحبه عدد كمال الله وكما يليق بكما له . وبعد

فقد اتسعت دائرة العلوم القرآنية فى عالمنا المعاصر ، واستشرت الدراسات الأدبية واللغوية والعلمية إزاءها ، فما يمر عام إلا ويطالعنا بحث أو أكثر فى هذا المجال ، سواء فى اختيار ألفاظ القرآن ودلالاتها على المعانى ، أو جمال الصياغة أو التعبير التصويرى ، أو تقعيد القواعد فى النحو والصرف ، أو الإعجاز العلمى فى الكون والطبيعة والإنسان .

والحق أن هذا البحث لم يخرج عن هذا النطاق ؛ إلا أنه اختار شريحة أدبية فنية ، ألا وهى « الوحدة الفنية فى القصة القرآنية » ،، .

وليس الخلق والإبداع فى أن تخرج من العدم وجودا ، وإنما الفن فى أن تنفخ روحا فى مادة موجودة ، وليس الابتكار أن تطرق موضوعا لم يسبقك إليه أحد ، وإنما الفن فى أن تضيف إليه نورا جديدا يهدى السائرين إلى معالم الطريق .

والذى دعانى إلى طرق هذا الموضوع أسباب كثيرة ، وحوافز جمة وعديدة منها :

– القصة وسيلة تربوية من وسائل الدعوة الإسلامية ، تجسد شريف مقاصد القرآن الكريم ، وتشخص سمو غاياته ، وتصور علو مراميه .

– ليس فى القصص القرآنى تكرار مطلق ، فالمحور الذى تنسج حوله القصة يدور مع العبرة أنّى تكون ، فوحدة الموضوع ماثلة بكل ما تحتويه من أهداف دينية وخطوات فنية ، إلا أنها سيقت مجّزأة على شكل حلقات اقتضتها ظروف المناسبات والأحوال ، وكل حلقه تكمل سابقتها، أو متمة للحدث أو العقدة أو الصراع أو الحوار أو الشخوص ، أو تحمل شيئاً جديداً يقتضيه السباق وأسباب النزول ،والدليل على ذلك قراءة القصص القرآنى بحسب ترتيب النزول فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ، ثم يتطور الحدث شيئاً فشيئاً ، ويزداد الصراع فى كل حلقة ، حتى تستوفى القصة حقها ، وتحدث المتعة الفنية ، ويتحقق الغرض الدينى .

– دعم الوعى الفنى فى القصص القرآنى ، والدعوة إلى تذوقه تذوقا فنيا بالتركيز على ملاحظة جمال العرض، ولمس التنسيق فى الأداء والتأمل فى براعة الإخراج ، والوقوف الحى أمام التصوير الاستعارى والتخييل الحسى .

– الّرد على الذين يزعمون أن القصص التمثيلى – الذى سبق لضرب المثل– ليس من الضرورة أن يكون حقيقة أو حدثا قد وقع .

ومنهجنا فى هذه الدراسة منهج أدبى تذوقى بلاغى ، يقوم على عرض بعض القصص القرآنى ، كأمثله ونماذج نستقى منها القواعد التجريدية الأدبية والفنية والبلاغية ، بعد أن نقف على العلل التى تشبع إدراكنا العقلى ومخيلاتنا ، وتحدث المتعة الفنية لوجداناتنا وعواطفنا .

ولقد حرصت فى هذه الدراسة على تصنيف « الوحدة الفنية » من تعبير تصويرى ، وتحليل نفسى ، وسجع موسيقى ، وحوار داخلى وموضوعى ، ورسم للشخوص ، وتنوع فى عرض الأحداث ، وقد حاولت جاهدا تلمس الخصائص المميزة لكل عنصر مستنبطا إياها من النصوص القصصية ؛ لأن تربية الذوق الفنى

والملكة الجمالية ، لا تؤتى ثمارها بالتجريد والتعميم وتقعيد القواعد ، إلا إذا صاحبتها النصوص والنماذج للتطبيق والموازنة والمقارنة .

ولست أدعى الإتيان بما لم يأت به الأوائل ، أو الإبداع والإعجاز ، وإنما آمل أن يكون قد وفقت إلى ما قصدت ، وخطوت خطوة صالحة إلى معالم الطريق نحو القرآن العظيم وفنون أدبه ، وجمال عرضه .

والله أسأل أن يلهمنى السداد قولا وفكراً ، والإخلاص عملا وتطبيقاً ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى أول شوال ١٤١٣ .
أول مارس ١٩٩٣م .

د. محمد حسين الدالى

تــوطئــــــــة

مفهوم الفن فى القصص القرآنى[1]

يقول الشهيد « سيد قطب » فى إيضاح كلمة الفن بعد ما بدأت كلمة الفن يساء استخدامها ، أو يساء فهمها أو يساء تأويلها فى مجال القرآن ، « لم يكن لها فى نفسى إلا مدلول واحد : هو جمال العرض ، وتنسيق الأداء ، وبراعة الإخراج ، ولم يجل فى خاطرى قط أن « الفنىّ » بالقياس إلى القرآن معناه الملفق ، أو المخترع ، أو القائم على مجرد الخيال !!

وإنى لأعجب لم تنصرف كلمة « الفن » حتما إلى الخيال الملفق ؟ والإبتداع الذى لا يسنده الواقع ؟ والاختراع الذى يخرج على المعقول ؟؟

ألا يمكن أن تعرض الحقائق الواقعة عرضا فنيا وعرضا علميا ، ثم تبقى لها فى الحالتين صفتها الأساسية من الصدق والواقعية ؟ » .[2]

وسبق أن أشرنا فى المقدمة أن كل قصص القرآن الكريم وأمثاله من الواقع الذى لاشك فيه ، وإذا جاز لنا – نحن البشر – أن نلجأ إلى الخيال والوهم ، لننسج منهما قصصا ، فمرد ذلك إلى عجزنا فى تصوير الواقع ، كى يسعفنا بما نتصوره

---

(١) جاء فى القاموس المحيط عن معنى الفن ما يلى :
الفن : الحال والضَّرْب من الشىء ، جمع أفنان وفنون ، والطَّرْد والفَيْن والمَطْل والقناء والتزيين .
افتنّ : أخذ فى فنون من القول ، وفنَّن الناس : جعلهم فنونا .
الفنَن : الغصن جمع أفنان ، وأفانين .
فنان : حمار الوحش له فنون من العدو .
ورجل مِفَنّ : يأتى بالعجائب . وهو فِنّ علم : بالكسر حسِنُ القيام به .
(٢) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب ص ٢٠٥

ونتملاه ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، لأن قدرته لايعجزها شيء ، تريد فيقع ما تريد كما أرادته ، إنها إرادة لايخالطها وهم ، ولايطوف بها خيال ، ولاتعللها الأماني .

(سبحانه وتعالى عما يصفون) . « ١٠٠ : الأنعام » .

(فسبحان الله رب العرش عما يصفون) . « ٢٢ : الأنبياء » .

(سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) « ٨٢: الزخرف» .

(سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) « ٤٣: الإسراء »

(فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) « ١١٦: المؤمنون »

الفن فى القصص القرآنى : هو فى التناسق والتناسب بين المواقف والأحداث والشخوص والحوار ، حتى أغنى هذا التناسق – فى مواطن كثيرة – عن التماس أسباب نزول القصة أو تعيين مكانها أو تحديد زمانها .

الفن فى القصص القرآنى : فى أن تكون حادثة واحدة ، تترتب عليها عدة مواقف ، وفى كل موقف يحدث التأثير المطلوب .

الفن فى القصص القرآنى : فى مدلولات الألفاظ وإيحاءاتها بالصور الشاخصة والمشاهد الحية ، والأنماط المتشابهة .

الفن فى القصص القرآنى : فى المقابلة بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وإن الجنة والنار ليتقابلا فى أكثر القصص ، وإبراز سنة اله فى الكافرين، وإن الكفر ملة واحدة ، وإن أساليب التعنت والعناد متماثلة .

الفن فى القصص القرآنى فى إخضاع القصة للفرض الدينى وتصحيح عقائد المؤمنين فى شئون الغيب كقصص : أصحاب الكهف ، وموسى والعبد الصالح ، وذى القرنين فى رحلاته الثلاث .

الفن فى القصص القرآنى : فى رسم اللوحات المجسدة باللفظة التى تغنى عن وسائل التشخيص ، الصوت واللون والحركة ، ثم التعقيب المعجز على هذه اللوحة .

الفن فى القصص القرآنى : فى رسم الشخصية التى تتوهج بسماتها ، وبصماتها وإيحاءاتها وظلالها وفى كل حركة من حركاتها أو خلجة من خلجاتها أو انفعال يكشف عن طبيعتها .

الفن فى القصص القرآنى : فى تنوع الموضوعات التى أدت بالتالى إلى تنوع الأسلوب ، فيشتد ويلين ، ويفصل ويجمل تبعا لحال المخاطبين .

الفن فى القصص القرآنى : فى النظم الموسيقى ، فى ترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية ، فى الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترفيق ، والتفشى والتكرار .

الفن فى القصص القرآنى : فى التصوير ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة – عن المعنى الذهنى المجرد ، وعن الحالة النفسية التى لاتلمس ، وعن النماذج الإنسانية والطبيعة البشرية التى لا ترى ، فيحيل كل أولئك إلى مشاهد منظورة ، أو لوحات مجسمة شاخصة حاضرة ، تدب فيها الحياة والحركة ، فتسلك المعانى إلى العقل والإدراك كل طريق .

الفن فى القصص القرآنى : فى الرمز والإيماء ، حين يحسن التلميح ويكره التصريح قال تعالى فى قصة مريم : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) ، ١٢: التحريم ، . فإحصانها فرجها كناية عن طهارة ذيلها وعفتها الكاملة ، وكان النفخ فى جيب درعها – كما ورد – تأكيدا لهذا المعنى الرمزى الذى يجمع إلى أدب التعبير إشادة لانظير لها بعفة السيدة مريم التى فضلها الله على نساء العالمين .

الفن فى القصص القرآنى : فى اختصار مقدمات لا أهمية لها ، والتنبية على النتيجة الحاسمة التى يتقرر فيها المصير كما فى قصة أبى لهب (تبت يدا أبى لهب وتب) كناية عن أنه جهنمى وأن مصيره إلى اللهب ، (حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد) فهى تسعى بالنميمة ، ومصيرها أن تكون حطبا لجهنم ، وأن تكون مغلولة اليد ، وواضح أن الكناية هنا لخصت فى ومضة واحدة المصير الذى يراد تصويره .[1] ، ١-٥ المسد ، .

الفن فى القصص القرآنى : ، فى اعفائه التعبير من قيود القافية الموحدة ، والتفعيلات التامة. فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ فى الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل، والتقفية التى تغنى عن القوافى ، وضم ذلك إلى الخصائص التى ذكرنا ، فشأى النثر والنظم جميعا ، [2] .

الفن القصصى فى القرآن : فى كل آية من قصة ، وفى كل جملة من كل آية ، وفى كل مقطع وفقرة ، وفى كل مشهد وموقف ، وفى كل لوحة وصورة ، أرأيت لونا أزهى من نضرة الوجوه الناظرة إلى ربها ؟ ولونا أشد قتامة من سواد الوجوه الكاحلة الباسرة ؟ (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة) . ، ٢٢-٢٥ : القيامة ، .

الفن القصصى فى القرآن : فى ذلك الإيقاع الظاهرى والخفى ، فى الفاصلة طليقة من كل قيد ، فى النظم الصافى من كل صنعة ، لا حشو ولاتطويل ولا زيادة ولا تكرار ولا حذف ولانقصان ، وإنما ينساب الأسلوب انسياب الماء ليسقى الغرس

---

(١) انظر : مباحث فى علوم القرآن . ص ٣٣١ د. صبحى الصالح .

(٢) التصوير الفنى فى القرآن . ص ٨٦ مرجع سابق .

ويبهر الحواس ، وينعش الأنفاس .

الفن القصصى : فى ذلك الرباط الداخلى ، النفسى والاجتماعى الناشىء من طريقة النظم وائتلاف حروف الكلمات ، واتساق الجمل فى وحدة موضوعية تبلغ فى الفصاحة أرقى درجاتها ، وتسمو بالوجدانات إلى أعلى ذرواتها .

منهج القصص القرآنى

وحدة المنهج

إن المنهج القصصى فى القرآن الكريم منهج جامع شامل متكامل . فإذا كان الباحثون – الآن – يعينون نوعية المنهج الذى يسلكونه فى بحوثهم الأدبية والعلمية، فإن مردّ ذلك إلى المنهج القرآنى – فمنه تعلمنا كيف نختار منهجنا ، وكيف نصوغ أسلوبنا لموضوعاتنا – وكيف نحقق أصولها ونوثقها ، وكيف نرجع إلى مصادرها الأصلية ، ومراجعها التابعة لها ، ومن ثَم يعّم النفع وتتحقق الفائدة .

إن المتبع لهذا المنهج يعرف كيف ينسّق أفكاره ، وكيف يسلسلها حتى تصير محكمة ومنطقية ، مشيدة البنيان ، متأصلة الأركان .

وإن الدارس لهذا المنهج ، أو المتأدب بمأدبته ، والمتذوق لأدبه ، سيصبح فى يوم ما – محللا معللا ناقدا ملتزما ، متكيفا مع دينه ومجتمعه ، جامعا بين عالمين : عالم الطين وعالم الروح ، لأنه يجد بغيته فى قاموس الألفاظ ، ويشبع رغبته بإثراء المعانى ، وتتفتح بصيرته بتشعّب الأفكار ، ويتفتّق ذهنه بالحكم البالغة ، والأمثال البليغة ، التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وإعجازها وشرفها من مخلوق.

لذلك كان مطلب كل أديب ومتذوق ، وملجأ كل مفكر وفيلسوف ، وحصن كل فقيه وعالم ، ومجال كل باحث وناقد ، فعالم الفيزياء والكيمياء إن قصدا الطبيعة وأسرارها هشت لهما وبشت ، والمفكر والفيلسوف إن راما قواعد المنطق وأصول علم الكلام لمساها فى قضاياه ، وعالما الأرصاد والأفلاك إن ابتغيا الشموس والنجوم والأبراج والأقمار ، ألفيا ذلك كله فى علوم القرآن ، والباحث عن الطاقة الأرضية والشمسية ، يجد الأرض والبحار والآفاق مسخرة ممهدة لهذا الإنسان ، ورجل التاريخ العاشق للأخبار ، إن غمضت عليه حوادث الليل والنهار ، ولم تسعفه

المشافهة والمثاقلة أو الرواية لجأ إلى مصدرها فى قصص القرآن ، والأدباء والبلغاء ، وأرباب الفصاحة والبيان يقتبسون طرق التناسب والتناسق والتواؤم والائتلاف ، فى جميع آياته من غير انشقاق واختلاف ؛ ذلك لأن المنهج ربانى من عند الله ،

(ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) . « ٨٢: النساء » .

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . « ٨٨ : الإسراء » .

إنه معين لاينضب ، وبحر لا ينفد (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا) . « ١٠٩ : الكهف » .

(ولو أنّ ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم) . « ٢٧ : لقمان » .

ليس فى الآيتين تناقض ، وليست إحداهما تكرارا للأخرى ، فالصورتان تكمل إحداهما الأخرى ، ويتضح ذلك ، لو جعلنا من الآيتين آية واحدة ، نجد الأبحر قد نفدت ، وما نفدت كلمات الله ، ونجد كلمات الله لانفاد لها، ولو مّد البحر، لابحر واحد مثله ، بل بسبعة أبحر » . [1] .

وهذا هو السر فى اقبال العامة والخاصة على تلاوته ، والشرقى والغربى على قراءته وترجمته ، وحرص الجميع على تفهم معانيه وإدراك مقاصده ، كل وفهمه وكل وإدراكه ، وكل وحاجته ، الجميع يجدون غذاءهم ومشربهم ، عقلانيا أو روحيا أو وجدانيا ، على حسب ما بينهم من فروق فردية، فالبون بينهم شاسع والفجوة عميقة ، والطبائع متباينة ، والبيئات مختلفة ، ولكن الذكر الحكيم يجمعهم على مائدته يتأدبون بأدبه ويتمتعون بمأدبته ، عن على رضى الله عنه – قال :

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن : المجلد السادس ص ٥٨٥ عبد الكريم الخطيب .

سمعت رسول الله ﷺ – يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبارقصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الأراء ، ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : (إنا سمعنا قرآنا عجباً) من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم » .

فالمنهج – وإن كان غرضه الأساسى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية وتثبيت عقيدة التوحيد فى نفوس المسلمين ، وتوكيد الدلالة على صدق نبوة محمد ، وأنه مبلغ عن ربه ، وأن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين – لا يقدم ذلك فى نظرية مجردة عقلية منطقية فحسب ، بل يقدم منهجه على الفكر والنظر والتدبر ، ووسيلته فى تحقيق ذلك « إلباس المعانى المجردة الذهنية لباس المحسوس الذى يدرك بحاسة أو أكثر من حاسة » [1] حيث يعمل المرء وسائله السمعية والبصرية وصبغته التى اصطبغ عليها ، وتصبح العقيدة عنده حية دافقة متدفقة ، دافعة لتحقيق مدلولها العملى والسلوكى ، ومن ثمّ لا تستهويه الشياطين ، ولا يخلد إلى الأرض .

والمنهج يقوم على تحليل النفوس وتصويرها فى حالات شتى : من حيرة

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٣٩٩ ، سيد قطب .

وقلق ، وعجز ونفاق وخوف وفزع ، ومكر وخبث ، ويقابلها بصور النفوس الزكية المطمئنة العاقلة الواعية ، المجبولة على تقوى الله وحب الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتيح الفرصة لخيال المتلقى أن يتملى ويتصور ويرسم الهيئة ويجسمها فى مخيلته كيفما شاء .

ولما للقصص من أثر فعّال فى النفوس ، وجذب لانتباهها ، وتمهيد لما يعرض ، وتشويق وتلهف لمعرفة النهاية ، وارتياح لحل العقدة والصراع ، وحب وتشوف للاستطلاع ، لجأ المنهج إلى الأسلوب القصصى ، فالتقى الفرض الدينى بالفرض الفنى ؛ لأن القصة صورة من صور البيان العربى ، ووسيلة من وسائل نشر الدعوة ، فضلاً عن أن لكل قصة شخصية مميزة ، وروحا متفردا ، يعيش معهما المتلقى ، كما لو كان يعيش عصرها ، ويشارك الأحداث والحوار والصراع ... ففى القصة القرآنية ثروة من الحقائق والمعارف ، وثروة من التصورات والإيحاءات والتوجيهات ، وثروة من الأسس التى ينبغى أن تقوم عليها المعاملات ، وثروة من المبادىء الصحيحة التى تبنى الأوطان وتشيد المجتمعات ، وثروة من علوم البلاغة ومصطلحاتها الحديثة – علم المعانى ، وعلم البيان ، وعلم البديع – لقد بعث القصص القرآنى فى هذه العلوم الحياة بعد ركود – لقد بث فى التشبيهات والاستعارات والكنايات التصوير والتخييل والتجسيم والتجسيد حتى قارب المجاز الحقيقة ، ونهج الإعجاز طريقه .

وفى القصة القرآنية ثروة من الموسيقى المهموسة والمجهرة ، والإيقاعات الظاهرية والداخلية .. إنها – كما قلنا – تتراوح بين الشدة والرخاوة ، وتتفاوت بين التفخيم والترقيق ، وتتهادى بين التفشى والتكرير ، إنها الموسيقى فى أعلى طبقاتها الصوتية والكلامية واللفظية والروحية والنفسية والوجدانية .

وليس المنهج منهج تاريخ يتعرض لعنصرى الزمان والمكان ، وإنما يتخذ من أحداث التاريخ ووقائعه مجالا للعبرة ، ومبدأنا للدعوة ، فهو يخرج من الدائرة التاريخية المجردة إلى الدائرة التاريخية الموضوعية الفنية والوجدانية (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه – وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . « ١١١ : يوسف » .

وذلك لأن المنهج يأخذ من القصة ما يحقق الغرض الدينى ، دون اعتبار إلى تاريخ الحدث أو ذكر مكانه ، فهو لا يؤرخ للأفراد والجماعات ، ولا يسجل للأمم والشعوب ، جاء فى تفسير المنار عن قصة نوح والطوفان « وبيّنا أن قصة نوح – عليه السلام – جاءت فى عدة سور ، فى كل سورة منها ما ليس فى سائرها من ذلك ، ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا ما فيه العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها ، فذكرت فى بعضها بآية ، وفى بعضها بآيتين فما فوقه من جمع القلة ، وما فى سورة « هود » هو أطولها وأجمعها »[1] .

فالشيخ محمد عبده يرى أن ترتيب الأحداث فى القصص القرآنى ليس قائما على الأساس التاريخى الذى يضطلع به المؤرخون وانما يرجع الى اعتبار بلاغى فنى غايته تحريك العواطف والوجدانات بغية إثارة العقول والأذهان « لم يُقصد بهذه الوقائع سردُ وقوعها على حسب أزمنة وقوعها ، وإنما المراد بها الأعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها ، وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها ، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق ، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير ، وأدعى إلى التأثير ، فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه

(١) المنار جـ ١٢ ص ١٠١ . محمد عبده .

على حسب الوقائع حتى القصة الواحدة ، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهز النفس للاعتبار هزا ، وقد راعى فى قصص بنى إسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله إياها وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها ، وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات ، وابتلائهم بالحسنات والسيئات وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبة ، ويحدث لهم فى أثر كل توبة نعمة ،ثم يعودون إلى بطرهم ، وينقلبون إلى كفرهم[1]

وسلك المنهج طريق القصة التمثيلية – التى تضرب مثلا – فالتمثيل ضرب من ضروب البلاغة ، وفن من فنون البيان ، جاء فى النيسابورى ما يلى : « ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى ، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف ، وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة ، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه الفعل ، ولكن مع منازعة الخيال ، ولاشك أن الثانى يكون أكمل ، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح ، وحب ذكره فى الكتاب الذى أنزل تبيانا لكل شىء » [2] .

ومفهومنا للقصة التى تضرب مثلا أن لها موردا ومضربا ، فليست وليدة الخيال – كما يزعم البعض – إنما هى وليدة أحداث واقعية فى شخوصها وحوارها ، وعقدتها وصراعها ، وخير مثال لهذا القصص قصة الملكيين اللذين احتكما إلى داوود عليه السلام ، ولسنا مع الذين يقولون « أن التمثيل من صنع الخيال – وأنه موجود فى كتاب الله ، وأن من المعانى ما يجىء مباشرة فى صورة التمثيل،

---

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ٣٢٧ وما بعدها .

(٢) غرائب القرآن جـ ١ ص ١٩٥ .

وأن استخراج هذه المعانى يحتاج إلى دربة ومقدرة فى علم البيان [1] .

ونحن مع « أبى حيان » قلبا وقالبا إذ يقول فى هذه القضية : [2] « والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضان ، ولا يكنى بها عن المرأة ، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، لأن ذلك الإخبار كان صادرا من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة ، فمثلوا بقصة رجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع فى نعجة خليطه وهذا التصوير والتمثيل أبلغ فى المقصود وأدل على المراد » [3] .

وسيأتى بيان هذه القصة مفصلا – إن شاء الله – فى فصل مستقل .

* * *

(١) الفن القصصى فى القرآن الكريم ص ١٦١ د. محمد أحمد خلف الله .

(٢) انظر الآيات القرآنية (٢١ – ٢٦) من سورة ص (قصة داوود والملكين) .

(٣) البحر المحيط حـ ص ٣٩٢

المنهج النفسى

تتجلى وحدة المنهج النفسى فى تصوير طبائع الناس ، وتجسيد نفوسهم ، وتجسيم عواطفهم ووجداناتهم على اختلاف أشكالهم وألوانهم وألسنتهم ، فى لوحات فنية كلية ، فى عرض جذاب للعقول ، ساحر للقلوب والألباب . فى مشاهد ونماذج يتوارثها الأبناء عن الآباء ، فى مواجهة هذا المنهج ، ومجابهة إعجازه ، وميراث التكذيب الذى لقنه الآباء للأولاد مبهورين ومسحورين ، مؤمنين وكافرين ، هؤلاء يسحرون فيؤمنون ، وأولئك يسحرون فيهربون وهذه هي الآبائية (١) .

وتتجلى فى إبراز كثير من الظواهر السلوكية فى الإنسان ، إذ تتناول النواحى الدينية والروحية ، والقيم الإنسانية العليا ، والحب فى أسمى صوره الإنسانية .

وتتجلى فى أثر العبادات فى سلوك الإنسان ، والصراع النفسى بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية ، وتوافق الشخصية عن طريق تحقيق التوازن بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الإنسان كالتخاطر والاستشفاف وغيرهما من النواحى الروحية ، (٢) .

سمع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – القرآن فقال : ، لما سمعت القرآن رقّ له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام .. ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !!، . وسمعه الوليد بن المغيرة ففكر وعجب ودهش وقدّر ، وكاد أن يرق له قلبه فقالت قريش : ، صبأ والله الوليد ، ولتصبون قريش كلهم ، فأرسلوا إليه كبير رجالاتها أبا جهل ، ليثير نخوته ، ويوقد حميته ، ويلهب حماسه ، واعتزازه بكبريائه ونسبه وماله ،

(١) ميراث الآباء للأبناء .

(٢) انظر القرآن وعلم النفس ص ٢٢ . د. محمد عثمان نجاتى

، التخاطر ، : هو تبادل الخواطر والأفكار مع شخص آخر قد يكون موجودا فى مكان بعيد .

، الاستشفاف ، : هو إدراك الأشياء البعيدة الخارجة عن مجال الحواس .

فطلب أبو جهل منه أن يقول فى القرآن شيئاً ترضاه قريش ، وتعلم أنه له كاره فقال : « وماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم منى بالشعر ولابرجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ... والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئا من هذا !! والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى »

فأصر أبو جهل إصرار المستميت وقال : « والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه » قال الوليد : « دعنى أفكر فيه » فلما فكر قال : « إنْ هذا إلا سحر يؤثر » . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه ؟ (١) فكفر وتولى ، واستكبر وتقاعس عن كلمة الحق ، وأخذته العزة بالإثم وأبى الدخول فى الإسلام .

فالتعبير القرآنى تناول هذا الحدث بريشة التصوير النفسى المبدع ، فاضطلعت الألفاظ بنقل هيئة الوليد وحركاته ، وتصوير عواطفه وانفعالاته ، وتجسيد هزاته النفسية وخلجاته ، فجاء التعريف بشخصيته تامًا إذ انتقل بنا من الجهل بها إلى المعرفة التى أورثتنا كراهيتها عن طريق هذا الحديث النفسى ، والسلوك الوجدانى ، وأثّر فى نفوسنا تأثير الهزات الكهربية للأمراض العصبية ، حيث تم التنسيق بين الأجواء الروحية والفكرية والفنية ، وتحقق الغرض الدينى ، وتمثلت الغاية النفسية ، وتمكن الإيقاع المطلوب من النفوس والقلوب . قال تعالى : (ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) « ١١-٢٥ : المدثر » .

(١) عن السيرة لابن هشام وتفسير القرطبى .

لقد صور السياق القرآنى هذا الحدث فى لوحة مجسدة كشفت عن نفسية هذا الوليد وهو مبهور الانفاس ، مخنوق الصوت ، مبحوح الحنجرة ، ينتفض انتفاضة العصفور بلله القطر ، إذ سمع قرآنا نزل فيه ليكون هزأة وسخرية على الملأ فى الدنيا ، ويكون حطاما لسقر يوم تقوم الساعة (سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر؟ لا بغى ولاتذر لواحة للبشر) . ، ٢٦-٢٨ : المدثر ، .

وثمة صورة أخرى للوليد بن المغيرة نفسه ، رسمها القرآن الكريم له عندما انتدبته قريش ليلقى محمدا ويكون سفيرها عنده ، وليقول له كلمتها إليه ، ويبلغه وعدها له بالملك والمال والسلطان ، فإن لم يستجب فستناصبه العداء ، وقد نفّذ ما أمرت به قريش ، وقد دعاه النبى ﷺ - أن يسمع منه كما سمع هو منه ، ثم تلا عليه الآيات الأولى من سورة فصلت ، فانظر كيف صور القرآن خنوعه وتضرعه ، وكيف جسّد حالته فى تخاذل وانكسار ، لقد خرج مبعوثا من قومه متعاليا شامخا ، وها هو ذا يخرج من عند الرسول حطام رجل أو شبح إنسان ، يقول الله تعالى فى وصفه : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فقصص القصص لعلهم يتفكرون) . ، ١٧٥-١٧٦ : الأعراف ، .

إن اللوحة رسمت صورة بشعة لهذا الإنسان ورسمته وهو ينسلخ من آيات الله، كما ينسلخ الثعبان من جلده ، ورسمته وهو ينحرف عن الهدى ليّتبع الهوى ، ورسمته وهو يتمرغ فى الطين ، لاصقا بالأرض ، حليفا للشيطان مُستحوَذاً عليه .. ورسمته وقد مُسخ كلبا دائم اللهث واللهاث ، سواء طورد أو لم يطارد ، هذه المشاهد الفنية العجيبة جعلتنا نراه بأعيننا متدلى اللسان ، متقطع الأنفاس ، حتى أن

أصوات هذه الأنفاس ورتابتها قد استقرت فى آذاننا لتتابعها وتواليها .

* * *

وهذه لوحة نفسية أخرى ، حيث لا سلطان للإنسان على قلبه ، وليس من شأن القلب أن يستقر على حال واحدة فى جميع الأحوال ، لما يموج فيه من شتى المشاعر ، ومختلف العواطف والنزعات ؛ فها هو ذا سيدنا ابراهيم – عليه السلام – قد سيطرت عليه غريزة حب الاستطلاع وملكت عليه ليه وفؤاده حتى جعلته يطلب المزيد من العلم والإيمان ، ليقتل فى نفسه كل وسواس ، وليخمد فى صدره كل نفثة من نفثات الشيطان ، فوجه سؤاله إلى ربه يستكفه كيفية الإحياء بعد الموت ، والتشوف إلى أسرار الصنعة الإلهية ليطمئن قلبه ، ويسكن روعه ، ويشبع رغبته فى ملابسه السر الإلهى ويستروح بها ، (وإذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى) إثارة لمشاعر ابراهيم واستحضارا للإيمان الذى يعقد عليه قلبه .

واستجاب الله لشوق ابراهيم وأعطاه غاية مأموله ، وأبان له التجربة والتعريف والتطلع ، حتى أشبع غريزته ، وشفا صدره وطمأن قلبه (قال) : – (فخذ أربعة من الطير ، فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهم جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ،واعلم أن الله عزيز حكيم) . ، ٢٦٠ : البقرة ، . ويقوم ابراهيم بالتجربة ، وتجيء الطيور الأربعة مسرعة، ويعلق الفخر الرازى على هذه القصة قائلا: ،والغرض منها ذكر مثال محسوس فى عودة الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة ، .

* * *

وفى اللوحة التالية تتجلى النفس المريضة وتُعَّرى ، ويتجسّد القلب الحاقد ويتصّدى ، ويتجسم الخلق النكد السيء ، وتبدو الطبيعة الخبيثة ملموسة ، ها هو ذا

إبليس ، وقد أخذته العزة بالإثم ، فاستكبر واستنكف ، واستغلق فهمه ، وجحد الفضل لذويه ، وحسد آدم على ما آتاه الله من نعمة الخلافة فى الأرض ، فأبى – فى خفة وسرعة وطيش – أن يسجد له استكبارا وعلوا واستعظاما وحقدا ، حيث حدثته نفسه أنه نارى وآدم طينى ، والنار أفضل من الطين ، فكان من الجن وفسق عن أمر به، وأعلن هذا العصيان الوقاح !! (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين) . ، ٣٤ : البقرة ، (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) . ، ١١ : الأعراف ، (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس قال: أأ سجد لمن خلقت طينا) ؟ ، ٦١ : الإسراء ، . (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) . ، ١١٦ : طه ، . . (فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أستكبر وكان من الكافرين) ،٧٣-٧٤:ص ،.

وفى جميع هذه الآيات تبدو لوحة إبليس منفرة ، منكرة ملعونة ، مجسمة الكبر ، ملموسة المكر والحقد ، بارزة التكبر والخبث .

إن المشهد فى اللوحة قد شخص نفسية هذا اللعين ، ورسم تبجحه الخبيث ، وعناده وإصراره المطلقين على الشر والغواية . (قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال : فأهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين) . ، ١٢-١٣: الأعراف، .

إنه لمشهد حى شاخص متحرك ، نتخيله منظرا يعرض ، وحادثا يقع ، يتيح للعين مدة كافية للتأمل ، ويدعو النفس مدة طويلة للتأثر ، ويحفز الأحاسيس والمشاعر أن تنفعل ، وتعيش الموقف بشتى وجداناتها ، وتتابع الصراع والحوار وجرس الكلمات ، ونغم العبارات .

ودوافع التملك لهذه الأرض والسيطرة عليها والخلافة فيها ، هى التى أثارت

نفس إبليس ضد آدم – عليه السلام – إذ حدثته نفسه أنه أولى منه بالخلافة – وأجدر من جميع الملائكة بهذا التقدير ، وتلك المنزلة ، فلما فشل فى تحقيق أعز أمانيه ، وسقط فى يده ، وأخذ بتلابيبه عندما أوحى الله – تعالى إلى ملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . ، ٣٠ : البقرة ، وكان هذا الخليفة آدم – عليه السلام – بادر بالكيد له وأضمر عداوته فى نفسه ، وتجسد الحقد له فوسوس إليه – بدافع حب الحياة والخلود – أن يأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها – فأزله – تحت إغرائه وإغوائه ، فأكل منها ، ووقع فى المعصية . (فوسوس إليه الشيطان – قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى) . ، ١٢٠–١٢١ : طه ، .

* * *

ووحدة العوامل النفسية فى المنهج القصصى تبدو غالبا مصاحبة للعواطف الإنسانية التى يثيرها الموقف ، ويجيشها الحدث ، ازاء المبادىء والمعتقدات إيجابا أو سلبا ، فالتفاوت فى تحمل الأعباء النفسية والجسدية إبان الأزمات وصروف الزمان ، مائل فى الثلاثة الذين خُلفوا عن الغزو مع رسول الله – ﷺ – حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فاللوحة تصورهم ونفوسهم ضائقة ، وصدورهم حرجة ، وأنفاسهم مختنقة ، وأحاسيسهم مضطربة ، والمشهد ألبسهم ثوب الحسرة والندم ، حتى هربوا من أنفسهم ، ولم يجدوا ملجأ أو مغارة أو مدّخلا يأوون إليه بعد أن نبذهم القريب ، والغريب والعدو والصديق ، ففرّوا إلى الله ، حيث لا ملجأ إلا إليه ، ولا راحة إلا فى رحابه ، ولا حماية إلا فى كنفه ، وكان الله – تعالى – عند حسن ظنهم به ، فعفا عنهم ، وقبل توبتهم ، فهدأت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وانفرجت أساريرهم [١] يقول الله تعالى فى سورة التوبة تصويرا لما اعتراهم من

حالات نفسية لتخلفهم عن الغزو . (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلّفو حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم) .(١) ١١٧ - ١١٨ : التوبة ».

واللوحة التالية ترسم عاطفة الأبوة واللهفة على فلذات الأكباد ، والحرص الشديد عليهم ، وجلب المنفعة لصالحهم ، والعمل على راحتهم ، وضمان مستقبلهم، فها هو ذا سيدنا نوح - عليه السلام - تشخصه اللوحة رافعا يديه ، فاتحا فمه يصيح مناديا ابنه أن يستجيب له ويقبل إلى السفينة ، فيأبى الولد وهو بين يدى هذا البلاء المحيط .. وهكذا يحول الموج بين الأب وفلذة كبده ، فينجو الأب بإيمانه ، ويغرق الإبن الكافر بكفره (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل:

- يابنى اركب معنا . ولاتكن مع الكافرين .

(قال) الابن العاق الذى خرج عن أمر أبيه :

- سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء .

(قال) الأب الملهوف المشفق على ابنه والحريص على نجاته :

- لا عاصم اليوم من أمر الله ، إلا من رحم .

---

(١) جاء فى كتب التفسير أن الثلاثة الذين وردت الآية بشأنهم - هم : كعب بن مالك - وهلال بن أمية - ومرارة بن الربيع .

وتدور السفينة دورتها وتنفتح أبواب السماء بماء منهمر و تتفجر الأرض عيونا، ويعلو الماء ويرتفع حتى يفوق عنان الجبال الشم ، ويغرق الإبن مع الهالكين الكافرين .

والصورة التى رسمتها اللوحة للموج ، لاتعنى أن تكون الأمواج مثل الجبال حجما وعلوا ، سواء بسواء ، إنما هو تصوير وتمثيل ، حتى يأخذ الخيال مجاله فى التخييل والتجسيم ، ، وفى الأمواج ما يرتفع إلى علو يبدو وكأنه فوق صفحة الماء هضاب ، وجبال على ظهر الأرض .. فالأمواج العالية ، هى جبال فوق سطح الماء ، وإن لم تبلغ الجبال التى على ظهر الأرض طولا وضخامة وارتفاعا ، (١) .

وعلى الجانب الآخر لوحة تصويرية أخرى ، إنها لم تتناول الأب وحده ، وإنما صورت لهفة الوالدين على ابنهما الضال ، وقد عقّهما إلى آخر أيام حياتهما ، ولم تكن له غاية من كمال عقلى أو خلقى أو توازن شعورى ، ليس هذا فحسب !! بل تجاوزه إلى العدوان عليهما ، إذ يدعوانه إلى الخير ، ويمدان أيديهما إليه بالإحسان ويطلبان منه أن يؤمن بالله ، وأن يخرج من هذا الضلال الذى خيّم عليه ، ويجتنب الطاغوت ، فيلقاهما بالردع والزجر ، فيستغيثان الله من أجله ويتضرعان إليه أن يهديه إلى الإيمان ، استجابة لتحرك عاطفة الأبوة فى قلبيهما ، وحرصا على نجاته من عذاب الله .. ولكنه قد حقت عليه الكلمة ... فكان من الخاسرين (والذى قال لوالديه :)

- (أف لكما !! أتعداننى أن أخرج ، وقد خلت القرون من قبلى) ؟ (وهما يستغيثان الله) من أجله ، ويطلبان له من الله الهداية .

- (ويلك . آمن .. إن وعد الله حق) .

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن . المجلد الثالث ص ١١٤٣ عبد الكريم الخطيب .

(فيقول) فى بجاحة وصفاقة .

- (ما هذا إلا أساطير الأولين) . ، ١٧ : الأحقاف ، .

وثمة لوحة مقابلة لعاطفة الأبوة ، صورها السياق القصصى ، وشخصها فى نفسية ابراهيم - عليه السلام - إذ تحركت فيه عاطفة البنوة نحو أبيه ، فاهتم بأمره ، وحرص على هدايته ، وقد عز عليه أن يراه من الضالين ، وهو أقرب الناس إلى قلبه ، وهو السبب فى وجوده ، فقدم له النصيحة ، وحذره عافية كفره - بدافع الحب والتقدير والاحترام - ولكن الصراع الحاد بين الإيمان والكفر ، وبين الهدى والضلال ، قد بلغ ذروته حتى فرق بين الإبن وأبيه .

فالصورة مفعمة بالأدب الجمّ فى مخاطبة ابراهيم لأبيه ، ففى كل دعوة تصدر منه إلى أبيه يصدرها بقوله (يا أبت) إنه نداء رقيق حبيب تظلله الرحمة ويغمره الحنان .

وفى مقابل هذه العاطفة الجياشة الرحيمة الودود ، عاطفة العناد والخشونة والكفر والتهديد بالرجم والطرد والعذاب الغليظ من جانب أبيه . (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه :)

- (يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولايبصر ، ولايغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا ،

- (يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمّسك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا) .

فيرد الأب الضليل - دون أن تندّ منه قطرة من عاطفة نحو ابنه - فلم يقل : يابنى أو يا ولدى وإنما (قال) :

- (أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا) !!

واستقبل إبراهيم الحليم ثورة أبيه العاصفة المجنونة ، ورد هذا الحمق الجهول ، والسّفه الطائش (قال) :

– (سلام عليك سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ، وأعتز لكم وما تدعـون من دون الله ، وأدعو ربى ، عسى ألا أكـون بدعـاء ربى شـقيـا) . ، ٤١–٤٨ : مريم ، .

إن كلتا الغريزين قد جسدها السياق القصصى فى لوحتين شاخصتين متقابلتين : لوحة القسوة والعنف والفلظة المتغلغلة فى طبيعة الأب ، ولوحة البر والاحسان والحنان والتقدير والعطف فى طيبة الابن الرحيم ، هذه الرغبات الجامحة والمشاعر الصادقة ، والانفعالات الثائرة فى كلتا الطبيعتين ، نتجت عن تغلغل القصة فى كلتيهما ، وفرقت بين الأب وولده ، وبين الإبن وأبيه .

* * *

وهناك الحالة النفسية المذبذبة ، حالة عدم الاستقرار والقلق والحيرة ، هذا الطراز من الناس الذين لا رأى لهم، ولا هم فى العير ولا فى النفير (مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ، ١٤٣:النساء ،

فاللوحة هنا جسّدت حياة هؤلاء المشركين ونفسياتهم المعقدة والموزعة بين الآلهة المتعددة ، إذ هم نهب للأهواء ، ومطية لكل ناعق ، فهم لم يعودوا صالحين إلى الطبائع البشرية السليمة ، ولا سبيل لهم إلى الخلاص من هذا الداء الذى توطّد فى نفوسهم ، وتمكن من قلوبهم (قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد إلى أعقابنا ، بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل : إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . ، ٧١ : الأنعام ، .

فهذه حالة من حالات الصراع النفسى ، إذ تعارضت الدوافع إلى اتجاه معين ، واصطدمت بدوافع أخرى إلى اتجاه مضاد ، فما استقاموا فى اتجاهه الإيمان ، وما اتجهوا إلى ناحية الكفر والضلال ، ولكنهم عجزوا عن اتخاذ القرار ، فالشياطين نستهويهم ونجذبهم إلى الطين والأرض وإخوانهم المؤمنون يمدون إليهم أيديهم لينقذوهم ويدعوهم إلى الإيمان وهم واقفون حائرين مترددين مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

رسمت اللوحة صورة معبرة ، لهؤلاء الضالين الذين لا يعيشون إلا فى الظلام، استهواهم الشيطان إلى الأرض حيث الطين والتخبط فى الدياجى ، والانتكاس على الأعقاب ، فى حين أن لهم أصحابا يدعونهم إلى الهدى والخروج من الظلمات، مادّين إليهم أيديهم بحبل النجاة ، فلا يستجيبون لهم ، « ولا حياة لمن تنادى » .

إنهم مساكين يستحقون العطف ، لأنهم فى حيرة بالغة ، وقلق دائم واضطراب مستمر ، تنكبوا الطريق ، وتشعبت بهم السبل . (من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) . « ١٧ : الكهف » .

فالعاطفة الدينية أقوى من عاطفة الرحم ، والأخوة فى الله أمتن من الأخوة فى النسب ، والآصرة التى تجمع الناس على وجهة واحدة ، وملة مؤتلفة ، وصبغة مفطورة ، هى المعّول فى العمل الصالح (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هو المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) . « ١٠١:١٠٣ : المؤمنون » .

لقد فرق الإيمان بين المؤمنين والكافرين ، وجعل ولاء المؤمن للمؤمنين عامة، أيا كان لونهم وجنسهم ، وأيا كانت درجة القرابة فى النسب بينهم وبينه ،

على حين قطع ولاءه لأهله ، وأقرب المقربين إليه ، إذا لم يكونوا من المؤمنين بالله ورسوله . (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) . « ٢٣ : التوبة » . فالنهى فى الآية واقع على الولاء والإيثار ، وتغليب مصلحتهم على مصالح المؤمنين ، أما النهى عن المشاعر والأحاسيس أمر قد لاتحتمله النفوس . لأن فيه مشقة ومعاناة وحرج ، والشريعة الإسلامية براء منه . (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، واله لا يهدى القوم الفاسقين) . « ٢٤ : التوبة » . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحاكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) . « ١:٤ الممتحنة » .

* * *

وشبيه بهذه اللوحة ، لوحة الذين يعبدون الله على حرف ، تتسلط عل قلوبهم خواطر التفاؤل والتشاؤم ، وتسيطر على نفوسهم عوامل قديمة وأخرى حديثة ، وتتنازع عواطفهم أسباب المكسب والخسارة ، فهم يقعون فريسة القلق والاضطراب ، حتى لا يستقروا على يقين ، يضجون وينعقون إذا مستهم الضراء ، ويطيرون من الفرح إذا لمستهم السراء ، وتبلغ أفئدتهم الحناجر إذا ما ابتلوا فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وتسمع مكاءهم وتصديتهم إذا نجوا من موت محقق ، أو غنموا غنما طائلا ؛ لأن ميزان العقيدة عندهم ميزان حسىّ ، ومقياس الدين ومفهومه مرتبط بالمكسب والخسارة ، مثلهم كمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، إنهم يقفون على مفترق الطرق بين الإيمان والكفر ، إنهم يعبدون الله على حرف أو جانب واحد ، دون أن يعطوا الله وجودهم كله ، فإن أصابهم فى دنياهم خير أو مستهم عافية ، أطمأنوا وهدأ روعهم ، وإن أصابتهم مصيبة ، أنكروا الله وتنكروا النعمة والآية . (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير أطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، يدعو من دون الله ما لايضره ومالا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد) لأنه يفر من وجه الله ويفزع من بلائه الى من لايملك ضرا ولا نفعا . (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ، ولبئس العشير) . « ١١-١٣ : الحج » .

إنه لمشهد عجيب ، شخّص هذه النفوس المريضة ، ورسم هذه القلوب المغلقة عن الخير ، والأسماع النابية عن الحق ، وصوّر الأبصار الكليلة عن الهدى ، والعزيمة الرخوة المائعة ، والعقيدة المضعضعة الفانية ، حتى إذا جدّ الجد ، وظهر الشد والمد ، انكشفت حقيقة نفوسهم وتعرّت طبائعهم التى لاتعرف ربها ، ولا تلجأ إليه إلا فى ساعات الضيق والكرب (هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا

كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا اله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم ، إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأأيها الناس – إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون) . ، ٢٢–٢٣ : يونس ، .

إن اللوحة مليئة بالأحاسيس والمشاعر ، والخواطر والوجدانات ، وإن الخيال ليتمثل هذه الفئة من الناس يركبون البحر فى ريح رُخاء ، تصحبهم السكينة والبهجة ، يرتعون ويمرحون فى بُلهنية ورفاهية ، وعلى حين غرة يهيج البحر ويضطرب ، وتزمجر العواطف وتلتهب ، فإذا الهلع والفزع ، والصراخ والصياح والعويل ، كل يتشبث بالآخر فى هذيان محموم ، وكرب مكروب ، وتتعالى الصيحات والاستغاثات ، وتختلط الصراعات والتأوهات والاستنجادات ، فتدركهم رحمة الله ، وتحل النجاة ، وتهدأ العاصفة وتخفت الأصوات ، وتطمئن القلوب ، ويبلغ السفن شاطىء الأمن والسلام ، وإذا بالناس هم الناس ، وطبائعهم النكرة تنسيهم شكر الله ، وقلوبهم الجاحدة كافرة بنعم الله .

وتصور اللوحة التالية ملأً من بنى إسرائيل ، نفسياتهم كريهة للمهابة والنخوة، وعواطفهم ميتة لا يعرفون للغيْرة طريقا ، ولا للحميّة سبيلا ، رضوا بالذلة والخنوع والهوان ، إذ لايدافعون عن حرماتهم ، ولايذودون عن حياضهم ، ولايرون العدو المتسلط عليهم، أعماهم حب المال عن كل فضيلة، ورضوا أن يرتكبوا فى سبيله كل رزيلة، وركبهم البغى، وتسلط عليهم الغرور ، وأخذهم العجب والكبر ، فسلط الله عليهم من بدد شملهم ، وخرب ديارهم ، ووطىء حرماتهم ، وأزال ملكهم ، وأهلك أموالهم ، وأخرجهم من أرضهم ونبذهم بالعراء فى التيه أربعين سنة .

ولما جاء خلفهم من بعدهم ، ودبت الحياة فيهم ، تحركت فيهم أثارة من رجولة ، وقلامة من نخوة فقالوا لنبيهم : اختر لنا ملكا نجتمع إليه ، ونلتف حوله ، ونقاتل تحت لوائه ، لنستعيد ملكنا ، ونرجع إلينا ديارنا ، ونبيهم على علم يقين بطباتهم ، ودخائل نفوسهم ، وعقد عواطفهم ، وتبلد إحساسهم ، وموات شعورهم ، إذ يرى فى أنفسهم ما لا يرون ، ويعلم من أمرهم ما لا يعلمون ، لأنهم يقولون مالايفعلون ، ويظهرون بأقوالهم ما يخالف المكنون فى صدورهم ، أو يبطنون .

ولما سألهم نبيهم عن مدى خوضهم لتجربة المعامع، وكيفية الزحف والقتال، وممارستهم الاحتدام والنزال – أخذتهم الحمية الفارغة ، وتغلبت عليهم شهوة القول، وتملكتهم عريزة حب الظهور فأجابوه ولم لا؟ إن الحوافز التى تدفعهم إلى خوض هذه التجربة لكثيرة، لقد أخرجوا من ديارهم ، وسلبت أموالهم ، وشردوا وقُطعوا هم وأولادهم، فهل يصبرون على هذا الضيم وتلك المذلة ؟؟

وحين جد الجد ، واشتد المد ، وحانت ساعة القتال ، وحمى وطيس النزال – رجعت أنفسهم المريضة إلى طبيعتها ، وماتت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، وسلكوا منوال آبائهم ، « ومن شابه أباه فما ظلم » وأبوا أن يكونوا رجالا أو أشباه رجال ، فزلت أقدامهم ، وتعفرت وجوههم بغبار الخزى والمهانة ، وسقطوا فى حضيض الذلة كآبائهم . (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم : إبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) « ٢٤٦ : البقرة » .

ولما اختار الله لهم ملكا يقاتلون تحت لوائه ، إجابة لطلبهم ، عادت أنفسهم

تزنه بميزانهم الحسى والمادى ، ولم تقع أنظارهم على ما فيه من فضائل نفسية وخلقية وروحية ، حيث يتفاضل الناس بها ويتميزون ويتفاخرون ويُمتدحون ويُفضلّون ، ولكن المال أعماهم ، والذهب والفضة أغواهم ، وحب الاقتناء أغلق تفكيرهم وأذهانهم ، فانكروا أن يكون ملكا عليهم ذلك المختار من السماء . (وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟؟ قال: إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) ،٢٤٧: البقرة، .

إن طبائعهم اللئيمة التى ترى الحق رأى العين فنكتمه وتنكره ، وإن خبثهم ومكرهم بلغ حدا من السفه ، حتى قتلوا أنبياء الله ورسله ، لقد تمكن داء حب الحياة، والاستكثار من ملذاتها ومتاعها فى أنفسهم ، لقد أعماهم الغرور فكفروا بآيات الله ، وجحدوا نعمه ، وغيروا وبدّلوا آياته حسب ما أملت عليهم أهواؤهم وسوّلت لهم أنفسهم.

واللوحة التالية تشير إلى ما فى نفوس هؤلاء القطعان الشاردة من كنود ، وما فى طبائعهم من جفاء وجماح ، وما ضُمّ عليه كيانهم من جحود وكفران بآلاء الله التى أسبغها عليهم .

من هذه النعم نجاتهم من فرعون ومارهقهم به من محن حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم (وإذ نجينا كم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) ،٤٩:البقرة، .

ومنها تكريم الله نبيهم موسى حيث أنزله فى رحاب ضيافته أربعين ليلة يناجيه فيها ، ويوحى إليه بآياته وكلماته ، ولكن طباعهم النكدة تأبى أن تعلو إلى مشارف النور ، بل شدت إلى الأرض والتصقت بالطين ، ترعى مع البهائم وتهيم

فى أودية الضلال ، فيتخذون من العجل إلها معبودا من دون الله . (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجْل من بعده وأنتم ظالمون ، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون) . « ٥١ – ٥٢ : البقرة » .

ومنها سوْق الغمام ليظلهم من وقدة الشمس وفح الهجير من هذا التيه الذى كتب عليهم أربعين سنة فى الصحراء ، وإرسال المن والسلوى ، طعام لا يتكلف عملا ، ولا بذل مجهود (وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) « ٥٧ : البقرة » .

ومنها انفجار الماء من الحجر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، بعد أن تحرقت أكبادهم عطشا فى هجير الصحراء التى تاهوا فيها . (وإذا سنسقى موسى لقومه فقلنا أضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) . « ٦٠ : البقرة » .

ومنها عفو الله عنهم بعد أن تنبهت فيهم غريزة المكر واللؤم ، وتحرك فيهم داء اللجاج والعناد ، فطلبوا من موسى أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا به (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) « ٥٥ : البقرة » . إنهم لايتعاملون مع الحياة إلا عن طريق المحسوسات وليس لهم من الادراك الفعلى شىء .. انهم لم يستطيعوا أن يروا الله فى آياته التى تدل عليه ، أو فى معجزاته التى يجريها على يد نبيهم موسى عليه السلام ، (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) «١٥٥: الأعراف» .

فعفا الله عنهم وإستجاب لموسى تضرعه ودعاءه فأحياهم بعد أن أخذتهم الصاعقة (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) . « ٥٦ : البقرة » .

واللوحة التالية تجسد ضعف ثقتهم بأنفسهم ، ينقضون العهد وينكثون على

ذواتهم ، يلبون الدعوة طالما بينهم موسى – عليه السلام – ويرجعون إلى طينتهم النكدة إذا غاب عنهم ، فالرياء والجبن والكذب والنج والشح والنفْعية والانتهازية أعمتهم حتى أنهم لايستطيعون أخذ القرار ، فهم فى ريبة وشك وتردد بين إقبال وإدبار ، وإن ذلك كله يتمثل فى قصة البقرة التى أمرهم الله بذبحها ، إذ عاندوا وتلكئوا فى تنفيذ الأمر ، وانتحلوا المعاذير وتشددوا فشدد الله عليهم .

لقد قتل فى القوم قتيل ، واختفى القاتل ولم يتعرف عليه أحد ، واتهم بعضهم بعضا وادارؤا فيه ، وذهبوا إلى موسى – عليه السلام – يختبرونه ويمتحنون قدرته ومعجزاته ، بل ليستيقنو من دعواه أنه رسول الله وكليمه .

ويوحى الله وسبحانه وتعالى – إلى رسوله أن يذبحوا بقرة ، ودهشوا وعجبوا ما للبقرة والقتيل ؟ وما العلاقة بينهما ، وكيف يتعرفون على القتيل عن طريق البقرة ، وبلغ بهم الأمر إلى اتهام الرسول باتخاذهم هزوا وسخرية وحاش للرسول – عليه السلام – أن يكون من الجاهلين ، لأنه نبى معصوم .

وفكروا وقّدروا وجمعوا بين الجهل والسفاهة وطلبوا من موسى أن يدعو ربه فى كيفيه هذه البقرة وماهيتها ، فأجابهم – عليه السلام – يأتها من أواسط البقر فى سنها ، وليست بالكبيرة أو الصغيرة ، ولم تهدّها الولادة الكثيرة أو لم يسبق لها الولادة فهى عوان بين ذلك الطرفين ، ولكنهم على عنتهم وعنادهم وتشددهم باقون ، فسألوا موسى عن لونها فأجابهم ، وفى كل مرة تضيق عليهم الحلقة ، ويدق الوصف حتى حفيت أقدامهم على بقرة ، صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، لم يذللها العمل فى حرث الأرض ، ولم تستخدم فى سقى الزرع ، بريئة من كل عيب فى أعضائها ولونها .

لم يجدوا هذه البقرة – بأوصافها الكاملة – إلا عند رجل منهم كان بارا

بوالديه فطلبوها منه فأبى ، فرغّبوه فى ثمنها حتى أعطوه – بوزنها – عشر مرات ذهبا – وأمرهم موسى بذبحها فترددوا فى تنفيذ الأمر – لجاجا وتخبطا ، وعنادا ، ثم فتحوا أعينهم وأفواههم مشدوهين ، وماذا بعد الذبح ؟؟ وهنا تتضح العلاقة ، وتتوثق الصلة بين ذبح البقرة وهذا القتيل ، حيث أمروا بضربه ببعضها ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله – تعالى – فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبى الله موسى: – من قتلك؟ قال – قتلنى ابن أخى ، ثم عاد ميتا كما كان . قال الله تعالى :(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا:

– أتتخذنا هزوا . (قال) :

– أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . (قالوا) :

– ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ (قال) :

– إنه يقول : إنها بقرة لافارض ولابكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ماتؤمرون. (قالوا) :

– ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها (قال) :

– إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . (قالوا) :

– ادع لنا ربك يبين له ما هى ؟ إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون . (قال) :

– إنه يقول : إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ، ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها . (قالوا) :

– الآن : جئت بالحق (فذبحوها وما كادوا يفعلون)

(وإذ قتلتم نفسا ، فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا) :

– اضربوه ببعضها (كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم

تعقلون) . الآيات : « ٦٧ – ٧٣ : البقرة » .

لو أن بنى إسرائيل امتثلوا ما أمروا به من أول الأمر ، وعمدوا إلى أية بقرة من البقر لكانوا قد أدّوا ما أمروا به ، وكفواْ أنفسهم مئونة هذا العذاب وذلك العناء ، فإنه ليس للبقرة ولا لذبحها وضرب الميت ببعض لحمها علاقة بالحياة التى عادت إليه ، فقدرة الله فوق الأسباب جميعا ، ولكن الهدف أن الناس يعملون ويتحركون إلى الغايات التى ينشدونها ، فالتلازم بين الأسباب والمسببات مرهون بإرادة الله ، وبقدرة الله .

ومن الوجهة الفنية ، قدّم النظم القرآنى ما حقه التأخير ، وأخّر ما حقه التقديم ، فالأحداث مقلوبة – وذلك ما يلجأ إليه كبار الكتاب الآن – فورد ذبح البقرة بعد أن وقع حادث القتل ، وبعد أن تراموا بالتهم فيه ، والحكمة المقصودة من هذا أن ذبح البقرة أمر ليس مقصوداً لذاته وإنما هو وسيلة ، للتلازم بين الأسباب والمسببات .

* * *

وفى اللوحة التالية تصوير للتردد والخوف والقلق النفسى الذى وقع فى بعض نفوس المسلمين فى غزوة أحد ، حتى لنصير الخواطر كأنها أصوات تسمع ، أو كأنها مسطورات تقرأ ، أو كأنها محسوسات تلمس ، فلا تخفى على الله خافية ، مما يدور فى الصدور ، أو خاطرة تحاك فى أعماق القلوب .

فقد أعد رسول الله – ﷺ – جيشا ليلقى قريشا وجموعها – التى أقبلت على مشارف المدينة – عند جبل أحد ، وقال رسول الله ﷺ للمقاتلين قبل المعركة : « لايقاتلن أحد حتى آمره بالقتال » ونزل الكفار ببطن الوادى ، وكان معهم مائتا فارس يمتطون صهوات خيولهم ، وأمر الرسول – ﷺ – أصحابه إلا يبرحوا أماكنهم ، سواء

أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين ، وأمّر عليهم عبدالله بن جبير ، والتحم الجيشان ، وظهر المسلمون فى أعلى صور البطولة والإقدام والفروسية ، وبرز فى القتال « حمزة » عم النبى – ﷺ – فقتل اثنين من حملة لواء الشرك وغيرهما ، وكان يترصد لحمزة عبد حبشى يسمى « وحشىّ » ماهر فى رمى الرمح ، فأصاب « حمزة » بحربته إصابة قاتلة ، خرّ على أثرها صريعا ، وبرز فى المعركة « أبو دجانة » وكان قد منحه النبى – ﷺ – سيفه ، فكان لا يلقى أحدا إلا قتله ، وكان حامل لواء جيش المسلمين « مصعب بن عمير » ، فقاتل حتى قتل ، فأعطى الرسول – ﷺ ـ اللواء إلى « على بن أبى طالب » وقال له : « قدّم الراية » فتقدم على قائلا : « أنا أبو القصم » فناداه صاحب لواء المشركين أبو سعد بن أبى طلحة قائلا : « هل لك يأبا القصم فى البراز من حاجة ؟ قال : نعم ، فبرزا بين الصفين ، واختلفا ضربتين ، فضربة علىّ فصرعه ، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين وسرعان ماارتدوا على أعقابهم خاسرين ، بسبب ما أصابهم من نبال المسلمين – فوق الجبل – والتقى المشاة وحمى الوطيس ، وما هى إلا ساعة حتى خار المشركون ، وولوا الأدبار – ونساؤهم يولولن – وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

ولما رأى الرماة الذين وضعهم الرسول – ﷺ – لحماية ظهور المسلمين أن الدائرة على المشركين ، وانكباب إخوانهم المسلمين على الغنائم ، نزلوا عن مكانهم بالجبل ، ليشاركوا الغنيمة ، فحذرهم « عبدالله بن جبير » أميرهم قائلا : « إن ذلك مخالفة لأمر رسول الله – ﷺ – فعصوه ونزلوا إلا قليلا منهم » .

فلما آنس « خالد بن الوليد » زوال هذه العقبة ، أسرع إلى مهاجمة من بقى

فوق الجبل ، فقتلهم جميعا ، وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا الأسلاب والغنائم ، واختلت صفوفهم ، حتى صار بعضهم يضرب بعضا ، وتفرق عن الرسول – ﷺ – أصحابه ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلقت طائفة فوق الجبل إلى الصخرة ، وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس : « إلىّ عباد الله .. إلى عباد الله : أنا النبى لا كذب : أنا ابن عبد المطلب » فالتف حوله نفر من أنصاره ، منهم أبوطلحة الأنصارى ، وكان مناضلا عنيدا ، تكسرت أقواسه ، وهو يحمى رسول الله – ﷺ – ويقول : « بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لا يصيبك سهم ، نحرى دون نحرك » ومنهم « سعد بن أبى وقاص » وكان النبى – ﷺ – يقول له : « ارم سعد . فداك أبى وأمى » ومنهم « سهل بن حنيف » وكان من مشاهير الرماة ، ومنهم « أبو دجانة » الأنصارى ، الذى جعل نفسه متراسا للنبى – ﷺ – وهو منحن عليه ، فصار النبل يقع على ظهره حتى كثر فيه ، فخر صريعا ، ومنهم « زياد بن الحارث » وقد دافع عن النبى – ﷺ – حتى وقع صريعا دونه .

وقصد أبّى بن خلف رسول الله – ﷺ – يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه النبى برمح أرداه قتيلا ، وأصيب النبى – ﷺ – بجراح من تأثير حجارة سقطت عليه ، فكسرت رباعيته (١) وشجّ فى جبهته ، وجرحت شفته السفلى ، فصار الدم يسيل على وجهه فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله : (ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) . « ١٢٨ : آل عمران » .

وسقط رسول الله - ﷺ – فى حفرة من الحفر التى عملها « الراهب » ليقع

---

(١) السن التى بين الثنية والناب .

فيهـا المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ على بن أبى طالب بيد الرسول ، ورفعه طلحة حتى استوى قائما وهو يقول ﷺ :-

« لله أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت » (١)

لو تأملنا هذه اللوحة لوجدنا أنها حوت عدة مشاهد ، كشفت معالم الطريق التى يفتش فيـها المسلمون عن أنفسـهم ، لتكون فى مـجال البصر والعبـرة وهم يرتادون مواقع الخير الذى يدنيهم من التقوى ، ويمكن لهم من الصبر .

وتبدو الوحدة المنهجية فى إبراز ما فى الرؤوس من تزاحم الأفكار ، وتجسيد ماعلى الشفاه من خواطر وهمسات ، وتصوير الغمغمات التى تكاد لكثرتها أن تكون هديرا كهدير البحار الهائجة ، أو زمجرة كزمجرة الرياح الهوج .

(وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) «١٢٢: آل عمران».

فالمشهد هنا يعكس صورة النبى - ﷺ - وهو يغدو مبكرا بعزيمة قوية ، هو ومن معه من المتقين ، ليقاتل قريشا وجموعها التى أشرفت على المدينة عند جبل أحد ، ويعطينا المشهد حرية التخييل فى حركاته - ﷺ - وهيمنته على جنوده وهو يبوئهم مقاعد للقتال ، ويحذرهم مغادرتها فى حالتى النصر أو الهزيمة .

ومشهد النفوس المريضة التى تظهر مالا تكن من التردد بين الإقدام والإحجام، مما خّول لها الفرار من المعركة قبل نشوبها ، حيث كانت فريسة للوساوس السيئة ، أو النزعات الشريرة .

والمشهد التالى يصور معركة بدر التى انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسما

---

(١) البداية والنهاية : الجزء الثانى ص ٩٦ وما بعدها .. الحافظ بن كثير .

على هذا العدو الغفير الذى جاء اليهم يومذاك وفى المشهد صورة حية نابضة ، فيها كل أحداث المعركة بشخوصها ومشخصاتها من بدئها إلى نهايتها ، تذكيرا للمقاتلين، وتشجيعا لخوض المعمعة .

(ولقد نصركم الله ببدر ، وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند اله العزيز الحكيم) . ، ١٢٣-١٢٦ : آل عمران ، .

ومشهد هذا المدد السماوى ، والتخييل يتصوره كيف كان نزول الملائكة ؟ على هيئة رجال أو فرسان أو ملائكة بصورهم الطبيعية ؟ والسيوف القاطعة فى أيديهم تطيح الرءوس وتضرب كل بنان (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان) . ، ١٢ : الأنفال ، . ، إن هذه القوى السماوية لو جُسِّدت لكانت رجالا وفرسانا ، ولو عُدّت لكان حسابها فى الرجال والفرسان بثلاثة آلاف من المقاتلين ، (١) .

(إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم) . ، ٩-١٠ : الأنفال ، .

والمشهد الذى يشير إلى ما كان من جماعة الرماة التى جعلها الرسول الكريم من وراء جيش المسلمين تحمى ظهورهم ، من أن يأخذهم كمين من العدو يفاجئهم

(١) التفسير القرآنى للقرآن : المجلد الأول ص ٥٧٦ عبد الكريم الخطيب .

على غرة ، فإننا لو تصورنا اللوحة الفنية للمحاولة التى حدثت بين الرماة والحوار الحاد الذى دار بينهم وفحواه:

– ما موقفنا هنا وقد ولّى المشركون الأدبار وانهزموا ؟

– إن الرسول – ﷺ – لم يلزمنا أن نكون حيث نحن ، إلا لنحمى ظهر المسلمين من العدو ، فأين هذا العدو ؟

– ياقوم : الزموا أماكنكم كما أمرنا رسول اله ، ولاتتحولوا عنها .

وليتصور الخيال ما ورد فى هذه اللوحة من تكالب المسلمين على الغنائم والأسلاب ، كل يريد حظه منها ، إنها غريزة حب الاقتناء .. أنظر كيف صورتها الآية الكريمة وجسدتها ، يقول الله تعالى : (ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين) . « ١٥٢ : آل عمران » .

أما مشهد انقضاض خالد بن الوليد ، ومن معه من المشركين ، على المسلمين من الخلف – بعد أن ترك بعض الرماة أماكنهم – فقد شخصت الآية الكريمة التالية المفاجأة التى أذهلت جيش المسلمين ، حتى ضرب بعضهم بعضا ، حينما أوتوا من الخلف على غرة ، وأمعن خالد القتل والتمثيل فيهم ، حتى تحولت دفة المعركة من جانب المسلمين إلى جانب المشركين . (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدو ذلك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم ليرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ،

وليبتلى الله ما صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور) . ،١٥٤ :آل عمران، .

* * *

وفى قصة قابيل وهابيل ما يشير إلى ما سيحدث بين الناس من ظلم بعضهم لبعض ، واعتداء بعضهم على بعض بسبب المنافسة ، والانسياق وراء شهواتهم ، وانقيادهم لغريزة الجنس ، فوقع أول حادث قتل فى حياة البشرية بسبب إغواء الشيطان ، إذ تمكنت الغيرة فى نفس قابيل حينما تقبل الله تعالى قربان أخيه هابيل ولم يتقبل قربانه فقتل أخاه . (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال :)

– لأقتلنك) . فرد عليه هابيل (قال) :

– إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العاملين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين) .

وهكذا امتلكته ثورة الغضب ، والغضب من الشيطان ، والشيطان من النار ، (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين) .، ٢٧ :٣٠ : المائدة ، .

فالقصة عرض للإنسانية بشطريها : الطيب والخبيث ، وعلى وجهيها المشرق والمظلم ، وفى جانبيها : الملائكى والشيطانى ، فالحسد والغيرة وغريزة التملك ، والغريزة الجنسية علة التنافس فيها ، وسبب احتدام الصراع بين الأخوين ، إذ اندلعت الشرارة ، وشب ضرامها وتأجج أوراها فى صدر قابيل ، وكانت الفتنة ، ووقعت الخطيئة ، وأريقت الدماء فكان الهلاك والبوار .

من أجل ذلك حث القرآن الكريم – الناس على التنافس الشريف فى عمل

الخيرات والتمسك بالقيم الإنسانية العليا ، واتباع المنهج الربانى فى الحياة ، سواء فى علاقتهم بالله تعالى أو فى علاقاتهم الدنيوية والأسرية حتى يفوزوا بمغفرة الله ورضوانه ويحظوا بدخول الجنة التى أعدت لهم . (فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) . ، ٤٨ : المائدة ، (ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات) . ، ١٤٨ : البقرة ، . (إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) . ٢٢-٢٦ : المطففين ، . (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم) ، ٢١: الحديد ، .

فنفوس هؤلاء الملأ أمارة بالسوء تشتهى الشهوة لذاتها سواء كانت الى الجنس أو الطعام أو الشراب أو الغنى أو الخيل المسومة ، أو التسلط أو الغطرسة أو الظلم، وكل أولئك من شهوات الحياة .

فأول جريمة قتل عرفتها البشرية ، كانت فى نفس ، قابيل ، الأمارة بالسوء (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العاملين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين) . ، ٢٧ - ٣٠ : المائدة ، .

(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، إنه كان منصورا) . ، ٣٣ : الاسراء ، .

فالنفس الشهوانية إذن هى التى تشتهى كل ملذات الحياة ، والشهوة الجنسية

تمثل الحد السلبى لهذه النفس ، وإن امرأة العزيز التى وقعت تحت تأثيرها إذ راودت يوسف عن نفسه ، قد اعترفت بجريرتها ، بعد أن اتهمته بالتعدى عليها ، وأقرت بأن النفس أمارة بالسوء قال تعالى : (وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) . ، ٥٣ : يوسف ، .

فدافع الجنس ودافع الظلم ودافع التملك من الدوافع النفسية الغريزية والفطرية ، والمكتسبة من البيئة والثقافة والمجتمعات ، فالإنسان يتعلم من الثقافة التى ينشأ فيها ، ومن الحضارة التى يعاصرها ، ومن خبراته الشخصية – يتعلم حب التملك فى المال والعقارات والأراضى والممتلكات المختلفة التى تحقق له عيشة رغدة ، وتؤمنه من الفقر والفاقة ، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة فى المجتمع يقول الله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب) . ، ١٤: آل عمران ، .

(وتحبون المال حبا جما) . ، ٢٠ : الفجر ، .

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) . ، ٤٦ : الكهف ، .

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد) . ، ٢٠ : الحديد ، .

فهؤلاء المترفون والمنعّمون قد استقرت حياتهم على الدعة ورغد العيش ، والاستمتاع بملذات الحياة وطيباتها ، إنهم قد خلدوا إلى الراحة والنعيم والطمأنينة إلى ما هم عليه من حال ، فإذا جاءهم ما يغير حياتهم قاوموه ، وإذا وفد إليهم من يبدل أوضاعهم وقفوا فى وجهه – وهم يعلمون أنه على حق – لأنهم لايضمنون بقاء العز والجاه والسلطان فى الحياة الجديدة الوافدة إليهم . (بل متعت هؤلاء وآباءهم

حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون) . ، ٢٩ – ٣٠ الزخرف ، .

(بل متعنا هولاء وآباءهم ، حتى طال عليهم العمر ، أفلا يرون أنا تأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟) . ، ٤٤ : الأنبياء ، .

(حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ، إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم ، إنكم منا لاتنصرون ، قد كانت آياتى تتلى عليكم ، فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مسكتبرين به سامرا تهجرون) ، ٦٤-٦٧ : المؤمنون ، .

أما الفقراء والضعفاء من عامة الناس والدهماء منهم ، فهم أكثر انقيادا وأكثر استجابة للدعوات الجديدة ، لأنهم دائما يتطلعون إلى مستوى أفضل مما هم عليه ، وسرعان ما يؤثر عليهم سادتهم وكبراؤهم فيضلون السبيل ، حتى إذا ما التقوا بهم يوم الحشر – فزعوا إليهم يسألونهم العون والمدد فى دفع هذا البلاء عنهم : قد كنا لكم تبعا ، لقد كنا رعية لكم وأداة طيعة فى أيديكم ، هيا ادفعوا عنا بعض هذا العذاب الذى نعانى منه الآن .

(وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا :

– إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟)

فيرد عليهم سادتهم وكبراؤهم (قالوا) :

– لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص .

ويتدخل الطرف الثالث بينهما ، حين ينتهى الموقف إلى اليأس القاتل وحين يطلبون منه النجدة والوفاء بوعده ، فينكث عهده معهم ، وينقض عقده المبرم بينهم (وقال الشيطان لما قضى الأمر) :

– إن الله وعدكم وعد الحق .. ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من

سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم ، وما أنتم بمصرخىّ ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم) ، ٢١ - ٢٢ : ابراهيم ، .

(وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ، ٦٧ : الأحزاب ، .

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا :

– لولا أنتم لكنا مؤمنين .

(وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا :)

– أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين .

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا :

– بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟) . ، ٣١-٣٣ : سبأ ، .

(وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) . ، ١٢٣ : الأنعام ، .

(وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها ، إنا بما أرسلتم به كافرون) ، ٣٤ : سبأ ، .

نخلص من هذا العرض بأن القصة القرآنية التى تعنى بالأحداث والمواقف الواقعية ، هى القصة التى تعنى بالتحليل النفسى للأشخاص والأبطال ، وهذا النوع من القصص له خطره وأثره فى الوعى الإنسانى والقومى لأنه مستقى من الأحداث الواقعية نفسها ، وبيان ذلك أن هناك شخوصا يعيشون واقعهم راضين أو ساخطين ،

فيتطرق التحليل النفسى لكل شخصية ليكشف دوافع السلوك فيها ، على حسب العوامل النفسية التى يقتضيها الموقف أومجموعة المواقف ، حتى يصل التحليل إلى ما هية النفس وخباياها على ضوء هذه الأحداث وتلك المواقف .

ولم يقتصر الفن القصصى القرآنى على ذلك ، بل تعداه إلى كشف النفوس السوية وغير السوية وقسمها إلى : النفوس الأمارة بالسوء ، والنفوس المطمئنة ، والنفوس الزكية ، والنفوس اللوامة والنفوس الباطنية .

ومن النماذج النفسية التى تتكرر على مدى الأزمان ، نموذج النفس التى غلبت عليها شقوتها ، واستعلت عليها الغطرسة ، وتملكتها دوافع العناد والاستكبار فتصلبت حتى استغلق فهمها ، وأخذتها العزة بالإثم ، إنها شريحة فى المجتمعات ، تتلوّن كالحرباوات لتواكب السلطان حتى يتخذ منها بطانته ، إنهم الملأ ، وما من آية فى القرآن الكريم إلا وصورتهم تصويرا ينبىء عن فساد نفوسهم ، حريصين على منافعهم الشخصية ، ومكاسبهم الذاتية متبلدين فى أحاسيسهم ومشاعرهم ، منغمسين فى شهواتهم وملذاتهم ، سامدين غافلين فى صلف وكبرياء (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا : لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل ؟ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ،؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين) . « ٢٤٦ : البقرة » .

(قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين) . « ٦٠ : الأعراف » .

(قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة) .« ٦٦ : الأعراف » .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا) .« ٧٥ : الأعراف » .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك

من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا) . « ٨٨ : الأعراف » .

(قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم) . « ١٠٩ : الأعراف » .

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه : مانراك إلا بشرا مثلنا) . « ٢٧ : هود » .

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) . « ٣٨ : هود » .

(قال : ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إنى لك من الناصحين) . « ٢٠ : القصص » .

(فما آمن لموسى إلا ذريه من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) . « ٨٣ : يونس » .

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها) . «١٠٣: الأعراف » .

(إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين) . « ٤٦ : المؤمنون » .

(وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك قال : سنقتل أبناءهم ونستحيى نساء ، وإنا فوقهم قاهرون) . «١٢٧ :الأعراف » .

(وقال فرعون : ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) .« ٣٨ : القصص»

والنوع الثانى من أنواع النفوس التى حللها القصص القرآنى ، هى النفس المطمئنة ، النفس المؤمنة التى لا يستبد بها القلق فى أية حالة من حالاتها ، فى السراء والضراء ، إنها مستقيمة أبدا على الصراط ، راضية بما قسم الله لها ، شاكرة حامدة ، وفى الضراء صابرة راضية أيضا ، فلا تجزع ولاتسخط ، فلا الغنى يطغيها ، ولا الفقر يقعسها ويعدل بها عن الاطمئنان إلى قضاء الله وقدره ، هذا الصنف من النفوس لا يوجد إلا فى المؤمنين بالله والمتوكلين عليه ، والمفوضين

أمورهم إليه ، فهم راضون فى أكمل حالات الرضا ، ومرضىّ عنهم من ربهم ، لأنهم قدموا أعمالا طيبة رضى الله عنها (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) . « ١٨ : الفتح » .

(يأيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية) «٢٧-٢٨ :الفجر» .

(قال الله ، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم) . «١١٩ : المائدة » .

(والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) . « ١٠٠ : التوبة »

(يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا)«١٠٩ :طه »

(رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله) . « ٢٢ : المجادلة » .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه) . « ٨ : البينة » .

(ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم) . « ٥٩ : الحجر » .

(فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية) . « ٢١ : الحاقة » .

(وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية) . « ٩ : الغاشية » .

(فأما من ثقلت موازينة فهو فى عيشة راضية) . « ٧ : القارعة » .

(خالدين فيها وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله) . « ١٥ آل عمران »

(واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) . « ١٧٤ : آل عمران »

(يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) «٢١: التوبة »

(وعد اله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ،

ذلك هو الفوز العظيم) . « ٧٢ : التوبة » .

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) . « ٢٩ : الفتح » .

(يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) . « ١٦ : المائدة » .

(ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد) . « ٢٠٧ : البقرة » .

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) « ١١٤: النساء »

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين) . « ٢٦٥ : البقرة » .

وجاء فى تفسير الرازى فى قوله تعالى : (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) الاطمئنان هو الاستقرار والثبات ، وفيه أن تكون النفس متيقنة بالحق، ونظيره قوله تعالى : (ولكن ليطمئن قلبى) . « ٢٦٠: البقرة » .

وقوله تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . « ٢٨ : الرعد » .

وقد ثبت أن كل من آثر معرفة الله لشىء غير الله فهو غير مطمئن ، وليست نفسه نفسا مطمئنة ، أما من آثر معرفة الله لا لشىء سواه ، فنفسه هى النفس المطمئنة ، وكل من كان كذلك كان أنسه بالله وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله . والمعنى : ارجعى إلى ثواب ربك ، فادخلى فى عبادى ، أى ادخلى فى الجسد الذى خرجت منه ، « وادخلى جنتى »

* * *

والنوع الثالث هو النفس اللوامه ، إنها النفس التى لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت بـه من الجنة ، إنها نفس آدم التى استشعرت الخطيئة الأولى عندما عصى آدم ربه ، ومن هذا الاستشعار المستمر ، نبع اللوم المستمر (١)

ومن ذلك النوع « النفس الباطنة » وهى التى تحوى فى داخلها أشياء ، وأن تتحدث داخليا بكلام لها فقط ، إنها مستودع السر الذى يكتمه الإنسان عن الآخرين ، وقد عبـر عنها القصص القرآنى وأبان ادارة حوارها الداخلى بين ذات الإنسان ونفسه ، وتبينت النوايا التى لا يرغب الإنسان أن يطلع أحد عليها، وهذا ما يسميه علم النفس الحديث « بالشعور الباطن »(لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة) « ١ - ٢ : القيامة » . وجاء فى تفسير « الكشاف للزمخشرى » هى النفس المتقية التى تلوم النفوس فى يوم القيامة على تقصيرهن فى التقوى ، أو بالتى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان ، وعن الحسن : إن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه ، وإن الكافر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقيل : هى التى تتلوم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة ، وعلى التفريط إن كانت سيئة .

ويقول الرازى المراد بالنفس اللوامة هى نفوس الأشقياء حين تشاهد أحوال القيامة وأهوالها ، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصى ، ونظيرة قوله تعالى : (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) . « ٥٦ : الزمر » . وجاء أيضا أن الإنسان خلق ملولا ، فأى شىء طلبه إذا وجده مله ، فحينئذ يلوم نفسه على أنه لم طلبه ؟؟ ونظيره قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعا ،إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) « ١٩ - ٢١ : المعارج » .

أما النفوس الباطنة فقد حللها القرآن الكريم وأبان قدرة الله عليها فيما تخفى

---

(١) أنظر : نصوص قرآنية فى النفس الإنسانية : ص ١٢٧ د . عز الدين اسماعيل

وما تعلن ، فسلطان الله مشهود لها فى كل حال ، فإذا كانت لا تجاهر بالمنكر امام الناس ، فكيف تجاهر بالمعاصى امام الله ؟؟ فليس هناك سر بالنسبة الى الله سبحانه (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) . ، ١٠ : الرعد ، .

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) . ، ١٤ : الملك ، .

(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، بلى ورسلنا لديهم يكتبون) ، ٨٠: الزخرف ، .

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) . ، ٧٤ : النمل ، .

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) . ، ١٦ : ق ، .

(وأسروا قولكم أو اجهروا به . انه عليم بذات الصدور) . ، ١٣ : الملك ، .

(أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ؟ ان ربهم بهم يومئذ لخبير) . ، ٩ – ١١ : العاديات ، .

واللوحة النفسية التالية تجسد نموذج الإنسان الجبان الرعديد الذى لا يعرف ربه إلا إذا مسته الضراء ، واجتاحته البأساء ، فيتضرع إليه ، ويفزع إليه حيث لاملجأ إلا إليه ، ويهرع إلى ساحته إذ لا معين سواه ، فإذا ما كشف الله عنه الضر ، وأزال الغم ، فالصحة موفورة والسعادة قائمة ، رجع إلى ما كان عليه من النسيان ، والغفلة واللعب والطغيان ، هؤلاء مرضى النفوس ، تتناقص نوازعهم وتتصارع طبائعهم ولا هم لهم إلا مصالحهم وتحقيق لذاتهم ورغباتهم ، إن الآيات التالية تكشف عن أنانيتهم وتفضح أثرتهم (إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) . ، ١٩ – ٢١ : المعارج ، .

(ولويعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ، لقضى إليهم أجلهم ، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون) . (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) - « ١١ - ١٢ : يونس » .

(وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا) . « ٦٧ : الاسراء » .

(فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) . « ٤٩ : الزمر » .

(وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا اذاقهم منه رحمة ، إذا فريق منهم بربهم يشركون) . « ٣٣ : الروم » .

« أما التناسق الفنى فهو فى تلك الإطالة فى صور الدعوة عند الضر ، (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) ثم فى ذلك الإسراع عند كشف الضر ، (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) . إن هاتين الصورتين تمثلان بالضبط وقوف التيار عن الجريان أمام الحاجز القوى ، فقد يطول هذا الوقوف ويطول ، فإذا فتح الحاجز ، تدفق التيار فى سرعة ، ومر كأن لم يقف قبل أصلا » (١)

واللوحة النفسية التالية تصور دافع الظهور والسيطرة عند بعض الناس فلا علم عندهم ويدعون إتيانه ، ولا حجة لديهم ويزعمون أنهم على حق ، يجمع الواحد منهم كثيرا من الضلالات وينعصب على أنها صحيحة ، وهو فى الحقيقة جاهل بالكون الذى يعيش فيه ، وجاهل بالمجتمع وطبائع الناس فيه . وعلى ذلك يجادل فى الحق ، ويدفعه بيديه ويتشدق لسانه بالباطل يردده كالببغاء الذى لا يعى

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم ص ١٧٦ . سيد قطب

ما يقول ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) . « ٩ : الحج » .

إنه يميل بجنبه مصعِّرا خده يتهادى عجبا وكبرا واستنكافا أن يسمع دعوة الحق ، ويوليها ظهره إمعانا فى الغطرسة والكبر ، ومبالغة فى العناد والكفر ، ليشبع رغبته فى حب الظهور بالعلم – المفترى عليه – ويحب أن يحمد بما ليس فيه (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم) . « ١٨٨ : آل عمران » .

***

واللوحة التالية تصور حال المنافقين وتكشف سماتهم التى تتعلق بالعبارات والمعاملات ، وخصص القصص القرآنى سورة خاصة بهم هى سورة « المنافقون » إن هذه الفئة من الناس من ضعاف الثقة بأنفسهم ، ضعاف الشخصية والعزيمة ، يتسمون بالرياء والجبن والكذب ، والبخل والنفعية والانتهازية ، والخوف من المسلمين والمشركين ، لا يقاتلون ولا يقومون للصلاة إلا وهم كسالى ، إنهم يعجزون عن اتخاذ القرار ويترددون بين الكفر والإيمان .

ان الصورة التى رسمها القصص القرآنى لشخوص المنافقين صورة دقيقة حسية ، تنطق بدقة عن طبائعهم ، وتوضيح سماتهم التى يتميزون بها ، والصورة الكلية لهؤلاء المنافقين تتجسد فى قوله تعالى : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم .. هم العدو فاحذرهم – قاتلهم الله انى يؤفكون) (٤٦ : المنافقون » . إنهم يظنون أن المسلمين يريدون أن يبطشوا بهم وذلك نتيجة لما يضمرونه من شعور عدائى للمسلمين ،

فيقومون بإسقاط هذا الشعور العدائى عليهم ، وهم يلجئون الى الحيل العقلية وقاية لأنفسهم وحماية لها ، إنهم يبررون دوافعهم وأفعالهم المستهجنة بأن يعطوها تفسيرا محاولين أن يكون مقبولا . (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون) . « ١١ - ١٢ : البقرة » . (وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله ، إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) . « ٦١ - ٦٣ : النساء » .

واللوحة تكشف ستر نفاقهم ، وتعرى دهانهم ، وتظهر الوجه الآخر الذى يبطنونه وراء كلماتهم المنمقة وعباراتهم المزينة التى تنطق بها ألسنتهم المعسولة ، وتفيض حناجرهم بكلمات الرقة والحنان والمودة وهى فى الحقيقة تنفث قيحا وصديدا ، وتفور زفيرا وفحيحا (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له : اتق الله اخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) . « ٢٠٤ - ٢٠٦ : البقرة » .

والشريحة التالية تفضح سلوكهم وتجسم بطئهم وتنافلهم حينما دعوا الى القتال ، وسمعوا نفير الحرب ، وجد الجد ، واشتد المد ، سفلت طبيعتهم وتلبثوا وتعللوا وانتحلوا المعاذير ، حتى فاتهم ركب الجهاد فى غزوة الأحزاب التى استعدت لها قريش أيما استعداد ، حيث تعاقدت مع اليهود وتحالفت مع المنافقين لقتال المسلمين ، إنهم حرصوا جميعا على حرب المسلمين ، ووضعوا الخطة على أن يأتوا المسلمين من ظهورهم إذا التحم الجيشان ، وحفر المسلمون الخندق حول المدينة ، وأقبلت

قريش بفضها وقضيضها فى عشرة آلاف مقاتل من أجابيشهم ، وطال انتظار قريش أمام الخندق ، وعبر عمرو بن ود خندق المسلمين ، وهو من أعظم فرسان العرب المعدودين ، حتى عدوه بألف فارس ، وطلب المبارزة ، فتصدى له على – كرم الله وجهه – فأشفق النبى – ﷺ – على على ، لأنه كان فى العشرين من عمره ، ولم يستكمل قوته بعد ، وما هى الا جولة أو جولتان حتى اختلفا وقتل على هذا الكافر الصنديد وكبر المسلمون وهللوا ، واهتزت أرجاء المدينة ، وغمر البشر والفرحة أهلها ، واغتم المشركون واليهود ، وعلاهم الخزى والبوار .

وحينئذ تكشفت للمسلمين وجوه أهل النفاق ، ونزلت آيات القرآن الكريم توضح موقفهم فى ساعة العسرة ، وأرسل الله رسله وجنوده فى المعركة ، إذ هبت ريح عاصفة على معسكر المشركين فى ليلة شديدة البرد ، فاقتلعت خيامهم وأطفأت نيران قدورهم ، وأطلقت الإبل والخيل من مرابطها ، وانتصر المسلمون « بالرعب » يقول الله سبحان وتعالى فى هذه اللوحة : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود و فأرسلنا عيهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الخناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذا لا تمتعون إلا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن

أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون اليأس إلا قليلا ، أشحة عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ، يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) « ٩ – ٢١ : الأحزاب » .

رسمت اللوحة الفنية صورتين نفسيتين : الأولى حالة المنافقين وهم حريصون على منفعتهم طمعا وجشعا لما فى يد المجاهدين من غنائم وأنفال فى حالة نصرهم على أعدائهم ، فيبررون سبب مشاركتهم المسلمين فى القتال ، ويتعللون فى حالة الهزيمة – للرسول بإن بيوتهم مكشوفة مهددة بمن بعتدى عليها، حتى يستروا نفاقهم وضعف شخصياتهم ، وآخرون منهم دعوا إلى الردة وأذاعوها فى المقاتلين لتيئيسهم وزعزعة إيمانهم (يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا) . « ٦٣ : الأحزاب » فرجعوا ، ومنهم من لم يستأذن النبى ، ولم يراجعوا أنفسهم ، ولم يلتفتوا إلى عاقبة أمرهم ، ولم يتدبروا نتيجة فعلتهم .

ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل كان منهم المعوقون الذين أمسكوا غيرهم عن الخروج وحرضوهم عى التقاعس ، وزينوا لهم القعود مع القاعدين .

وسواء كان المنافقون قاعدين أو مذبذبين من أو مارقين ، أو راجعين مستأذنين وغير مستأذنين ، فإنهم جميعا لا إيمان لهم ، قد نقضوا عهد الله من

قبل، إذ دخلوا فى دين الله ، وما يقول رسول الله ﷺ .

إن هؤلاء المنافقين نموذج من الخسة والسفالة ، قد حذر الله تعالى – رسوله منهم (هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون) . « ٤ : المنافقون » ، وما أكثر الآيات القرآنية التى فضحتهم وكشفت نواياهم وأبانت سلوكهم ، يوم يكون النصر والغلبة للمسلمين المجاهدين ، تراهم ينظرون الى ما فى أيديهم من غنائم وأنفال ويقول قائلهم : (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) . « ٧٣ : النساء » . وإذا كانت الأخرى فرحوا وحمدوا لأنفسهم هذا الموقف المتخاذل ويقول قائلهم : (قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا) « ٧٢ : النساء » .

إنهم فى نكوصهم وتخاذلهم وتقاعسهم عن القتال ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وكأن أقدامهم قد شدت بثقل لا تستطيع الفكاك (وإن منكم لمن ليبطئن) . « ٧٢ : النساء » . فاللفظة موحية بالتثاقل والتعثر وعدم الخروج مع سبق الإصرار « وإن اللسان ليتعثر فى حروفها وجرسها حتى يأتى على آخرها ، وهو يشدها شدا ، وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا ، وإن الجملة كاملة تشى بأن هؤلاء المبطئين يزاولون عملية التبطئة غير منقوصة ، ويصرون عليها إصرارا ، ويجتهدون فيها اجتهادا ، ولذا حوت شتى المؤكدات (إن – لمن – يبطئن) مما يوحى بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة وشدة أثرها فى الصف المسلم ، وشدة ما يلقاه منها » .(١)

وإن الطائفة التالية من الآيات الكريمة قد نزلت فى شأنهم ، لأن خطرهم اشد من خطر الكفار أو اليهود ، لا تستقر وجوههم على حالة واحدة ، ولا تستكن قلوبهم المخادعة ، إنهم يبشون ويهشون ، ويضمرون ويبيتون (الذين يتربصون بكم فإن

(١) فى ظلال القرآن : المجلد الثانى ص ٧٠٥ سيد قطب

كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) . « ١٤١ : النساء » . (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا) . « ١٣٨ – ١٣٩ : النساء » .

(ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) . « ١٤٢ – ١٤٣ ، النساء (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزارهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض، قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: انا معكم ، إنما نحن مستهزئون، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) « ٨ – ١٥: البقرة »

***

أما الصورة النفسية الأخرى فهى خاصة بالمؤمنين ، وقد أحاط بهم الأعداء من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم من « نجد » ومن « تهامة » وقد أطبقوا عليهم من كل جهة فتمكنوا منهم ، وسدوا منافذ النجاة عليهم ، فالصورة مرسومة رسما دقيقا لحالة الفزع والخوف التى استولت على المسلمين حتى اضطرب تفكيرهم ولم يتبينوا أمرهم ، وبلغت قلوبهم حناجرهم من جراء هذا الكرب والاضطراب والخفقان ، وزاغت أبصارهم بسبب ما زلزلوا فى هذا الابتلاء الشديد والامتحان القاسى الذى

لا يصبر عليه أحد ، ولا يخلص منه إلا من رحمه الله .

وبالرغم من ذلك لم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا ، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فالموت فى سبيل الله من أسمى أمانيهم ، والله غايتهم والرسول زعيمهم والقرآن دستورهم ، ولهذا فإنهم حين رأوا الأحزاب رأوا فيهم تحقيق ما وعدهم به الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا ، وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفورا رحيما ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها ، وكان الله على كل شيء قديرا) . « ٢٢ – ٢٧ : الأحزاب » .

لقد نصر الله المؤمنين – بالرعب – إذ أرسل الله ريحا صرصرا عاتية ، أطفأت نيران الأحزاب وأكبت قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، فهرعت خيولهم ، وفزعت نوقهم ، ودب اليأس فى قلوبهم ، وسكن الرعب أفئدتهم ، فتركوا كل شيء غنيمة للمسلمين ، وكفى الله المؤمنين القتال .

***

المنهج الحسى والتجريدى

لقد زود الله الإنسان بكل الإمكانات والوظائف الضرورية التى تؤهله للحياة والخلاقة لهذه الأرض ، وجهزه بجهاز الدوافع والانفعالات ، ومنحه الحواس التى يتم عن طريقها الإدراك الحسى كالسمع والبصر والشم والذوق والحواس الجلدية ، ثم خصه بوظيفة إدراكية أخرى تفوق المدركات الحسية الملموسة ، تميز بها عن سائر المخلوقات ، فحمل أمانة العقل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا) . « ٧٢ : الأحزاب »

بذلك العقل ارتقى الإنسان من المحسوسات إلى المعانى المجردة فأصبح يفكر فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والحق والباطل ، والمبادىء العامة وحقوق الآخرين ، والاستدلال من بدائع خلق الله تعالى للكون والطبيعة على وجود الخالق وقدرته الفائقة .

فالحواس إذن وسيلة الإدراك الحسى ، والعقل وسيلة الإدراك المعنوى وكلتا الوسيلتين يستعين بها الإنسان فى الوصول إلى الحقائق والمعرفة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى المنهج الحسى فى آيات كثيرة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) « ٧٨ : النحل » ففى خلق السمع والبصر والفؤاد ما يفتح للعقل أن يرى ويتعلم ويستدل على مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ، وقال تعالى (وهو الذى أنشألكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون) . « ٧٨ : المؤمنون » ولازم الفائدة هنا تقديم الإنشاء

وهو الخلق العام للإنسان – على إيجاد السمع والبصر والفؤاد .. إذ أن الوجود الإنمسانى مقدم على ظهور هذه الحواس فيه ، وتقديم حاسة السمع على البصر ، لأن حاسة السمع تسبق حاسة الأبصار عند مولد الطفل ، والسمع أهم من البصر فى عملية الإدراك الحسى والتعليم وتحصيل العلوم ، وقدم السمع والبصر على الفؤاد – وهو العقل – لأنه لا يكون للإنسان إدراك أو تمييز إلا بعد أن تعمل حواسه كلها وتؤدى وظائفها ، وتتوثق الصلات بينها وبين خلايا المخ .

ولما كانت العلاقة وثيقة بين السمع والعقل قرن القرآن بينهما فى كثير من الآيات (قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ، ما كنا فى أصحاب السعير) . « ١٠ : الملك » . واستعمل القرآن الكريم السمع بمعنى التعقل والتدبير والفهم والإدراك قال تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) . « ٥١: النور » . وقال جل شأنه: (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنو بربكم فآمنا) . « ١٩٣: آل عمران » (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) . « ١٣ : الجن » . (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع، مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) «٨٣: المائدة» . (ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) « ١٠٠ : الأعراف .

ولما كان السمع لا ينام كما تنام حاسة الإبصار إذ تتوقف عن أداء وظيفتها حين يغمض الإنسان عينيه ويروح فى سبات عميق ، لذا قد ضرب اله على آذان أهل الكهف حتى استغرقوا فى نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) . « ١١ : الكهف » .

وحاسة السمع تسمع فى كل الأوقات سواء فى الضوء أو الظلام ، بينما حاسة البصر لا ترى إلا فى الضوء ، وحاسة السمع أيضا تستقبل الأصوات الصادرة من

جميع الجهات ، بينما العين لا ترى إلا إذا اتجه الإنسان ببصره نحو الشيء الذى يريد أن يراه (١) لذا ورد السمع فى القرآن مفردا ، بينما ورد البصر فى معظم الآيات جمعا . وذلك من أدلة الإعجاز فى أسلوب القرآن .

وقد أشاد القرآن الكريم بوظيفة العقل وقدرته على التفكير والتنظير والبحث فى الأشياء والأحداث ، واستخلاص الكليات من الجزئيات ، واستنباط النتائج من المقدمات ، واكتشاف الحقائق والمعلومات ، ودعا دعوة صريحه إلى استعمال هذا العقل وإلى النظر والتدبر فى خلق السموات والأرض ، وفى جميع الظواهر الكونية (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) . « ٢٠ : العنكبوت » . (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات واللأرض وما خلق الله من شيء) . « ١٨٥ : الأعراف» (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) . « ١٦٤ : البقرة » . (وهو الذى انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ،

ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . « ٩٩ : الأنعام » .

والمنهج التجريدى حافل بالبحث على التفكير فى ذات الإنسان وفى اسرار تكوينه البيولوجى والنفسى ، فإن فى الانفس عالما رحيبا وكونا فسيحا ، وإنه ليكفى أن يقيم الإنسان بصره على مسيرته فى الحياة ، من وجوده نطفة إلى أن صار

(١) القرآن وإعجازه العلمى ص ١٠٩ محمد اسماعيل ابراهيم .

رجلا (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) . ، ٥-٧ ، : الطارق ، . (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) . ؟ ، ٢١ : الذاريات ، (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . ، ٥٣ : فصلت ، (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين) . ، ١٢ - ١٤ : المؤمنون ، .

ولما كانت حاسة اللمس لا تقل أهمية عن حاستى السمع والبصر ، إذ هى متخصصة لاستقبال أنواع معينة من الإحساسات كالبرودة والحرارة والضغط والألم واللذة ، فقد تمركزت فى الجلد فهو حاسة الإحساس فى الإنسان ، ولذا كان العذاب الأخروى واقعا عليه ، وجعلت النار التى تشويه أشبه بثوب من النار ذاتها ، كلما بلى هذا الثوب تجدد ثوب آخر ليذوقوا العذاب (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، ان الله كان عزيزا حكيما) . ، ٥٦ : النساء ، .

وأشارت الآية التالية إلى حاسة اللمس كأداة يستعين بها الإنسان لتحسس الأشياء أو التعرف عليها (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين) . ، ٧ : الأنعام ، . فهم على الرغم من ذلك كله مصرون على الكفر والضلال والعناد والتحدى ، فقد ركبوا رءوسهم ، واتبعوا أهواءهم ، واعتصموا بغيهم وضلالهم ، فهم لن يؤمنوا أبدا ولو نزل على الرسول - ﷺ - كتاب من السماء مكتوب فى قرطاس يرونه بحاسة العين ، ويسمعون حفيف أوراقه بآذانهم ويلمسونه بأيدهم وأصابعهم .

والجلد هو الثوب الذى يكسو الكيان الإنسانى كله ، ويحوى فى داخله الحواس

جميعها من السمع والبصر والذوق والشم واللمس ، لذلك ينطقه الله يوم الحساب فيشهد شهادة كاملة على كل هذه الجوارح من الألسنة والأيدى والأرجل ، وما اقترف أصحابها من آثام . (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) « ١٩- ٢٢ : فصلت » .

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) . « ٢٤ : النور»

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) . « ٦٥ : يس » .

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) . « ١٤ - ١٥ : الحجر » .ونحن نلاحظ أن هذا المنهج فى القصص القرآنى قد عمد إلى مخاطبة الحس والتجريد وربط بينهما برباط وثيق ، وأتاح الفرصة للتخييل والتجسيم ، وأباح للحواس استقبال المعرفة والعلوم كيفما شاءت ، حتى نصل إلى مواطن الفهم والإدراك بأكثر من طريق ، وتلمس البصيرة والذهن ، وتستقر فى خلجات الشعور والوجدان ، استقرار النقوش فى الأحجار الصلدة الصماء .

فتارة يسوق المنهج كثيرا من الأدلة والبراهين للإقناع المنطقى ، وتارة يدعو الطبائع المركوزة فى النفس إلى التأمل والتفكر والتدبر ، فى مظاهر الكون ومشاهد الطبيعة الجوية والبرية والبحرية ، وتارة يحث العقول والألباب لإعمال طاقاتها فى خلق الطير والإنسان والحيوان يقول تعالى : (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف

سطحت؟؟) . ، ١٧ – ٢٠ : الفاشية ، . (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) . ، ١٨٥ : الأعراف ، . (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) . ، ١٠١ : يونس ، . (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) . ، ١٦٤ : البقرة ، . (ومن كل شىء خلقنا زوجين . لعلكم تذكرون) . ، ٤٩ :الزاريات ، .(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب) . ، ٩ : الزمر ، . (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أنْ يذكر أو أراد شكورا) . ، ٦٢ : الفرقان ، .

غاية المنهج إيقاظ الشعور والإحساسات فى الإنسان ، وتهيئتة لخلافة الأرض وخوض التجربة فيها حتى يصبح جديرا بالسيطرة عليها ، ومن ثم نرى أنه ما من قصة قرآنية إلا ويجىء التعقيب بعدها متسقا مع الوسط الذى عرضت فيه ، فمثلا فى قصة يوسف – عليه السلام – توافق بين البدء والختام (إذ قال يوسف لأبيه : يأأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) . ، : يوسف، ثم ختمت بتأويل رؤياه بعد عرض الأحداث (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا، وقال: يأأبت هذا تأويل روياى من قبل، قد جعلها ربى حقا) . ، ١٠٠ :يوسف،

وجاء التعقيب على مرحلتين :

أولاهما فى أول السورة وقبيل البدء بالقصة (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) ، ٣: يوسف،

وثانيهما فى آخر السورة ، وعقب أحداث القصة ، لدعوة أولى الأبصار ، وذوى العقول والألباب والفطنة والذكاء – لدعوتهم إلى التدبر والتفكر فيما دار بين الرسل وأقوامهم ، وكيف انجلى الموقف عن إظهار دين الله وإعلاء كلمته ، وانتصار رسله ، ومن اتبعهم من المؤمنين ، على حين وقوع البلاء والخزى والخسران على الكافرين .

(لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه، وتفصيل كل شىء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . «١١١: يوسف» .

وفى اللوحة التالية دعوة إلى النبى – ﷺ – إلى الصبر والتفكر والتدبر فى ابتلاء داوود – عليه السلام – حيث لم يكن على المستوى المطلوب منه فى مواجهة هذا الابتلاء – وإن كان ذلك لاينقص من قدر هذا النبى الكريم ، ويزيد فى قدر النبى محمد – ﷺ – فما هو هذا الابتلاء ؟؟

يقول المفسرون : إن خصمين دخلا على داوود عليه السلام – فى مجلسه ،

وتسوّرا عليه السور ، ففزع منهما ، وتوقع الشر من دخولهما على تلك الصورة ،إذ اقتحما عليه مجلسه دون استئذان، وسرعان ما يكشف الخصمان عن شخصيتهما،ويقولان له : (لاتخف) ويطلبان منه أن يعدل بينهما فى حكم قضيتهما،ويحذرانه ألا يشتط فى الجور، إن كان لايملك العدل بينهما، وتطرق إلى ذهن النبى داوود–عليه السلام – أن الأمر فيما يبدو هو محاكمة له أكثر منه احتكاما إليه .

وموجز القضية جمعتها الآية الكريمة فى كلمات : (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) «٢٣:ص» .

فالظلم واضح فى هذه القضية ، ولهذا بادر داوود عليه السلام – بإصدار الحكم فيها، دون أن يلتفت إلى الظالم . (قال) :

– (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . (وظن داوود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) . « ص : ٢٤ » ، وذهب الخصمان ، دون أن يفصل بينهما فيما اختصما فيه .

وهنا أدرك داوود أن هذين الخصمين ، إنما هما ابتلاء من الله سبحانه وتعالى « ، ليكشفا له عن أمر كان منه ، فاللوحة صورة مجسمة ممثلة فى خصمين آخرين هما : داوود وخصمه ، ووجه الشبه بين هذين الخصمين والخصمين الآخرين – (داوود وخصمه) – ظاهر وواضح، فتجسد فى الظلم والجور الذى وقع من أحد الخصمين – داوود على أحد رعيته – (فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب) .

والخلاصة أن داوود – عليه السلام ، قد تعرض لهذا الابتلاء ، وذلك الصراع العنيف بين القوى والضعيف ، وبين الحاكم والمحكوم ، وبين صاحب سلطان يعتز بسلطانه ، وبين من لا حول له ولا قوة ، وداوود – عليه السلام – يمثل السلطان والنبوة ، وقد مالت نفسه ورغبت فى شىء مما يمتلكه أحد رعاياه ، ولم يستطع الآخر أن يقول : لا توقيرا وهيبة أو خوفا وإشفاقا (وعزنى فى الخطاب) .

« أما الشىء الذى أخذه داوود – عليه السلام – من هذا الإنسان فذهب فى تأويله المفسرون مذاهب كثيرة ، فقد يكون فرسا ضمه داوود إلى جياده ، وقد يكون مزرعة بين مزارع داوود ، وليس من المحتم أن يكون امرأة ، كما تذهب الإسرائيليات ، وإن كان لسان العرب يطلق على المرأة « نعجة » [1] .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٠٧٤ .

ومن ثم جاءت الخاتمة مؤتلفة منسجمة مع أول القصة ، وجاء التعقيب آية فى الإعجاز ، محققا الغرض من القصة ،مجسما تحقيق العدل فى الحكم بين الناس ، منفرا عن الظلم والجور ، وهذه سنة الله فى خلقه ، وحكمه بين عباده . فكما لايظلمهم ربهم مثقال ذرة ، كذلك جعل الظلم محرما بينهم ، ففى الحديث القدسى:

« ياعبادى حرمت الظم على نفسى ، وقد حرمته عليكم ، فلا تظالموا » .

إنه لتعقيب واقعى يضرب المثال قبل القاعدة والتجريد ، وتعقيب دينى تشريعى بإلتزام العدل وتحقيقه ، وتعقيب فنى بالإنسان والتساوق بين بداية القصة وختامها . (ياداوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) . « ٢٦ : ص » .

واللوحة التالية تصور الذين عطلوا حواسهم عن الاستقبال، فأصبحت أجهزة خربة لاتسمع ولاتبصر ولا تعقل، إذا استغلق فهمهم، فلم ينظروا ولم يتدبروا، بل جعلوا بينهم وبين الهداية حجابا، وأقاموا سدودا حالت بينهم وبين العلم ونوره، فلم تسمح لشعاع من شعاعات الحق أن يخترق هذه السدود وتلك الحواجز، فهم أشبه بالأنعام ، بل هم أضل ، أؤلئك الذين قال الله تعالى فيهم: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لايفقهون بها، ولهم أعين لايبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها) .

هؤلاء أشبه بالناس ، لأنهم فى صورة الناس ولكنهم ليسوا أناسا ، وإنما استعملوا حواسهم وأدوات السمع والبصر والإدراك فيما يضرهم ويفسد وجودهم ، فساقهم ضلالهم؟ (إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا) . «٤٤: الفرقان» .

فها هو ذا ابراهيم – عليه السلام – يجادل بالحق « النمرود » ملك كنعان.

– كما يقول المفسرون – والتقى معه فى صدام فكرى عقلانى ، مثّل فيه الحقّ ومنطقه ، ومثّل النمرود ، سفاهة الباطل وصفاقته ، قال ابراهيم :

– (ربى الذى يحيى ويميت) .

فرد المغرور الكافر بنعم الله عليه ، حيث مكّن له فى الأرض وآتاه من فضله (قال) :

– (أنا أحيى وأميت) .

والدليل على ذلك فى إمكانى الآن قتلك أو أبقيك ، وتحاشى إبراهيم – عليه السلام – أن يدخل معه فى سفسطة ، بل جاءه بالحجة الدامغة التى أخرسته وأفحمته (قال ابراهيم) :

– (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب)

فسُقط فى يده ، وأخذ بتلابيبه وخرس لسانه ، وشل تكفيره ، وألجم مبللا بالخزى والخذلان (فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) « ٢٥٨ : البقرة»

وهكذا تأتى الخاتمة ، خاتمة هذا الظالم الطاغية الذى قال قولة فرعون (فقال أنا ربكم الأعلى) . « ٢٤ : النازعات » . وأُخِذ الطاغيتان أخذ عزيز مقتدر، فغرق فرعون وهلك، وخوّل الله للنمرود حشرة اخترقت أذنه واستقرت داخل مخه، فلم يهدأ له بال، ولم يقرله قرار حتى يضرب من خاصته بالنعال على رأسه تسكينا لهذه الحشرة، وحتى سكت النمرود سكوته الأبدى وهلك مع الهالكين. (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) . « ٢٥ : النازعات » .

هذه اللوحة جسمت هذا النمرود وعزّته، وكشفت لنا طبيعته، فبدأ قلبه مختوما، أصم اسمع، مغشى البصر، نكد الطبيعة ، مظلم الفؤاد، ضالّ الفعل (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) «٧ :البقرة » .

ولقد تضاربت الأقوال ، وكثرت آراء المفسرين فى قضية الذين ختم الله على

قلوبهم وفحواها : ما لهؤلاء الذين ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم ؟؟؟؟ وخلاصة رأى العلماء فيها أن الأمر كله لله ، فالخلق خلقه والناس عبيده ، يقضى فيهم بحكمه كيف اقتضت إرادته – قال تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون بصير) . « ٢ : التغابن » .

وعن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب – رضى اله عنه – سئل عن معنى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) . « ١٧٢ : الأعراف » . فقال عمر : « سمعت رسول الله – ﷺ – سئل عنها فقال : (إن الله عز وجل لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذريته فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره بشماله، فاستخرج منه ذريته فقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقام رجل فقال : يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله – ﷺ – (إن الله عز وجل ، إذا خلق العبد للجنة ، استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل أهل الجنة ، وإذا خلق العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت وهو على عمل أهل النار ، فيدخله به النار (١) ومن رحمة الله ولطفه بعباده أنه لم ينكشف الأمر لأى من الفريقين ، فليس هناك من أحد من أهل الجنة يعلم أنه داخلها، وليس أحد من أهل النار يعرف أنه يصلاها، بل الجميع مدعوون إلى العمل ابتغاء مرضات الله ، وكل مهيأ لما خلق له .

* * *

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ، والتفسير القرآنى للقرآن : عبد الكريم الخطيب فى تفسيرهما الأية رقم ٢ من سورة « التغابن » .

المنهج الدينى

الدين هو عصب الحياتين : الدنيا والآخرة ، وهو غريزة إنسانية مركوزة فى طبيعة الإنسان منذ أن خلقه ربه (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لايعلمون) «٣٠: الروم» . فالجميع مأمورون بعبادة الله الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، أبيضهم وأحمرهم وأصفرهم وأسودهم مقرون بذلك ، معترفون بوجدانية الله قبل أن يولدوا (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم عل أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون) ؟ «١٧٢ – ١٧٣ : الأعراف» .

فواقع التدين دافع نفسى له أساس فطرى فى طبيعة تكوين الإنسان ، فالإنسان يشعر فى أعماق نفسه بدافع يدفعه إلى البحث والتفكير لمعرفة خالقه ، وخالق الكون ، وإلى عبادته والتوسل إليه ، والإلتجاء إليه طالبا منه العون ، كلما اشتدت عليه مصاعب الحياة وكروبها ، حيث يجد فى حمايته ورعايته الأمن والطمأنينة .(١)

ومن رحمة الله بعباده أن جعل فى فطرة الإنسان وطبيعة تكوينه استعدادا فطريا، إذ أخرجهم من ظهر أبيهم آدم نسلا بعد نسل على هيئة ذر وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم) ؟ فشهدوا له بالربوبية ، وأعترفوا له بالوحدانية (قالوا . بلى شهدنا) حتى

(١) القرآن وعلم النفس ص ٤٧ د. محمد عثمان نجاتى .

لايتنكروا بعد أن تغمرهم الغفلة وتطمرهم المطالب الجسدية، ويطويهم اللاشعور فى أعماقه، فيقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا الإقرار بالتوحيد غير عالمين أو غافلين.

* * *

فالقرآن الكريم كتاب هداية ورعاية ، أنزله الله تعالى - على رسوله محمد - ﷺ - للناس كافة ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) . ٥٣ : الشورى ،

إنه يخاطب فيهم العقول والوجدان ، ويعلمهم عقيدة التوحيد ، ويزكيهم بالعبادات ، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاح دنياهم وآخرتهم ، ويوجههم إلى سعادة حياتهم الفردية الذاتية والموضوعية والاجتماعية ، ويرقى بنفوسهم فى مدارج الكمال الإنسانى ، حتى يحلقوا فى ملكوت العوالم الربانية ، وتهفو أرواحهم إلى بارئها ، وأفئدتهم إلى خالقها ، وتنسكب عليها الأنوار الإلهية ويحققوا خلافه الله فى أرضه . (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) . ، ٥٧ : يونس ، (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) . ، ٨٩ : النحل ، . (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) . ، ٢٠ : الجاثية ، . (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) . ،١٥١: البقرة ، . (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . ،٢ :الجمعة، .

ولكن الناس تفرقت بهم السبل ، وانحرفوا عن الجادة ، ووسوس لهم الشيطان

– عدوهم الأول – الذى أخرج أبويهم من الجنة – (قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض، ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين) ، ٣٩-٤٠: االحجر ، فعبدوا من دون الله أوثانا وشموسا وعجولاً ونيرانا ، وتعطل تفكيرهم ، وران على قلوبهم ، وتجمدت عقولهم – وهى من أحب خلق الله إليه – يقول الله تعالى : (انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها، . وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا) . ،٧٢ : الأحزاب ، .

لهذا بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، لأن البشرية انتكست إلى جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، فبعث الله الرسل ليخرجوا أقوامهم من الظلمات إلى النور، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وما من رسول إلا وقال : (ياقوم إعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . ، سورة الأعراف ، وقال كل رسول لقومه : (وأنا لكم ناصح أمين) (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم) ، الآيات : ، ٦٢,٦٨ : الأعراف ، .

وفى كل مرة يتصدى الملأ من أقوامهم ليعارضوا كلمة الحق ، ويرفضوا الاستسلام لرب العالمين ، ويسفهوا الرسل ويؤذوهم .

فلا غرو أن يقص الله على رسوله محمد – ﷺ – مواكب الإيمان التى رفع أعلامها رسل اله قبله ، نوح ، وهود ، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى،،، وكيف حاول هؤلاء الرسل الكرام إنقاذ أقوامهم من الهاوية التى يرفع لواءها الشيطان كى يقودهم إليها .

والقصص القرآنى بأنواعه المتعددة ، وحلقاته المترابطة ، ما سبق إلا ليعضد الدعوة الإسلامية ، ويركز عقيدة التوحيد ، ويدعم مفهوم الألوهية ، لا إله إلا الله ، (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) . (شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) . ،١٨: آل عمران ،

وما سيق إلا لمعاضدة الرسالة النبوية المحمدية ، والرد على الذين اتهموه ظلما وعدوانا (أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) ، ٣ : السجدة ، . (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ، ١٣: هود ، . (وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لايعلمون) . ، ١٠١ : النحل ، .

وصفوه بالإفك ، والافتراء ، ورموه بالجنون والسحر ، (فبرأه الله مما قالوا) وقال في شأنه – ﷺ – (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ٤ : ن ، . وقال جل شأنه : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين) . ، ٤٤ – ٤٧ : الحاقة ، .

وقياسا على نزول القرآن منجما متفرقا – على حسب الأحداث والمناسبات – (وقرأنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) . ، ١٠٦ : الإسراء ، كان لابد من أن تصير القصة سندا لهذه الدعوة الإسلامية ، ولسانا معبرا لحالها ، ووسيلتها الفعالة في العبرة والموعظة ، والتأمل والتفكير والتدبر في صنع الله الذي أتقن كل شيء ، شأنها في ذلك شأن الأدلة التي يسوقها القرآن على توحيد الواحد الأحد ، وشأن الاعجاز العلمي ، وشأن الأمثال التي تضرب ، والحكم التي تلقى ، والتصوير البياني والفني كأداه من أدوات التعبير للفهم والإقناع والإعجاز .

وأنواع القصص الديني في القرآن الكريم كثيرة :

منها قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم إلى أقوامهم ، وقد أيدهم الله بمعجزات شتى ، وهي أمور تجرى على أيدى الرسل بأمر الله ، استجابة للتحدى الذي كان يوجه إلى رسل الله ، مثل قوله تعالى في قصة المسيح عيسى بن مريم :

(إذ قال الله ياعيسى بن مريم ، اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذ أيّدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم ، إن هذا إلا سحر مبين ، وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا ، واشهد بأننا مسلمون ، إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وأرزقنا ، وأنت خير الرازقين ، ، قال الله ، (إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) . ، ١١٠ - ١١٥ : المائدة .

وإذا نظرنا إلى الطوفان فى قصة نوح عليه السلام - فإنه ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، وثورة من ثوراتها العابسة ، لقد كان طوفانا خاصا ، وفريدا إنه معجزة قاهرة متحدية ، لن يقع مثلها ، ولن تتكرر ، إنها أغرقت اليابسة ومن عليها وأهلكت الحرث والنسل .

وهؤلاء قوم عاد دعاهم سيدنا هود - عليه السلام - إلى الإيمان بالله ، وإخلاص العبودية له وحده ، فطلبوا منه معجزة بينة ، ولو جاءهم بكل آية ما تبعوه ولاآمنوا بما يدعو إليه ، (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين) . ، ٥٣ : هود ، وكانت عاقبتهم مثل عاقبة من سبقهم حيث جمعتهم كلمة الكفر وعصوا ربهم وجحدوا بآياته . (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ،

سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية) . « ٦-٨ : الحاقة » .

وقوم ثمود لم يكن موقفهم من نبيهم بأحسن من موقف من سبقوهم من أهل الشرك والضلال والعناد، فطلبوا البينة والمعجزة فأراهم إياها «(وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) « ٦٤: هود ». فاستعجلوا العذاب وعاندوا ، واستكبروا وعقروا الناقة ، فحقت عليهم كلمة العذاب . (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولايخاف عقباها) . « ١٤-١٥ : الشمس » .

وهذا لوط وقومه ، وداء هؤلاء القوم أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ولم يسبقهم فى فعل هذا المنكر أحد من قبل ، وتجيء خاتمتهم كخاتمة كل صراع بين الحق والباطل . (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وما هى من الظالمين ببعيد) « ٨٢-٨٣: هود » .

وهؤلاء قوم شعيب وداؤهم أنهم يختانون فى الكيل والميزان (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) « ١-٣ : المطففون » . فكذبوا شعيبا ولم يؤمنوا بدعوته ، بل حكموا عليه بالخروج من القرية هو ومن آمن معه ، فحقت عليهم كلمة العذاب : (فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين) . « ٩١ : الأعراف » .

وهكذا جاءت آيات الكتاب فى هذا النوع من القصص ، لتقرر هذا الحكم العام الذى يجريه الله على الظالمين الذين يقفون فى وجه الحق ويتصدون لدعاة الخير ، إنه الحكم الذى لامرد له فى التنكيل بهم وخذلانهم ، حيث لاينفعهم مالهم ولاجاههم ولاسلطانهم ، ولا ما بين أيديهم من بأس وقوة (وما أرسلنا فى قرية من

نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون) . « ٩٤ : الأعراف » .

وهناك نوع من القصص القرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت قال الله تعالى : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون) « ٢٤٣ : البقرة »

وثمة قصص لتوضيح أن الدين كله من عند الله ، وأن المصدر الواحد لجميع الشرائع السماوية – اليهودية والمسيحية والإسلام – منزل من السماء أنه المصدر الذى وصّى به الله تعالى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام ، وارتضاه – تعالى – لهم أن يقيموا هذا الدين وأن يبلغوه بأفواههم ، وأن يكونوا جميعا عليه ، وألا يتفرقوا فيه (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) . « ١٣ : الشورى » .

وهنا سؤال يتبادر إلى الذهن : لماذا لم يجىء ذكر الأنبياء فى الآية السابقة على الترتيب الزمنى ، فجاء ذكر رسول الله – ﷺ – بعد نوح وقبل إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؟ .

وكتب التفسير تقول : إن رسالة محمد – ﷺ – هى مجمع رسالات الأنبياء جميعا ، وكتابه الذى أنزل عليه هو المهيمن على الكتب السماوية ، فكان الإسلام هو الدين كله (إن الدين عند الله الإسلام) . « ١٩ : آل عمران » .

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) « ٣٣: التوبة » .

وقوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما

أنزل إليكم من ربكم ، وليزيدنّ كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) . ، ٦٨ : المائدة ، . وقوله تبارك وتعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا ، فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) . ، ٨٥ : آل عمران ، . (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) ، ٤٨ : المائدة ،

فإبراهيم عليه السلام – هو أبو الأنبياء ، وهو الذى سمانا المسلمين من قبل موسى وعيسى ومحمد – عليهم السلام – ، وإن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى ابراهيم عن طريق إسحاق ، ويعتزون بنسبتهم إليه ، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده ، ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين كما يحتكرون لأنفسهم الجنه أيّا كان ما يعملون وان قريش لترجع بأصولها كذلك إلى ابراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السلام – وتعتز بنسبها إليه ، وتستمد منها القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام ، وتستمد – كذلك – سلطانها الدينى على العرب وفضلها وشرفها ومكانتها ، ولقد وصل القول إلى حد أن اليهود والنصارى قالوا فى دعواهم : (وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) . (وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) . ولكن الله – تعالى – رد عليهم بقوله : (تلك أمانيهم) وقال للرسول – ﷺ – (قل هاتوا برهانكم ، إن كنتم صادقين) . ، ألم تكن دعوة محمد – ﷺ – استجابة لدعوة أبينا ابراهيم – عليه السلام – (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) . ، ١٢٩ : البقرة ، . (ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يابنى إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) . ، ١٣٢ : البقرة ، . وحينما حضرت الوفاة يعقوب فيم أوصى بنيه ؟ بعد أن جمعهم فى اللقاء الأخير ؟ (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت

إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى :؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) . « ١٣٣ : البقرة » .

مات يعقوب وهو مطمئن الفؤاد ، مرتاح الضمير بعد أن وصى بنيه الوصية الأخيرة(١) .

هذه هى الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعها وبين الأنبياء والرسل كلهم (قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) . « ١٣٦ : البقرة » .

وهناك القصص الذى توحدت وسيلته ، وتركزت فيه الدعوة إلى الحقيقة الواحدة التى يقوم عليها الدين كله ، ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ (ياقوم اعبدوا الله . مالكم من إله غيره) والسياق القرآنى يوحد الألفاظ التى عبر بها جميع الرسل – صلوات الله عليهم – مع اختلاف لغاتهم ، وذلك لتحقيق وحدة العقيدة عن طريق وحدة المنهج ووحدة الوسيلة ، فما من رسول إلا ودعا بهذه الدعوة ، وما من نبى جاء إلا ونصح أمته وقال : (إنى لكم ناصح أمين) .

وكما أن الدعوة كانت موحدة والوسيلة موحدة ، والأسلوب موحد وطريقة الرسل موحدة جاءت سنة الله فى عبارة موحدة ، وجرت الأقدار بمصارع المكذبين على سنن واحد فحواه : « نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه ، وإنذار من الله للغافلين على يد الرسل ، واستكبار عن العبودية لله وحده ، واغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار ، واستعجال للعذاب ، وطغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين ، وثبات من المؤمنين، ومفاصلة عن العقيدة، ثم المصرع والهلاك الذى يأتى وفق سنة الله

---

(١) انظر فى ظلال القرآن : سيد قطب المجلد الأول ص ١١٠ وما بعدها .

على مدار التاريخ ، (1) .

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه : إنى لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ، قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا أسئلكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ، قالوا : يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ، ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) الآيات : ، 25-37 : هود ، .

وعلى نفس المنوال ،. وذاك السنن دعا هود – عليه السلام – قومه – (وإلى عاد أخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون .. ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) . ،50-51 : هود ، .

وجاء من بعده أخوه صالح – عليه السلام ، فسلك الطريق نفسه ونهج النهج

(1) المصدر السابق المجلد الثالث ص 1306 .

عينه (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : ياقوم إعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب) « ٦١ : هود » .

وكذب قوم لوط نبيهم ، ونصحهم نبيهم فلم ينتصحوا وجرت عليهم سنة الله فى خلقه (كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فأتقوا الله وأطيعون ، وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ..) « ١٦٠ : ١٦٤ : الشعراء » .

والكفر والظلم لايتخلص من عناده ، ولاينفك عن طاغوته إنهم على وتيرة واحدة قوم نوح وهود وصالح ولوط ، حتى قوم شعيب (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : ياقوم إعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم .) « ٨٥ : الأعراف » . (كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب : ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فأتقوا الله وأطيعون ، وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) « ١٧٦-١٨٠ : الشعراء » .

ومن ثم جاء القصص القرآنى متعددا ومنوعا : يعالج مشكلات الإنسانية فى شتى طرائق الحياة : الروحية والعقلية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجا حكيما (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . « ١٤ : الملك » (هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن أتقى) . « ٣٢ : النجم »

فكل قصة تضع لكل مشكلة بلسمها الشافى فى أسس عامة ، حتى تترسم الإنسانية خطاها ، وتأخذ ما يلائم عصرها ، ومن هنا اكتسبت القصة خلودها وصلاحيتها كل زمان ومكان . « فالإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا ، فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة

وقانون ، أو علم واقتصاد ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة ، وعبارة صحيحة سواء بسواء ، . (١)

وهناك القصص الدال على قدرة الله تعالى على الخوارق لناموس الكون ، وطبيعة الأشياء فى مخلوقاته ، فها هو ذا سيدنا آدم عليه السلام – خلق من طين ، وسخرت له الأرض بما فيها من ماديات عسيرة وبسيرة ، لتحقيق إنسانيته وتقرير وجوده ، فهو إذن أثر من آثار قدرة الله ، يتعلق بارتباطات أخرى فى نظام الكون وتنسيقه ، وهو لبنة من لبنات الوجود المتمثل فى السماء والأرض والشموس والأفلاك ... إنه من الأرض ، إنه الطين بشتى صوره ، إنه الطين اللازب ، والماء المهين والمخلوق الغريب ، قال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغه مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا – يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) . ، ٥ : الحج ، . (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) . ، ٢٦ : الحجر ، . (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) . ، ٧٠ – ٧٤ : ص ،

هذه هى القدرة ، خلقه سبحانه بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم أمر الملائكة بالسجود له . (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . ، ٣٤ : البقرة ، .

---

(١) من مأثورات الإمام الشهيد حسن البنا .

واللوحة التالية توضح وحدة المنهج الدينى فى الإشادة بالمثل العليا كصبر المبتلين ، إذ نشروا بالمناشير وأحرقوا فى الأخدود ، وفتنوا فى ربهم وإيمانهم وأموالهم وأولادهم ، إنها قصة أصحاب الأخدود وفحواها ان جماعة كانوا تحت امرة ملك جبار وكان لهذا الملك ساحر قد كبرت سنه فقال للملك أنى قد كبرت سنى وحضر أجلى ، فادفع لى غلاما أعلمه السحر ، فدفع الملك إليه غلاما ، وكان بين الملك والساحر راهب ، فأتى الغلام الراهب ، فسمع من كلامه وأعجب به ، وكان يختلف إليه ، حتى أتى الساحر يضربه ضربا مبرحا ويقول له : ماحبسك عنى ؟؟ وإذا انصرف الغلام إلى أهله ضربوه أيضا ويقولون له :ما يحبسك عنا ؟؟ فشكا الغلام الى الراهب فقال له : إذا آراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر ، وبينما هو ذات يوم أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا فقال : اليوم أعلم أمر الساحر والراهب ، فأخذ حجرا وقال : « اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ورماها فقتلها ، ومضى فأخبر الراهب بذلك ، فقال : يا بنى أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل على ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ، ويشفى الله على يديه كثيرا من الناس ، وكان هناك جليس للملك أعمى ، فسمع الغلام ، فأتاه بهدايا كثيرة وقال : اشفنى ولك ما هنا أجمع ، فقال الغلام : أنا لا أشفى أحدا ، وإنما الشافى هو الله عز وجل ، فإن آمنت به ودعوت الله شفاك ، فآمن ودعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس معه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : « يا فلان . من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربى . فقال مستفهما : أنا ؟ قال : لا ربى وربك الله : قال الملك : ألك رب سواى ؟ قال : نعم . ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام

فأتى به الملك وقال : أى بنى . بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء . قال الغلام : أنا لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله عز وجل . قال الملك : أولك رب غيرى ؟ قال الغلام : ربى وربك الله . فأخذه بالعذاب حتى دل على الراهب ، ولم يزل بالراهب حتى وضع المنشار على مفرق رأسه ووقع شقاه ، وفعل بالأعمى مثل ما فعل بالراهب ، وقال للغلام :

– ارجع عن ربك فأبى الغلام ، فبعث به مع نفر إلى جبل وقال :

– إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه .

فلما ذهبوا به وعلوا الجبل قال الغلام :

– اللهم اكفينهم بما شئت .

فرجف بهم الجبل ودهدهوا أجمعون ، ورجع الغلام يتلمس طريقه حتى دخل على الملك فقال :

– ما فعل أصحابك ؟؟

فقال الغلام .

– كفانيهم الله .

فبعث به الملك مع آخرين إلى البحر وقال لهم كمن سبقوهم ، ورجع الصبى إلى الملك وقال له :

– إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال الملك :

وما هو ؟

قال الغلام :

– تجمع الناس فى صعيد واحد ، ثم تصلبنى إلى جزع نخلة ، وتأخذ سهما من كنانتى ثم تقول :

– بأسم الله رب الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . ففعل الملك – ووضع السهم فى كبد القوس ثم رماه وهو يقول :

– بأسم الله رب الغلام فوقع السهم فى صدغ الغلام ، ووضع الغلام يده على موضع السهم ومات فقال الناس :

– آمنا برب الغلام .. آمنا برب الغلام ..

وقال الملأ للملك :

– أرأيت ما كنت تحذر قد وقع .. قد آمن كل الناس . فأمر الملك بحفر الأخاديد ، وإضرام النار فيها ، واحترق المؤمنون شهداء ، حتى جاءت امرأة بابن لها رضيع ، وتقاعست أن تقع فى النار ، فنطق الرضيع بين احضانها :

– لا تتقاعسى يا أماه واصبرى فإنك على الحق .

* * *

وتبدو وحدة الهدف الدينيه فى بيان نعم الله على أنبيائه وأصفيائه ، وإبراز هذه الآلاء مجسدة محسوسة ملموسة ، كما فى لوحة داوود – عليه السلام – إذ سخر الله له الجبال والحديد والطير ، وعلمه صنعة لبوس من الدروع المسردة ذات الحلقات الحديدية ، لتكون حصنا للمقاتلين من جنوده ، تنتقل بنقلهم إبان لبوسهم إياها فى وقت الحرب والبأس .

(ولقد أتينا داوود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد، واعملوا صالحا، إنى بما تعملون بصير) . ١٠ – ١١: سبأ ، .

(انا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والأشراق ، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) . ١٨ – ٢٠ : ص ، .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على عظمه شأنه ، واتساع سلطانه ، إذ

كانت الجبال الشم والأطواد الصم تنقاد لأمره ، وتنصاع لمشيئته بإذن الله .

وقد ورد فى الأثر أن داوود عليه السلام – أوتى صوتا جميلا خارقا فى الجمال نافذ الأثر ، كان يرتل به مزاميره ، ويسبح الله به ، وينزهه وبحمده ويشكره، هذه المزامير قد ورد بعضها فى كتاب « العهد القديم » .

وفى الصحيح أن رسول الله – ﷺ – سمع صوت أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ، ثم قال – ﷺ – « لقد أوتى هذا مزمارا من زمامير آل داوود . »

فكان داوود عليه السلام – يسبح ربه كل حين ، والطير مجموعة من حوله تقبل عليه – لجمال صوته – والجبال تحيط به من كل جانب ، والجميع يردد وراء داوود هذه التسبيحات وتلك التنزيهات ، فى نغمات مؤتلفة منسقة ، لا خلاف ولا نشاز ، بل آية فى الصفاء والإشراق ، إذ لم يعد بين وجوده – عليه السلام – وبينها فواصل أو حواجز وفوارق .

وانتقل داوود الى الرفيق الأعلى وورثه ابنه سليمان – عليه السلام – وورث الملك عن أبيه من بعده دون إخوته ، إذ اختاره الله تعالى – نبيا كأبيه ، فالملك وراثة ، والنبوة اصطفاء واختيار . (وورث سليمان داوود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين) . « ١٦ : النمل » .

كما انعم الله على عبده داوود بهذة النعم السابقة ، أنعم على عبده سليمان بن داوود عليه السلام . بأنواع من النعم الأخرى ، وآتاه أفضالا لا تحصى ، فقد سخر له الريح (رخاء حيث أصاب) وفجر له عينا بركانية من النحاس الذائب ، وسخر له طائفة من الجن يعملون تحت إمرته بإذن ربه ، يعملون له من محاريب فى أماكن العبادة ، وتماثيل وصورا من نحاس وخشب وغيره ، ويصنعون له قدورا

ضخمة لطبخ الأطعمة ونضجها كل أولئك النماذج خارقة من صنع الله علمها الله تعالى آل داوود للعمل الصالح لا للزهو، ولا للفخر، ولا للتباهى والتعالى، لان العمل الصالح هو فى الحقيقة شكر لله على نعمه .(ولسليمان الريح غدوها شهر، ورواحها شهر، وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يدية بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور) . «١٢ - ١٣ : سبأ» ، فالشكر المطلوب هنا من آل داوود هو شكر بالعمل ، بعد شكرهم باللسان ، وحث لهم على الاستزادة من هذا الإحساس فى إطعام الفقراء والمساكين فى هذه الجفان الواسعة الجامعة ، وإتخان القدور بكثرة الأطعمة لهم ولأسرهم .

***

وفى قصة « يوسف » - عليه السلام - تجلت وحدة الهدف الدينيه ، وتجسدت نعم الله على نبيه ظاهرة وباطنة ، حسبة ملموسة ، وعقلية تجريدية .

لقد رسم القصص القرآنى شخصية يوسف الصديق بأنه نموذج للرجل الواعى الحصيف المتمكن العالم بتأويل الأحاديث (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم) [١] « ٦ : يوسف » .

ومن خلال الحوار التالى يتبين لنا مدى الغاية الرشيدة ، والعناية الإلهية التى اجنبت يوسف - عليه السلام - وجعلته من المخلصين ، وعلمته تأويل الأحاديث ثم أخذت تدفع به إلى الأمام ، لينتصر على الحسد والكيد ، ويتبوأ مقعده فى الملك ، وهذا هو تمام النعمة التى حسده عليها إخوته ونقموا منه (إذ قالوا) :

---

(١) أنظر التفسير القرآن لقرآن : عبد الكريم الخطيب

(ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة) . إذ كيف يستأثر يوسف وأخوه ، بنيامين ، يحب أبيهما دونهم وهم عصبة ؟

– اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ، يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين وأخذوا قرارهم بعد أن فكروا وقدروا ، وأشار كبيرهم بإبعاده -دون قتله – (قال قائل منهم) :

– لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ، وسألوا أباهم استفهاما إنكاريا يدل على أنهم قد كانت لهم مواقف سابقة (قالوا) :

– يا أبانا . مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون ؟ مما أكد إنكارهم لموقف أبيهم من عدم إرسال يوسف معهم .

– أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . ولكن شغف أبيهم بحب يوسف أوجس منهم خيفة (قال) :

– إنىّ ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون . وأعد الإخوه سلاح الدفاع لهذا الإحتمال . (قالوا) :

– لئن أكله اذئب ونحن عصبة ، انا إذا لخاسرون .

والباطل دائما يفضح نفسه ، ويخزى أهله : إذ جاءوا ملفقين بسواد الليل خشية أن يفضحهم نور الصباح (وجاءوا أباهم عشاء يبكون – قالوا) :

– يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين . فقد اتهموا أنفسهم قبل أن يتهمهم أبوهم – وهذا هو الإسقاط فى علم النفس التحليلى – فهم يطوفون حول جريمتهم بمشاعرهم وهمس خواطرهم وشناعة توازعهم ودوافع غرائزهم (وجاءوا على قميصة بدم كذب) . (قال) :

(– بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون .) وبنعمة الله التى أنعمها على يعقوب ، نعمة الشفافية الروحية وهذا الاستشفاف الذى يكشف للصالحين رؤية الأشياء أو الأحداث البعيدة الخارجة عن مجال حاسة الأبصار ، أو عن طريق التخاطر أو الاستهتاف أو الحاسة السادسة قال يعقوب لأبنائه متهكما ، تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا !! أكل أبنى ولم يمزق قميصه ، . وتبين ونتجسد نعمة الله على يوسف فى المشهد البعيد العميق الغائر مشهد الجب إذ يعانى فيه ما يعانى من الوحشة والجوع والخوف حتى أوشك على الهلاك ، (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال) :

– يابشرى !! هذا غلام

والتقطة القوم وأخفوه فى متاعهم (وأسروه بضاعة) وباعوه بثمن بخس ، لانهم تجار أمتعه لاتجار نفوس ، ونقدة أموال لا نقدة رجال (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين)

ونرى يوسف ينتقل من يد إلى أخرى ، حتى يقع أخيرا فى يد كبير مصر ، إذ ضمه إلى أسرته واتخذه ولدا ، وطلب من امرأته أن تكرمه وتتولى تربيته (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) :

– أكرمى مثواه . عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا

وتتوالى النعم على يوسف ، حيث مكنه الله فى بيت كبير مصر ، ومكن له فى الأرض ، وعلمه وآتاه الحكمة وتأويل الأحلام . (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين) . ، ٢٢ : يوسف ، .

فصفة الإحساس واسنادها ليوسف راجعة إلى محورين :

أولهما : إيمانه بالله ، وامتثاله لأوامره ، والتزامه الطهارة من الأرجاس

الخلقية والشهوات الغريزية .

وثانيهما : مقابلة هذا الإحسان بالشكر ، شكر عملى حسى بالجوارح ، وشكر تجريدى عقلى باللسان والقلب ، ومن تعليم الله تعالى ليوسف أنه تعلم من آبائه ابراهيم وإسحاق ويعقوب أن الله استثنى فى خمسة أشياء ، ولم يستثن فى الشكر : استثنى فى الإغناء فقال : (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم) . « ٢٨ : التوبة » .

واستثنى فى الإجابة فقال : (بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) . « ٤١ : الأنعام » .

واستثنى فى الرزق فقال :(فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) «٣٧:آل عمران».

واستثنى فى المغفرة فقال : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) . « ٤٨ : النساء »

واستثنى فى التوبة فقال : (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) . « ٢٧ : التوبة » . وقال تعالى :

(ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) . «٢٤ : الأحزاب» .

وأما الشكر فلم يستثن فيه فقال جل شأنه : ((وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) . « ٧ : ابراهيم » .

والمشهد التالى ماثل بين أعيننا نكاد نلمسه بأيدينا ، إذ برزت امرأة العزيز فى أعنف حالة من حلات شبقها ، وتصدت له تصدى الأنثى التى أعمتها الغريزة، وسيطرت على سلوكها الدوافع الجامحة ، وهيمنت على أحاسيسها ومشاعرها الرغبة

المحمومة ، فأتخذت كل التدابير ، واحتاطت لكل الطوارىء ، وبيتت النيه وعقدت العزم ، وغلقت الأبواب وراودته وطلبته (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت) :

– هيت لك .

هأنذا لك فأقبل. قالتها بصوت كله إغراء، وبنغمة حالمة مثيرة صادرة من ذات الحسن والجمال وربة الحسب والنسب.. وهنا يتحلى الله تعالى على نبيه بنعمته الكبرى، فكبح جماح نفسه –وهو الشاب المندفق حيوية وقوة، وحسنا وفتوة(قال):

– معاذ الله !! إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون . « ٢٢ : يوسف»

تمسك يوسف بدينه ، ولجأ إلى الله ، وتذكر أن السوء فى خيانة ربه صاحب النعمة عليه إذ آواه ونشأه فى بيته (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين) . « ٢٤: يوسف » .

« لا وجه لتفرقة بين همين متساويين أو بين أمرين متساويين لفظا ومعنى ، لأن الهم كان متبادلا فى اللحظة لأولى ، وحسب يوسف أنه لم يفعل ، وغاية ما هنالك أن بشريته فى أعلى مستواها وأشرف منازلها ، فربه الذى رباه فى بيته ، والبرهان شىء حسى وقع فى تلك اللحظة الحاسمة ، فحال دون وقوع هذا الأمر » . (١)

وأقيمت مباراة السباق الرهيب بين امرأة العزيز – ويوسف عليه السلام – إنه سباق بين تحقيق اللذه المحمومة ، والمقاومة فى إباء وشمم ، وكاد يوسف يحرز قصب السبق ، فشدت المرأة قميصة من الخلف ، وحتى مزق من الشد والجذب .. لقد بلغت القصة ذروة عقدتها ، واحتدم الصراع وحمى الوطيس ، ونبع الحل من الموقف ، وكانت المفاجأة (واستبقا الباب وقدت قميصة من دبر ، وألفيا سيدها

(١) التفسير القرآنى للقرآن : جـ ٣ ص ١٢٥٨ عبد الكريم الخطيب

لدى الباب ، قالت :

– ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم .

فكان جوابها حاضرا ، وكانت سريعة البديهة ، حتى أنها لم تعط فرصة التفكير للعزيز ، ليتصرف مع يوسف بعد هذا الاتهام الصريح ، إنها امرأة عاشقة ، فقد خافت على يوسف من الردى ، فأشارت على زوجها بالعقاب المأمون جانبه (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) . « ٢٥ : يوسف »

ودافع يوسف عن نفسه وعن سمعته وبراءته وشرفه (قال) :

– هى راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهد من أهلها .

بهذه الكلمات المعدودة ، رد يوسف التهمة عن نفسه ، وأردفها بالدليل الساطع والبرهان القاطع ، فكان الشاهد زوجها ، ساقة الله إليهما فى الوقت المناسب،

وقد جالت فى نفسه الخواطر حيث تلفت إلى يوسف فاحتواه بعينه ، ونظر إلى القميص فرآه ممزقا من الخلف ، وسرعان ما اتخذ القرار

– إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصة قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين .

وجاء هذا الحكم مخيبا آمال امرأة العزيز ، منصفا لبراءة يوسف الصديق (فلما رأى قميصة قدّ من دبر قال) :

– إنه من كيدكن – إن كيدكن عظيم .

وتوجه إلى يوسف معتذرا آسفا . كله خجل ووجوم ولكن فى غير إفصاح :

– يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين .

« الآيات الواردة فى الحوار السابق من « ٦ – ٢٩ : يوسف » .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بعزيز مصر ، فقد دبر فى نفسه أمرا أرجأه بعد أن تهدأ العاصفة ، ويخمد اللغط الذى سار سيران التيار الجارف من قصره إلى أهل المدينة ، فإذ الكل يتحدث عن قصة الحب الجارف ، ولاسيما ألسنة النساء – كعادتهن فى كل زمان ومكان – حتى أصبحت امرأة العزيز تلوكها الألسنة والشغل الشاغل آنذاك

(وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين) . « ٣٠ : يوسف » .

وكبر الحدث وعم المدينة ، إنها الفضيحة الكبرى ، وفى سرعة خاطفة أخذت امرأة العزيز تدبر وتعمل بفكر ودهاء وحذر (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكئا ، وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت : – أخرج عليهن) . « ٣١ : يوسف » .

ويوسف وضاء الوجه ، مشرق المحيّا ، حلو القسمات ، جميل الصورة إلى حد الفتنة والإغراء ، كأنه ملك نزل عليهن من السماء ، وإذا بكيانهن كله أصبح عيونا معلقة بهذه المعجزة ، وفى حركة لا شعورية أعملن السكاكين فى أيديهن فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن وقلن :

– حاش لله .. ما هذا بشرا – إن هذا إلا ملك كريم .

عندئذ صرحت امرأة العزيز بمكنون سرها ، ولوعة حبها ، إذ كان الأمر فوق طاقتها وأكثر مما تحتمل (قالت) :

– فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . « ٣٢ : يوسف » .

وهكذا كان انتقام المرأة لنفسها ، إنها عرفت من أين تؤكل الكتف ، عرفت كيف تقحم اللاتى جعلنها حديث المدينة ، وبدا للعزيز أن يأخذ يوسف بشىء من

العقاب ، فزج به فى السجن مع من اتهم فى أمر من أمور القصر إثر حدث وقع فيه، وهدأت نار الفتنه ، وقد استجاب الله دعاء يوسف فأبعده عنها . حيث آثر السجن على ما يدعونه إليه من إثم .

(قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) . ، ٣٣ : يوسف ، .

والمشهد التالى ويوسف فى السجن يوضح ويجسد نعمة الله عليه ، إذ جعله أكبر علماء عصره فى تأويل الأحلام ، وتتاح له الفرصة للدعوة إلى الله وإلى هداية فتبين قد ضلا عن سبيل الله فدخلا معه السجن فلما تعرفا عليه وأنســا به ، (قال أحدهما) :

– إنى أرانى أعصر خمرا .

وفى رؤياه المنامية ، (وقال الآخر) :

– إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويلة إنا نراك من المحسنين .

انتهز يوسف الفرصة لدعوتهما إلى الإيمان (قال)

– لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويلة قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ، ٣٨ : يوسف ،

واستطرد يوسف مع صاحبيه فى الدعوة إلى الله والى الإيمان به قائلا :

– يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم

إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . ٠٣٩، ٤٠ :يوسف ، .
وألح عليه الفتيان فى تأويل رؤياهما ، فواجههما معا ، حتى لايواجه أحدهما بالخبر المزعج .

– يا صاحبى السجن ، أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه .. قضى الأمر الذى فيه تستفيان ، ٤١ : يوسف ، .

ولما علم يوسف أن أحدهما سيخلى سبيله ويعود إلى مكانه ساقيا للملك شرابه (وقال للذى ظن أنه ناج منهما) :

– اذكرنى عند ربك .

وفى غمرة الفرح نسى الساقى ما عهد إليه يوسف ، فلم يذكره عند ربه (فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين) . ، ٤٢ : يوسف ، وتذكر الساقى بعد رؤيا العزيز التى عجز عن تأويلها المفسرون وجها بذة التفسير . (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) :

– أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . ، ٤٥ : يوسف ،

– يوسف أيها الصديق.. أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.. لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون. ، ٤٦: يوسف ،

وفسر يوسف رؤيا الملك (قال) :

– تزرعون سبع سنين دأبا، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، ٤٦ – ٤٧ : يوسف ،

يا سبحان الله !! لقد وقع ما تأول به يوسف حلم الملك موقع اليقين من الملك، فهتف فى الملأ حوله :

– ائتونى به .

ولما رجع الرسول إلى يوسف يستدعيه طلبا للملك رده يوسف (فلما جاءه الرسول قال) :

– ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم . « ٥٠ : يوسف »

وحتّم عليه أدبه الرفيع ، وخلقه النبوى ألا يشير إلى امرأة العزيز واستدعى الملك النسوة وسألهن عن أمر يوسف فأخبرنه أنه منزه عن كل نقص ، وأنهن لم يرين منه ما يسوء أو يشين (قال) :

– ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ (قلن) فى صراحة بالغه .

– حاش لله . ما علمنا عليه من سوء

وهنا تلتفت الأنظار ، وتدار الرءوس إلى رأس الأمر كله صاغية إليها وهى مشرئبة الأعناق (قالت امرأة العزيز) :

– الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . لقد قهرها الحق ، فأقرت على نفسها بمشهد من الملأ مستطردة :

– ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب .

اعتذار منها ليوسف وتودد إليه .

– وأن الله لايهدى كيد الخائنين . « ٥٢ : يوسف » .

– تعليق على ما كان منها من كيد وخيانة وتدبير ليوسف .

– وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم . « ٥٣ : يوسف » .

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى : (ذلك ليعلم .... إلى قوله تعالى : (غفور رحيم) هو مناجاة كانت بين يوسف وربه سبحانه وتعالى ، مما يدل على

تمام عقله وكمال خلقه .

ولما اطمأن يوسف إلى ارتياح الملك له ، وأنسه به ، انتهز الفرصة التى أتيحت له (قال) :

– اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم .

وهذه نعمة أخرى من نعم الله عليه ، إذ هو حفيظ لها ممن لا يستحقها ، وعليم بوجوه التصرف فيها ، وأشرف يوسف – عليه السلام – على وزارات الاقتصاد والتموين والمالية أربع عشرة سنة ، وأقام العدل والميزان بمصر ، وأحبه الرجال والنساء .

وتبدو نعمة الألمعية والذكاء وحسن التصرف ، عندما حضر إخوته يبتاعون فعرفهم وهم له منكرون ، فطلب أخاه منهم ، وجعله ثمنا لحصولهم على الطعام والقوت ، وكان ما كان بينهم وبين أبيهم ، فلما جاءوه به حققت حصافته قصدها بأن جعل السقاية فى رحل أخيه ، وأعلن عن حادث السرقة (وأذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون) « ٧٠ : يوسف » .

وانعقد الحوار بينهم وبين يوسف بشأن السرقة ، وبدأ التفتيش (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه) . « ٧٦ : يوسف » .

وتركهم يعودون بدونه ، وكان ما حدث بينهم وبين أبيهم ، ثم ارتدوا بأوعيتهم إلى يوسف فأعطاهم الدرس القاسى وكشف لهم عن نفسه (قالوا) :

– تالله . لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين « ٩١ : يوسف » .

ويستقبل يوسف أباه وخالته ونفسه مفعمة بعواطف البر والحنان، والتقى والإيمان، ويرفع أبويه على العرش ، ويتوجه إلى ربه شاكرا أنعمه، مناجيا مبتهلا بالدعاء.

– رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات

والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ، ١٠١ : يوسف ، .

وبعد : فإذا كنا قد طرقنا قصة ، يوسف ، فى هذا الباب على أنها نوع من القصص الدينى الذى يهدف إلى زرع القيم الإنسانية فى النفوس ، وغرس المثل العليا فى الأفئدة والصدور ، وتجسيد نعم الله وفضله على رسله وأنبيائه – فهى فى الواقع عمل فنى كامل : اكتملت فيه الوحدة الفنية القصصية ، وتمثلت فيه الوحدة العضوية بجميع عناصرها ، إذ انتقلت بمشاعرنا من الجهل بالأحداث إلى المعرفة ، ومن الحب إلى الكراهية ، ومن النماذج البغيضة كالغيرة والحسد إلى القدوة الحسنة ومن الحب إلى الحب الإلهى ، ومن حب الذات إلى حب الناس ومن السيطرة على الغضب إلى السيطرة على الفرح .

والقصة تثير الدافع إلى التعلم والرغبة فى الحصول على اللذة والمتعة فى تتبع الأحداث والمواقف ، والصراع بين الشخوص ، والحوار المعجز ، والعقد التى تضافرت ، حتى أدت كل عقدة إلى أخرى فى تسلسل منطقى عجيب ، ومواقف ليست مفتعلة ، فموقف الإخوة من يوسف – بكل ما فيه من الغيرة والحسد أدى إلى التخلص من يوسف بإلقائه فى الجب ، والجب أدى إلى انتقاله فى بيت العزيز الذى تربى فيه ، وعقدة الإعاشة فى هذا الوسط الجديد على يوسف ، أدت إلى عشق امرأة العزيز له ومحاولتها التردى وإتيان الفاحشة ، وعقدة تحطيم كبريائها وامتناع المعشوق فى إباء وشمم أدت إلى اتهامه – لولا أن برأه الله – وعقدة إعجاب النسوه به أدت إلى دخوله السجن ، وموقفه فى السجن أسلمه إلى مباشرة الدعوة إلى الإيمان بالله فهدى صاحبيه ، وموقف تأويله لرؤيا صاحبيه أدى إلى تعرف العزيز عليه ، وموقفه من تأويل رؤيا العزيز أدى إلى اعترافه بالظلم الذى وقع على يوسف البرىء المخلص المحسن ، أسلم ذلك التسلسل المنطقى إلى تبوىء يوسف مكان

الصدارة فى الحكم والوزارة .

انتهت القصة بتطهير السامع أو القارىء بما يشبه الهزات الكهربية التى طهرت انفعالاته وأحاسيسه ، وسمت بغرائزه ودوافعه ، فعولجت كما تعالج الأمراض العصبية بالهزات الكهربية .

فالقصة جسم حى ينبض فؤاده فى كل حلقة من حلقاتها ، والإعاشة بين أحداثها ، فى إثارة مواقفها وحوارها وشخوصها ، إنها اكتملت اكتمال التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها واللحن بأنغامه .

* * *

وتجلت وحدة الهدف الدينى تصديقا لأنبياء الله ورسله (رسلا مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما) . ، ١٦٥ : النساء ، .

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) . ، ٤٨ : الأنعام ، .

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) . ، ٥٦ : الكهف ، .

فكثيرا ما بشر أنبياء الله ورسله أقوامهم بالجنة ورضوان الله ، والخلود فى النعيم المقيم طالما آمنوا وعزروهم ونصروهم ، واتبعوا النور الذى أنزل معهم ، وكثيرا ما أنذروهم وحذروهم وخوفوهم عاقبة غيهم وضلالهم ، وتشبثهم بعادات آبائهم وأجدادهم .

ففى قصة الملائكة الذين نزلوا ضيوفا على إبراهيم – عليه السلام – وكانوا ثلاثة – كما تقول كتب التفسير – جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فلما وردوا على الخليل حسبهم ضيوفا ، وقام بإكرامهم وإعداد الطعام لهم – دون أن يعلمهم – فلما

قربه إليهم ، لم يمدوا أيديهم إليه ، ولم يقبلوا على الأكل من العجل السمين الذى وضعه أمامهم ، حينئذ نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فلما رأى الملائكة ما انطبع على وجه إبراهيم من أمارات التوجس والخوف ، هدّءوا من روعه ، وبشروه بالبشرى السعيدة ، بشروه بالغلام الذى كان ينتظره منذ شبابه الأول من زوجته « سارة » ولاسيما أنها كانت عاقرا ، فلما سمعت زوجته بهذا الخبر أخذتها حالة من الدهشة والعجب وأقبلت إليهم فى ولولة وانزعاج وصياح ، ضاربة بيديها على وجهها : كيف تلد وهى العجوز العقيم من شيخ قد بلغ به الكبر مبلغه قال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما ، قال : سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال :

– ألا تأكلون ؟

(فأوجس منهم خيفة قالوا) :

– لاتخف (وبشروه بغلام عليم) .

(فأقبلت امرأته فى صرة فصكّت وجهها وقالت) :

– عجوز عقيم .

(قالوا : كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) .

« الآيات : (٢٤ – ٣٠ : الذاريات) .

(نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ، ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما . قال)

– إنا منكم وجلون .

(قالوا) :

– لاتوجل . إنا نبشرك بغلام عليم . (قال) :

– أبشرتمونى على أن مسنى الكبر . فبم تبشرون ؟

ردوا عليه مؤكدين . (قالوا) :

– بشرناك بالحق ، فلا تكن من القانطين (قال) :

– ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . (قال) :

– فما خطبكم أيها المرسلون (قالوا) :

– إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط ، إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين . الآيات : « ٤٩ – ٦٠ : الحجر » .

(ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : سلاما ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لاتخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت : ياويلتى أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد) . « الآيات . ٦٩–٧٣ : هود » .

هذا جانب من جوانب التبشير ، أما جانب التحذير فقد ورد فى كثير من قصص القرون الأولى . (كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ انى لكم رسول أمين ، فاتقوا اله وأطيعون ، وما أسئلكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون . قالوا :

– لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين (قال) :

– إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون .

(فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ،

وأمطرنا عليهم مطرا ، فساء مطر المنذرين ، إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . الآيات ، ١٦٠-١٧٥ : الشعراء ، .

(ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال :

- هذا يوم عصيب .

(وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال :

- ياقوم ، هؤلاء بناتى هن أطهرلكم ، فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى . أليس منكم رجل رشيد ؟؟ (قالوا) :

- لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد (قال) :

- لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد (قالوا) :

- يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح - أليس الصبح بقريب ؟؟

(فلما جاء أمرنا ، جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسوّمة عند ربك، وما هى من الظالمين ببعيد) الآيات ، ٧٧-٨٣: هود ،

وقال تعالى : (كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر ، نعمة من عندنا ، كذلك نجزى من شكر ، ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ، فذوقوا عذابى ونذر) . الآيات ، ٣٣-٣٩ : القمر ، .

أما قصص الإثبات والتوكيد على أن محمدا - ﷺ - يوحى إليه ، ولم يكن كاتبا ولا قارئا ولامخالطا لأحبار اليهود ، ولم يأخذ منهم ، ولا حافظا قصص رستم واسفنديار ، ولم يعلمه بشر ، وإنما لقنه جبريل - عليه السلام - فقد وردت فى أكثر

من موضع ، وحسبنا أن وفد قوم نجران قد قدموا إلى الرسول – ﷺ – وكانوا ستين راكبا يتزعمهم ثلاثة من أشرافهم : « العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة » فجعلوا يناظرون الرسول – ﷺ – فى أمر المسيح فأنزل الله تعالى – قرآنا يبين فيه أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله ، وأمر الله تعالى رسوله أن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه فلما رأوا عينيها وأذنبها ، وعلموا أن الرسول حق نكصوا وامتنعوا عن المباهلة ، وعدلوا إلى المساومة والموادعة ، وقال العاقب عبد المسيح : « يامعشر النصارى ، لقد علمتم أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولانبت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم »[1]

فطلبوا ذلك من رسول الله – ﷺ – وسألوه أن يضرب عليهم جرية ، وأن يبعث معهم رجلا أمينا ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ، قال الله تعالى فى هذه القصة : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ، ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله الكاذبين) الآيات « ٥٩–٦١ : آل عمران » .

وهناك القصص الدينى الذى يجسد القيم الخلقية الكبرى – التى تخفى على كثير من النـاس – ألا وهى الفـارق بين الحكمـة الإنسانيـة القريبة العاجـلة والحكمـة الكونية الخالدة، فقد خلق الإنسان من عجل، يستعجل الأمور قبل نضوجها

---

(١) البداية والنهاية : الحافظ بن كثير الجزء الثانى ص ٦٩

ويفسر الأحداث دون أن يغوص فى أعماقها ، أو يعرف الحكمة الآجلة منها ، فكل إنسان مفطور على حب العاجل ، يتعجل كل شىء .. الخير والشر (خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون) « ٣٧ : الأنبياء » .(وكان الأنسان عجولا) « ١١ : الإسراء » .

إنه مولع بحب العاجل من المتاع ، يطلبه ويؤثره على الآجل ، وإن كان فيه من الخير أضعاف العاجل الذى طلبه وفضله ، ومن ثمّ كان الناس يطلبون الدنيا ، ويستوفون حظوظهم منها ، دون أن يفكروا فى الآخرة . وذلك ما يحملهمعلى إتيان الشر ، ويلحوا فى طلبه كأنه خير محقق ، ومناع الحياة الدنيا ليس شرا فى ذاته ، إنما هو بالإضافة إلى حال الذين يتلذذون فى دنياهم ، حيث يصرفهم عن دار المقام فى الآخرة ، ويعمى أبصارهم عن النظر إليها . (ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) ، (إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) . « ٢٧ : الإنسان » .

والقصة التالية خير مثال لتجسيد الفارق بين الحكمة الإنسانية العجلة ، والحكمة الكونية القيبية الخالدة : إنها قصة موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح.

إن موسى – عليه السلام – يطلب العلم ويتعجله ، ويجد فى تحصيله وتصويره ، ويبغى المعرفة فى غير هوادة ، ويسعى إلى الاستزادة بإلحاح المترقب المنتظر ، سواء أكان ذلك مما يتفق مع طبيعة الأشياء ومجريات الأمور أم لايتفق .

عن ابن عباس رضى الله عنه – قال : حدثنى ابن كعب أنه سمع رسول الله – ﷺ – يقول : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب . وكيف لى به ، قال :

تأخذ معك حوتا ، فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ ، فأخذ حوتا فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة ، وضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر « واتخذ سبيله فى البحر سربا » ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطلق ، فلما استيقظا نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد ، قال موسى لفتاه: (آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) « ٦٢ : الكهف » قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به ، فقال له فتاه : (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا) . « ٦٣ : الكهف » ، قال : فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا ، فقال موسى : (ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا) . « ٦٤ : الكهف » . قال رجعا بقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى ثوبا ، فسلم عليه موسى ، فقال « الخضر » : وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى ، قال : موسى نبى إسرائيل ؟ قال : نعم . أتيتك لتعلمنى مما علمت منه رشدا ، قال : (إنك لن تستطيع معى صبرا) ياموسى . إنى على علم من علم الله ، علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله ، علمكه الله ، لا أعلمه ، فقال موسى: (ستجدنى إن شاءالله صابرا ولا أعصى لك أمرا) «٦٩ :الكهف». فقال « الخضر » : (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) . « ٧٠ : الكهف » . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا « الخضر » فحملوه بغير قول ، فلما ركبا فى السفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد خلع لوحا من السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟! لقد جئت شيئا امرا) . (قال : ألم أقل

لك : إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا) . « ٧١-٧٣ : الكهف » . قال . وقال رسول الله - ﷺ - وكانت الأولى من موسى نسيانا ، وقال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة ، فقال له « الخضر » : ماعلمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة ، فبينما يمشيان على الساحل ، إذ بصر « الخضر » بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ « الخضر » رأسه بيده فاقتلعه ، فقال له موسى : (أقتلت نفسا زكية بغير نفس . لقد جئت شيئا نكرا ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ؟) . « ٧٤-٧٥ : الكهف» . قال : وهذه أشد من الأولى (قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا) . (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) . « ٧٦-٧٧ : الكهف » . قال: «مائل ، فقام « الخضر » فأقامه بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال : هذا فراق بينى وبينك . سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عيه صبرا ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار ، فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) . « ٧٧ - ٨٢ : الكهف » . فقال رسول الله- ﷺ- « وددنا أن كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما. [١]

(١) انظر البداية والنهاية : الجزء الأول : الحافظ بن كثير .

فالدرس العملى ينكشف عن أن موسى – عليه السلام – ممثل للإنسانية جمعاء ، فى حدودها التى أقامها الله عليها ، وفى تصرفاتها مع الأشياء على مقتضى ما تعلم منها بإمكاناتها المحدودة ، على حين كان العبد الصالح ، ممثلا للعالم العلوى ، عالم ما وراء المحسوس ، يستملى معارفه من عالم النور ، فيرى بعين الغيب عواقب الأمور ، يصل إلى نتائجها الحاسمة ، قبل أن تتحرك الأسباب ، وتتولد المسببات .

« موسى يمثل الإنسان ، من حيث هو كائن محدود القدرة ، لا يرى من الأشياء إلا ما على السطح ، أو ما وراء السطح بقليل ، أما أعماق الأشياء وأما صميمها فليس له إليها سبيل ، مهما يبلغ علمه ، ومهما تكن معارفه ، إن له حدوداً لا يتجاوزها وله مجالات لايخرج عليها ، وهو فى هذه الحدود يعمل ، وفى هذه المجالات يتحرك ، حسب تفكيره وتقديره ... » [1]

وثمة نوع من القصص القرآنى يجسد تأثير الأفكار القديمة ، والعادات الموروثة والعرف والتقاليد على نفوس بعض الأشخاص وطبائعهم مما يجعل التفكير جامدا لايتقبل ما يعرض عليه من أفكار جديدة، ومعتقدات حديثة، فالإنسان– عادة – يميل إلى التمسك بما هو مألوف إليه ، وبما اعتاده ودرج عليه . الأمر الذى يجعله رجعيا عبدا لسلطان التقاليد والعادات ، وآلة تحت سيطرة جهالة الآباء والأجداد، إذ من الصعوبة أن يغير تفكيره أو ينظر إلى الأمور نظرة تحليلية موضوعية تمكنه من التمييز بين الحق والباطل ، فقد وصف القرآن الكريم – على مدى القرون الغابرة – تمسك الكثيرين بعقائد آبائهم وعباداتهم وجمود تفكيرهم ، حيث لايخطون خطوة فى مضمار نحو الحياة بل لايتحركون قيد أنملة نحو الازدهار والتقدم .

(١) التفسير القرآنى للقرآن : المجلد الرابع ص ٦٨٣ عبد الكريم الخطيب .

(وإذا قيل لهم اتبعو ما أنزل الله قالوا:بل نتبع ما ألفينا عليه اباءنا) «١٧٠: البقرة» .

(وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) «٢١ :لقمان» .

(وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول. قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون) . «١٠٤ : المائدة»

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون) ؟ «٢٨ : الأعراف» (قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) ؟ «٧٨: يونس» (بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) «٢٢-٢٣:الأعراف» .

(قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين) . «٥٣ : الأنبياء» .

(قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . «٧٤ : الشعراء» .

(قال : أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) . «٢٤ : الزخرف» .

ولما كان جمود التكفير مضرا أكثر الضرر بالإنسان لأنه يفقده الاستفادة من الخاصية الرئيسية التى خصه الله تعالى – بها ، وميزه بها عن الحيوان ، مما يهبط به إلى مستوى الحيوان ، بل إلى أدنى من هذه المنزلة ، فقد حرص القصص القرآنى على حث الناس على التحرر من القيود التى تكبل تفكيرهم ، والأصفاد التى تفل عقولهم ، وقد وجه القرآن نقدا لاذعا إلى المشركين الذين كانوا يقلدون آباءهم فى أفكارهم وعقائدهم فيقومون برفض كل فكرة جديدة دون أن يحاولوا التفكير فيها تكفيرا متحررا من قيود التقاليد .

وحرص القرآن أيضا على دعوة اناس الى التحرر من الأوهام والخرافات التى

تعطل التفكير وتعوقه عن معرفة الحقيقة ، فقد كان للعرب فى الجاهلية بعض الخرافات التى تتعلق بنوع وعدد نسل الإبل والغنم ، فإذا نسلت عددا معينا إو إذا نسلت إناثا فقط ، أو إذا نسلت ذكورا وإناثا معا ، فإنهم كانو بناء على ذلك يطلقون سراحها ، أو يمتنعون عن شرب لبنها ، وقد نهى القرآن الكريم عن الأخذ بهذه الخرافات ، [1] قال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون) ، ١٠٣ : المائدة،[2] .

وهذه العبودات التى اتخذها المشركون أولياء من دون الله ، رسمها القصص القرآنى آية فى التصوير والإبداع سواء كانت أشخاصا أو جمادات أو حيوانات أو أقمارا وشموسا ونجوما وكواكب ، أو جانا أو شيطانا أو مما يكبر فى صدورهم أطلق القرآن الكريم على هذه المعبودات جميعا لفظ (طاغوت) وهذه الكلمة لامشخص لها ، وإنما هى اسم جامع لكل باطل وضلال وغواية ، والطاغوت قادر على أن يحمل بين ثناياه كل المخازى والافتراءات ، لأنه بناء ضخم شامخ من الوهم والخيال ، وعبدته يسلمون إليه قيادتهم وأعنة زمامهم ، فهم فى ضمانته ، ليخرجهم من النور إلى الظلمات ، ويفسد عليهم تلك الفطرة السليمة التى فطروا عليها ، فيطمس عليها، فإذا هم عمى وصم وبكم ، يتخبطون فى ظلمات بعضها فوق بعض .

(١)الاسلام فى حياة المسلم : ط ٢ القاهرة . مكتبة وهبه ص ١٦٧ - ١٦٩-١٩٧٣ .

(٢) البحيرة : الناقة التى بحرت أذنها أى شقت ليكون ذلك سمة لها .
وكان الجاهليون يفعلون ذلك بالناقة إذا نتجت خمسة أبطن .
والسائبة : الناقة التى تسيب وتترك وفاء لنذر ينذره صاحبها .
والوصيلة : هى من الغنم ، فكانت الشاة إذا ولدت ولدا ذكرا جعلوه لآلهتهم وإذا ولدت أنثى جعلوها لهم ، وإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحو الذكر لآلهتهم .
والحامى : هو الذكر من الإبل ، إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره ، فلايحمل عليه ولايمنع من ماء ولا كلأ .

ولو أمعنا النظر فى تصوير القصص القرآنى للفظة (طاغوت) لوجدنا أنها متباينة الأوضاع والاشتقاقات فمره يعبر عنها بالمفرد (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) . ، ٢٥٦ : البقرة ، . ومرة أخرى تسند اللفظة إلى الجمع (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) . ٢٥٧، : البقرة ، . دون أن تتغير صورتها فى الحالتين ، وهذا فحواه – والله أعلم – أن هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ، ليس لها استقرار أو كنه أو حقيقة ، وإنما هى نوع من الوهم والخيال والزيف والضلال ، يزول بزوال المؤثر (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) . ، ٥١ : النساء ، [1] ويقول تعالى: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا؟ وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) ، ٦٠– ٦١: النساء ،.

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفا) ، ٧٦: النساء ، (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله، وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) ، ٦٠: المايدة ،

إنها اللعنة والمسخ الكامل لآدميتهم والنسخ التام لطبيعتهم، لأنهم وقفوا موقفا مخزيا من رسلهم، مثل هذا الموقف الذى يقفه أبناؤهم–حينذاك مع رسول الله–ﷺ

والتاريخ يعيد نفسه .. ألم يعبد قبلهم قوم عاد أسماء سموها من ابتكارهم

---

(١) الجبت : هو الهوى الذى يفيض من عقل مظلم ووجدان سقيم .

والطاغوت : هو الهوى الذى يمليه ذكاء خبيث وشيطان مريد .

وإختراعهم ؟ (قالوا : أجئتنا لنعبدالله وحده ، ونذر ما كان يعبد اباؤنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل اله بها من سلطان) ،٧٠:٧١ الأعراف ،

ألم يعبد قوم إبراهيم أوثانا نحتوها بأيديهم وصنعوها على أعينهم ؟ (قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعلمون) ، ٩٥ - ٩٦ الصافات ، .

(وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثانا ، مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا) . ، ٢٥ : العنكبوت ، .

(فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) . ، ٣٠ : الحج ، .

(قالوا : نعبد أصناما ، فنظل لها عاكفين) . ، ٧١ : الشعراء ، .

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) ، ١٩٤ : الأعراف ، .

(قال : أفتعبدون من دون اله ما لا ينفعكم شيئا ولايضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) . ، ٦٦-٦٧ : الأنبياء ، .

* * *

قضية التكرار القصصى

ليس فى القصص القرآنى تكرار مطلق

الوحدة الفنية فى القصة القرآنية تقوم على فن البناء والتراكيب ، ما فى ذلك شك !! والمحور الذى تدور حوله القصة أو تستند إله سائر عناصرها هو المقصد والهدف ، وليس الأبطال أو الشخوص أو الأحداث أو الأزمنة أو الأماكن مقصودة لذاتها ، وإنما الفن فى العبرة حيث تكون ، تتضافر عناصر القصة فى تسلسل محكم ، وتناسق بديع لتجسيد هذه العبرة ، ومن ثم ورد التشابه ، وتعددت المواقف ، وتنوعت الحلقات فى معظم الحالات ، ولكن ليس معنى ذلك أن القصة تكرر نفسها، إنما هى حلقات وجوانب وأجزاء لجسم واحد تندرج تحت هيكله ومسماه ، وما من حلقة من هذه الحلقات إلا وتشير إشارات سريعة قريبة أو بعيدة لفكرة جديدة ، أو تتمة لفكرة سابقة ، أو توضيح لهدف عام أو خاص ، أو سلوك معين ، أو نموذج نفسى أو خلقى أو اجتماعى ، أو تحبيب فى قدوة حسنة ، أو تجنب لعادة سيئة ، يقول الطبرى ، وقدعدّ القصص القرآنى من الآيات المتشابهات :

« المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار ، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعانى ، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى » [1] .

ونحن نأخذ هذا الرأى بشىء من التحفظ ، لأن اختلاف المقاصد يدفع – من غير شك – إلى اختلاف الصور الأدبية ، وإن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض ، والسياق العام الذى تعرض فيه ، هو الإعجاز الفنى الذى يجسد الهدف الذى من أجله سيقت ، فمقصد القرآن الكريم من حلقة قصة « موسى » فى سورة

(١) أنظر تفسير الطبرى المجلد الأول « المقدمة » .

«طه» غيره من حلقة قصة موسى فى سورة «النمل» فالموضوع واحد ، والوحدة العضوية قائمة ، ولكن الهدف يختلف ، والصور تتجدد ، والموسيقى تتفاوت ، فمن الوجهة الأدبية هذه قصة ، وتلك أخرى ، ومن الوجهة الموضوعية ، إنما هى حلقات لقصة واحدة ، يتضح ذلك حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها ، «فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئا ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون فى مجموعها جسم القصة - وقد تستمر الإشارات المقتضبة ، فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات - حتى إذا استوفت القصة حلقاتها ، عادت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها» [1] .

فقد تجىء الحلقات مكرورة فى الظاهر ، تحمل فى ثناياها كثيرا مما خفى على أهل الكتاب من تصوير القدرة الإلهية الفائقة ، والتصرف المطلق لله فى هذا الكون الفسيح ، وبيان تغيير الممالك والمعالم والعوالم والأمم من حال إلى حال ، ومن عز إلى ذل ، ومن بأس إلى نعيم ، ليعرفوا أن الدنيا ليست مما يبقى أو تدوم ، ولن يخلّد فيها أحد ، ودوام الحال من المحال ، ولكل بداية نهاية ، ونهاية كل حركة إلى سكون ، وغاية كل سكون ألا يكون ، (قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت،وتخرج الميت من الحى، وترزق من تشاء بغير حساب) «٢٦-٢٧: آل عمران»

فقد استشرى داء الحسد فى بنى إسرائيل ، إذ حسدوا أنبياءهم الذين اصطفاهم الله للسفارة بينه وبين عباده ، فكذبوهم ورموهم بالإفك والبهتان ، حتى بلغ بهم الأمر إلى قتلهم، شفاء لما فى صدورهم من نار الحقد والحسد ، ونسوا أن نعم الله

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن : ص ١٢٧ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة .

ونقمه هى بيد مالك الملك ، وأن الحسد هو اعتراض على ما قسّم الله بين عباده ، ومشاركة له فى تدبيره وتقديره . (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناه‍م ملكا عظيما) . ٣٠٥-٥٤: النساء ، .

وقد تجيء الحلقات مكرورة لبيان معجزات الرسل ، كل ومعجزته ، وكل وعصره ، وكل ومجتمعه ، وكل وحضارته ، وكل وعلمه وثقافته ، فقد اشتهر قوم فرعون وعصره بالسحر ، فكان لابد من العصى لموسى – عليه السلام – وقد اشتهر عصر داوود – عليه السلام – بالقوة والجند والحديد وصناعته ، فكان ولابد من تعليم الله له الحكمة وفصل الخطاب ، وتسخير الجبال وتطويع الحديد ، وصناعة الدروع ، ومستلزمات القوة والقتال .

وفى عصرا بنه سليمان – عليه السلام – تقدم العلم والعمران ، وإزدهرت الحضارة فى سبأ ، فكان ولابد من تعليم الله له لغة الحيوان والطير ، وتسخير الرياح والجن ، إذ جعلهما فى خدمته وطوع بنانه .

وفى عهد السيد المسيح – عليه السلام – ازدهرت فنون الطب والأدوية ، فكان ولابد من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

وقد اشتهر العصر الجاهلى – قبل الإسلام – بالفصاحة والبلاغة والبيان ، فكان ولابد أن ينزل القرآن متحديا فصاحتهم ، ملجما أفواههم ، حتى خضعوا لسلطان بيانه ، وأقروا بالعجز أمام فصاحته ولسانه ، وكان ولابد أن يؤتى محمد – ﷺ جوامع الكلم ، برهانا ومنطقا وحجة ، وعلما ونورا وحكمة ، حتى يضع البلسم الشافى لتلك القلوب ، ويبلغ تأثيره فى النفوس غايته .

وقد يأتى تكرار الحلقات إطناباً بالإيضاح بعد الإبهام ، لتوكيد المعنى حتى يتمكن فى النفس فضل تمكن ، فإن المعنى إذا القى على سبيل الإجمال والإبهام ،

تشوقت نفوس السامعين إلى معرفته على سبيل التفصيل والتوضيح ، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، وتتلقاه فى شغف وشوق ، فإذا حدث ذلك تمكن فى الوجدان ، وأثر وهيمن على المشاعر ، وسيطر على الحواس ، وتحدث المتعة والفائدة ، لأن الشىء إذا حصل كمال العلم به دفعة واحدة ، ولم يتقدمه ألم أو مجهود فى كيفية الحصول عليه ، سرعان ما يُنسى أو يهمل ، وإذا تعبت النفوس فى تحصيله أو تحقيقه ، شعرت بالمتعة ، واللذة عقب الألم أقوى من اللذة التى لم يسبقها ألم ، فإثارة الدافع تحقق الهدف ، والحصول على هذا الهدف يعتبر ثوابا أو مكافأة تسبب السرور أو الرضا ، ولذلك كان الإنسان ميالا بطبعه إلى تعلم الاستجابات أو الافعال التى تؤدى إلى الحصول على المتعة أو الثواب أو المكافأة ، وإلى تجنب الاستجابات أو الأفعال التى تؤدى إلى الفشل أو الأهمال أو العقاب .

وقد تأتى الحلقات – إشارة لأفكار معينة وتثبيتا لعملية التعلم ، إذ فطن علماء النفس المحدثين إلى أهمية التكرار فى عملية التعلم ، مما جعل أكبر المؤسسات التجارية تعتمد عليه فى فن الإعلان ، وأنفقوا الأموال الباهظة على الإعلانات بغية التأثير على الجماهير لترويج سلعهم التجارية ، فليس عجيبا أن يأتى القصص القرآنى متضمنا هذه المعانى النفسية والاقتصادية والاجتماعية .. ألم تتكرر العبارة القرآنية (أ إله مع الله) ؟ خمس مرات فى آيات متتالية من سورة النمل . قال تعالى : (أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هو قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أ إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض . أ إله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم

من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح – بُشرا بين يدى رحمته – أ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون. أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ‹ ومن يرزقكم من السماء والأرض؟ أ إله مع الله ؟؟ (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . «٦٠ – ٦٤ : النمل » .

وتكررت الآية القرآنية (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) أربع مرات فى سورة اقمر « ١٧؛ ٢٢ ؛ ٣٢ ؛ ٤٠ » وفى نفس السورة تكررت) فكيف كان عذابى ونذر) أربع مرات ؟.

وتكررت الآية القرآنية (ويل يومئذ للمكذبين) عشر مرات فى سورة المرسلات إذ كانت تأتى بعد كل نعمة ليذكرهم بها سبحانه وتعالى ، وتأتى بعد كل نقمة ليخوفهم منها . « ١٥ ؛ ١٩ ؛ ٢٤ ؛ ٢٨ ؛ ٣٤ ؛ ٣٧ ؛ ٤٠ ؛ ٤٥ ؛ ٤٧ ؛ ٤٩ » .

وتكررت الآية القرآنية فى سورة الرحمن (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إحدى وثلاثين مرة ، إذن لابد وأن يكون هناك سبب وغرض من هذا التكرار .. فما هو السر فى هذه الآيات المتتاليات : (فكيف كان عذابى ونذر) ثم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) ثم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ؟؟ .

يقول « عبد الكريم الخطيب » « هناك تدرج من الإنذار والتخويف من عذاب الله ، إلى عرض وسيلة النجاة من عذاب الله ، وتيسير الاتصال بها والوصول إليها ، وهى القرآن الكريم ، إلى مسائلة هؤلاء المدعّوين إلى كتاب الله . كيف يكذبون بآلاء الله ونعمه التى من أعظمها وأجلها هذا الكتاب الذى يدعون إليه ؟ » [1] .

وقد تأتى حلقات القصة مكررة بحسب نزول الآيات ، ونتيجة لأولويات نزولها ، والسياق يقتضى الاستشهاد بطائفة من الأمم الغابرة أو القرون الأولى وهى تمر مر السحاب ، وتعرض عرضا خاطفا ، كما نرى فى تصوير التلفاز أو «السينما»

(١) التفسير القرآنى للقرآن : المجلد السابع ص ٦٥١ : عبد الكريم الخطيب .

للأحداث والمواقف – بغية التذكير أو التدبر والعبرة ، فترد الصور متتابعة ، والمواقف متتالية ، والتعليقات مقتضية ، والأخبار موجزة كالأمثلة الآتية :

(إن هذا لفى الصحف الأولى–صحف إبراهيم وموسى) ،١٨–١٩: الأعلى،.

(هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيهاعين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة .) . ، ١ – ١٦ : الغاشية ، .

(هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود) . ، ١٧ – ١٨ ، البروج ، .

(قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) . ، ٤ –٨: البروج ، .

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد) ، ٦ – ١٤: الفجر ،

(الحاقة . ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، ؟ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم اعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) . ، ١ – ١٠ : الحاقة ، .

(وفى موسى إذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه ، وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ، وفى عاد إذ أرسلنا

عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وفى ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين ، فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام ، وما كانوا منتصرين ، وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين) . « ٣٨ - ٤٦ : الذاريات » .

فلا تكرار ولا تشابه ولا اختلاف ، لأن التكرار الذى ورد فى قصة موسى - على سبيل المثال - إنما هو حلقات على دفعات ، وفى كل حلقة جدة ، ومن مجموع هذه الجدات تتكون الفكرة الكاملة للقصة ، ويتم هيكلها الفنى والدرامى ، وإذا تتبعنا الحلقات الواردة فى سور القرآن التى تضمنت قصة موسى ألفينا أنها تكاد تكون أكثر الحلقات تكرارا ، فلنتخذها نموذجا لضرب المثال فى التجديد والإشارات والتفصيل والزيادة والحذف والإضافة ، ففى سورة مريم اشارة إلى أنه من أولى العزم من الرسل (واذكر فى الكتاب موسى ، انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا) . (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) . « ٥١ - ٥٣ : مريم » .

فهو يجمع بين الرسالة والنبوة ، وهو كليم الله الذى قربه إليه وناجاه كما يناجى الخليل خليله (وكلم الله موسى تكليما) « ١٦٤ : النساء » .

وفى سورة « الأعلى » إشارة قصيرة إلى وحدة المنهج بين موسى وأبيه إبراهيم عليهما السلام . (إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى) . « ١٨ - ١٩ : الأعلى » .

وفى سورة النجم اشارة قريبة إلى صحفه ، ليطلبها من يريد العلم بها ويتزود بما تضمنته من الدعوة إلى وحدانية الله . (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى) . « ٣٦ : النجم » .

وفى سورة « الفجر » إشارة إلى الأقوام دون ذكر الرسل ، فالتذكر هنا

بالاقتران : إذا ذكر فرعون ذكر معه فى الوجه المقابل موسى عليه السلام – (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد، الذين طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد) «٦-١٤: الفجر»

وفى سورة « البروج » تسلية للنبى محمد – ﷺ – وتفريج عنه بذكر جنود فرعون وثمود(هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود) « ١٧– ١٨: البـــروج »

وفى سورة « الإعراف » ورد التفصيل الأول للقصة فى معرض قصصى مشترك مع الانبياء « نوح وهود ولوط وشعيب » برزت فيه وحدة الوسيلة للدعوة ، ووحدة موقف الكافرين ، ووحدة الجزاء والمصير الذى نزل بكل منهم على حدة ، (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وقال موسى : يا فرعون إنى رسول من ربك العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معى بنى إسرائيل) . « ١٠٣ – ١٠٥ : الأعراف » .

فطلب فرعون من موسى دليلا يشهد بصدقه (فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) . « ١٠٧ – ١٠٨ : الأعراف » رأى فرعون وحاشيته ذلك ، فعمدوا إلى التمادى فى تكذيب موسى ، واتهموه بالسحر وتشاوروا فيما بينهم ، واتخذوا القرار فى التخلص منه ، لأن غايته – فى نظرهم– أن يخرجهم من أرض مصر بسحره ليتملكها (قال الملأ من قوم فرعون: إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم. فماذا تأمرون؟) « ١٠٩– ١١٠: الإعراف »

فلما طلب منهم فرعون الفتوى فى أمر موسى اشار الأشراف منهم عليه بأن يمهله وأخاه ، ويبعث فى طلب السحرة من آفاق مصر ، ليأتوا بمثل ما أتى به

موسى ، حتى تنهار معجزته وتتلاشى دعوته : (قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم) .

وجاء الكثير من السحرة وطلبوا من فرعون الأجر الوفير ، فقبل فرعون ومناهم ووعدهم أن يكونوا من المقربين (١١٣ - ١١٤ : الأعراف) .

وجاء اليوم المشهود وهو يوم الزينة ، يحتفل فيه المصريون بوفاء النيل وفيضانه وعموم خيراته ، ودخل موسى مع السحرة فى حوار فحواه : من الذى يبدأ بإلقاء ما عنده من معجزات ، وأصر موسى أن يلقواهم فألقوا ، فخاف الناس وارتعبوا ، وخيل إليهم أنها تسعى ، ودب الخوف فى روع موسى ، وأوحى الله إليه بإلقاء عصاه ولا يخشى ، وألقى موسى عصاه ، فإذا هى حية ضخمة تبتلع بسرعة كل حيات السحرة وثعا بينهم . (قالوا يا موسى : إما أن تلقى وإما إن نكون نحن الملقين ، قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .) « ١١٥ - ١١٨ : الأعراف » .

سقط فى يد فرعون وقومه وملئه وسحرته ، وأيقنوا أن السحر لا يفعل فعل معجزة موسى ، وإنما هى القوة الربانية التى صنعت ذلك ، فخر السحرة سجدا معترفين بإله موسى وهارون . (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون) . « ١١٩ - ١٢٢ : الأعراف » .

وبادر فرعون السحرة ليخفى فشله ويدافع عن عرشه وسلطانه : كيف تؤمنون به قبل أن آذن لكم .. إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر . وإن لم ترجعوا إلى ما أنتم عليه لأقتلنكم ولأعذبنكم ولأصلبنكم ، ولكنهم لم يعبئوا بتهديداته ، وتوجهوا إلى الله تائبين ضارعين أن يثبت أقدامهم ويصبرهم على هذا

العذاب الأليم . (قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا : لاضير إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا إن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) ، ١٢٣ - ١٢٦ : الأعراف ، .

شرع فرعون في تعذيب قوم موسى بعد أن حرضه على ذلك أشراف قومه وبطانته ، فوعدهم بتقتيل أبنائهم ليجتثهم ، واستحياء نسائهم لسبيهن واسترقاقهن فضج قوم موسى بالشكوى لما أصابهم من جرائر فرعون وطغيانه ، فأوصاهم موسى بالصبر والاستعانة بالله ، ووعدهم بالفوز العظيم وحسن العاقبة إن اتقوا ربهم ونفذوا أوامره (وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال : سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ، قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال :عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض، فينظر كيف تعملون) ، ١٢٧ - ١٢٩ : الأعراف ، .

أمر الله موسى أن يعلن قوم فرعون بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء تكذيبهم وعنادهم وطغيانهم ، وامتناعهم عن إطلاق بني إسرائيل ، فوقع عليهم العذاب فعلا بعد إنباء موسى إياهم به ، ووعدوه بالإيمان تارة ، وبإرسال بني إسرائيل معه تاره أخرى إذا سأل ربه كشف الضر الذي وقع بهم ، فإذا ما كشف الله عنهم العذاب ، عادوا إلى طغيانهم ، ونكثوا عهدهم وخاسوا بوعدهم ، فأرسل الله عليهم آيات العذاب الأليم ، وكان منها الجدب بأن قل ماء النيل ، وقصر عن إرواء الأرض ، وكان منها النقص من الثمرات بسبب ما أتى عليها من الجوائح والعاهات، وكان منها الطوفان ، وكان منها الجراد فأكل الأخضر واليابس ، وكان منها القمل

الذى أرقهم وأقص مضاجعهم ، وكان منها الضفادع التى أقلقتهم وأفزعتهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وعلى سررهم وبين ملابسهم ، وكان منها الدم ، حيث سلط عليهم الرعاف ، وقيل : استحال الماء دما (١)

قال الله تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) . ، ١٣٠ – ١٣٣ : الأعراف ،

ولما وقع عليهم عذاب الله استعانوا بموسى مرة أخرى ، وكشف الله عنهم الرجز ثم نكثوا – كعادتهم – العهد ، فانتقم الله منهم ، وقطع دابرهم وأغرقهم (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى : ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) . ، ١٣٤ – ١٣٦ : الأعراف ، .

وخرج بنو إسرائيل من مصر إلى أرض فلسطين ، وقد مروا على قوم يعبدون أصناما فأثاروا مشاعرهم ، وغلبت عليهم الوثنية اللاصقة بقلوبهم ، وتركت فيهم بلادة الطبع ، وماركز فى طبيعتهم من السخف ، وما استولى على أنفسهم من الغثاثة ، فاندفعوا يطلبون من نبيهم أن يجعل لهم إلهاكما لهؤلاء القوم آلهة ، لا جرم أن وبخهم موسى – عليه السلام – وجهلهم ولامهم وذمهم قال تعالى : (وجاوزنا

(١) . أنظر قصص الأنبياء ص ٢٣١ عبد الوهاب النجار

ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ، وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . « ١٣٨ – ١٤١ : الأعراف »

وجاء موعد موسى مع ربه حيث أوصاه الله سبحانه وتعالى أن يصعد إلى الجبل ، ويمكث فيه ثلاثين ليلة صائما وهى شهر ذى القعدة ، فلما أتى الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه فاستاك أو أكل بعض النبات ، فقالت الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى وأصلح، ولا تتبع سبيل المفسدين) « ١٤٢ : الأعراف »

وبعد تمام الأربعين يوم كلم موسى ربه فقال : (رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا) . « ١٤٣ : الأعراف » . مغشيا عليه، كما يخر من أخذته الصيحة أو الصاعقة ، لما هاله من صوت الجبل وهو يتهدم وينهار (فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) . بعظمتك وجلالك ، فخاطبه ربه تعالى – بأنه اصطفاه على الناس برسالاته ، وهى أسفار التوراة ، وبكلامه تعالى بأن يوحى إليه بلا واسطة ملك ، وكتب الله – تعالى – ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبائح فى ألواح ، اختلف المفسرون فى عددها، كما اختلفوا فى حقيقتها بين خشب وحجر وزبرجد وياقوت ، (قال يا موسى : انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من

الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين) . ، ١٤٣ - ١٤٥ : الأعراف ، .

فلما قضى موسى أجل الصوم وكلمه ربه ، وأعطاه الألواح بعد أن أفاق ، سأله ربه - وهو أعلم - عما أعجله عن قومه ؟ فقال : انهم آتون على إثرى ، وعجلت إليك رب لترضى ، وحينئذ أخبره ربه بأنهم فتنوا عن دينهم ، وأن السامرى أضلهم ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا حزينا حررا على أخيه ، إذ لم يردهم عن فتنتهم ، وظن به التقصير فى نصحهم ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، فاعتذر هارون بأنه عمل جهده ، ولو قاتل من ارتد لكان ذلك سببا لفرقة بنى إسرائيل ، ولام موسى بنى إسرائيل أشد اللوم ، وألقى الألواح وطلب من الله الرحمة له ولأخيه قال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسد له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لتكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، قال : بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال : ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى، وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) ، ١٤٨ - ١٥١ : الأعراف ، .

رأى بنو إسرائيل أنهم قد ظلموا أنفسهم ، واقترفوا إثما كبيرا بعبادة العجل ، فاختار موسى سبعين رجلا للذهاب معه إلى جبل الطور - الذى اعتاد أن يناجى ربه فيه - ليقدموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا من إثم ، وهناك كلم الله موسى، ولكن جماعة منهم لم يؤمنوا أن الله هو الذى يكلم موسى فتمردوا وعصوا وقالوا : لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة بأعيننا لا يحجبه عنا حاجب ، وعلى إثر

هذا الطلب أخذتهم الصاعقة جميعا ، فراحوا يتساقطون على الأرض صرعى ، وتضرع موسى إلى ربه أن يحييهم فأحياهم بعد موت ، وطلب موسى العفو والصفح عما صدر من سفهائهم ، فغفر الله لهم (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك ، تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين) . ، ١٥٥ : الأعراف ، .

وعندئذ طلب موسى من ربه الرحمة والمغفرة لقومه ، فأخبره ربه أن ذلك راجع لمشيئته ، وأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذين يتبعون النبى الأمى الذى ورد ذكره فى التوراة والإنجيل . (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنه وفى الأخرة ، إنا هدنا اليك ، قال : عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) ، ١٥٦ – ١٥٧ : الأعراف ، .

هذه اللوحة القصصية التفصيلية أوردناها فى البداية لأنها الهيكل الأساسى للقصة فهل فيها تكرار ؟ وهل فيها اختلاف أو تقابل أوتضاد ؟؟ إن تسلسل الحوادث والمواقف منطقى ، تؤدى كل حادثة إلى أختها ، وينساب كل موقف ليشد الموقف الذى يليه فى عرض بديع وتنسيق جميل وأداء قوى ، وصراع عنيف وحبكة قصصية ليس لها نظير ، فالتكرار مستبعد والاختراع منفى ، والابتداع الذى لا يؤيده الواقع ، ولا يستند إلى العقل والمنطق مرفوض .

فلئن كانت اللوحة السابقة من سورة الأعراف قد صورت معجزات سيدنا موسى وإيمان السحرة برب موسى وهارون ، وصمود موسى وأتباعة أمام فرعون ، وخروج بنى إسرائيل ورواسب الوثنية فى قلوبهم ، وموعد موسى مع ربه ، وعبادة بنى إسرائيل العجل وعقاب الله لهم – فإن فى اللوحات التالية ما يضيف الجديد إلى هذه اللوحة من قصة موسى علية السلام .

من هذه الإضافات الجديدة رؤية موسى – عليه السلام – للنار من جانب الطور فى سورة (طه) إذ سار بأهله من عند صهره ذاهبا إلى مصر ، فى صورة مختف ، وتاهوا فى طريقهم ، ولم يهتدوا إلى سلوك الدرب المألوف ، والليل مظلم ، والطقس بارد ، فجعل يورى زناده فلم يستجب فبينا هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تتأجج فى جانب الطور ، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه ، فقال لأهله ، زوجته وولديه منهم ، امكثوا ، إنى آنست نارا لعلى أستعلم من عندها الطريق ، فلما قصد إليها ، وانتهى عندها وجدها تتأجج فى شجرة خضراء من العوسج ، والنار فى اضطرام وازدياد وخضرة الشجرة تزداد ، فوقف متعجبا مستقبلا القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالوادى المقدس طوى ، فأمره أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما لتلك البقعة المباركة فى تلك الليلة المباركة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله : امكثوا – إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا أخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى) « ٩ – ١٤ : طه » . حتى سمع التكليف بالذهاب إلى فرعون ، وها هو ذا يحاور ربه ليرسل معه أخاه هارون يشد أزره ويكون له وزيرا . (قال : رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة

من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ، اشددبه أزرى وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيرا ، قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى) « ٢٥ – ٣٦ : طه » . أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذى طلبت ، ثم يخبر الله – تعالى – عن عبده ونبيه وكليمه ورسوله موسى – عليه السلام – أن أوحى إلى أمه أن تقذفه فى التابوت – إن خافت عليه من فرعون وتدبيره . ثم يخبر الله تعالى عن قتله ذلك القبطى وخوف موسى من القصاص ، فأنجاه الله تعالى من ذلك كله . (ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى، إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى) . « ٣٧ – ٤٠ : طه » .

وهكذا يسير السباق فى هذه اللوحة كما سار فى سورة الأعراف ، إلا أنه قد حذف منها آيات الجراد والقمل والضفادع ... وحذف أيضا عهد فرعون بنى إسرائيل ونكثه ، وزيدت هنا فى اللوحة صناعة العجل والسامرى الذى صنعه ، إذ عمد رجل من بنى إسرائيل يقال له « هارون السامرى » فأخذ ما كان استعاره من الحلى ، فصاغه عجلا ، وألقى فيه قبضة من التراب ، كان قد أخذها من أثر فرس جبريل – عليه السلام – حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه ، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى ، ويقال إنه استحال عجلا جسدا من لحم ودم يخور ، وقيل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه ، فيخور كما تخور البقرة ، فيرقص حوله بنو إسرائيل ويفرحون ويقولون : لقد نسى موسى ربه عندنا –

يقصدون العجل – وذهب يتطلبه وهو ها هنا ، وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال : يا قوم . ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها ، فكذلك ألقى السامرى، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسى) « ٨٦–٨٨: طه » .

وأقبل موسى على أخيه هارون وكان ما كان فى حلقة سورة الأعراف ، ثم أقبل على السامرى وسأله : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : لقد رأيت جبريل وهو راكب فرسا ، فقبضت قبضة من أثر فرسه ، فألقيتها فى هذا العجل الذى صنعته من الذهب ، فكان ما كان ، ودعا عليه موسى بألا يمس أحدا ولا يمسه أحد عقابا له فى الدنيا ، ثم توعده بعقاب الآخرة ، وعمد موسى الى العجل فحرقه بالنار ، ثم ذرّاه فى البحر ، قال تعالى : (ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ، قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟؟ قال : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى .. قال : فما خطبك يا سامرى ؟ قال : بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى ، قال : فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول : لا مساس ، وإن لك موعدا لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفا ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) « ٩٠–٩٨ ؛: طه » .

واللوحة التالية أو الحلقة التى تحمل جديدا من قصة موسى – عليه السلام – فى سورة « الشعراء » تجسد أمورا ثلاثة :

أولاهما : أن الله – سبحانه وتعالى – لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون (قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) فالآية وردت فى سورة القصص (٣٣ : القصص) . أما ما نحن بصدده : (ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) . ، ١٤ : الشعراء ، . فهو يخشى أن يؤخذ به ، ثم تذكير فرعون موسى تربيته فى بيته ، إذ كان وليدا ، وليث فهيم سنين من عمره ، وتذكيره أيضا بفعلته التى قتل فيها الرجل القبطى وهربه على أثرها (قال : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين ، قال فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) . ، ١٨ – ٢٢ : الشعراء ، .

وثانيهما : اثبات الحوار وتنويعه بين موسى وفرعون عن إثبات الإله بصفاته ، فقد فجأ فرعون من موسى أمر لا يقره ولا يرضاه ، وهو محاولة إنزاله من عرش الألوهية ، فأخذ يحاور موسى ويسأله (وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ، قال : أو لوجئتك بشىء مبين ، قال : فأت به إن كنت من الصادقين) . ، ٢٣ – ٣١ : الشعراء ، .

وثالثهما : ذكر انفلاق البحر حتى صار كالطود العظيم ، ومؤداه : أن فرعون وجنوده لما طلبوا بنى إسرائيل واقتفوا أثرهم ، كانوا فى جيش كثيف ، وخميس عرمرم ، حتى إن خيولهم تجاوزت مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف ، وقيل : إن بنى إسرائيل كانوا نحوا من ستمائة ألف

مقاتل غير الذرارى ، ولحقهم فرعون بجنوده فأدركهم عند شروق الشمس وترائى الجمعان ، ولم يبق إلا المواجهة والمقاتلة فعندها ، قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، فليس لهم طريق ولا محيد إلا البحر وخوضه ، وشكوا إلى نبى الله ما هم فيه مما شاهدوه وعاينوه فقال لهم ، كلا إن معى ربى سيهدين ، وكان عليه السلام فى المؤخرة مع السقاة ، فتقدم إلى المقدمة ، ونظر الى البحر يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زيد أحاجه فقال لهم : ، ها هنا أمرت ، ومعه أخوه هارون ، ويوشع بن نون ، ومؤمن آل فرعون الذى حاول مرارا أن يقتحم البحر بفرسه فلم يستطع ،

ولما تفاقم الأمر وضاق الحال ، واشتد الخطب ، واقترب فرعون وجنوده فى حدهم وحديدهم ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، أوحى الله الحليم إلى نبيه الكليم أن يضرب بعصاه البحر ، فلما ضربه قال له: انغلق بإذن الله . (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، قال : كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين) . ، ٥٢ – ٦٦ : الشعراء ، .

، قيل إن فرعون كان يتقدم مرة إلى البحر ويحجم أخرى ، فتبدى جبريل – عليه السلام – فى صورة فارس راكب على فرس فحل ، فمر بين يدى فحل فرعون فحمحم إليها ، وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد ، فبادر فرعون مسرعا فى الاقتحام ، فلما رأته الجنود ، وقد سلك البحر

اقتحموا وراءه مسرعين ، فغرقوا أجمعون ، وأمر الله تعالى كليمه أن يضرب البحر بعصاه فارتد كما كان ، ولم ينج منهم إنسان واحد ، [1]

ولعل اللوحة التالية تصور بداية مولد موسى - عليه السلام - فهى أولى الحلقات ، حيث وضع فى التابوت حين خافت عليه أمه ، وألقى فى اليم والتقطه آل فرعون وخافت عليه أن يذبحه فرعون، لأنه كان يذبح أبناء بنى اسرائيل دون استثناء ، والدافع له على هذا الصنيع القبيح ، إن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ، ما أثر عن إبراهيم - عليه السلام - أنه سيخرج من ذريته غلام - يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فتحدث بهذا القبط ، ووصل الحديث إلى فرعون ، فأمر بقتل أبنائهم حذرا من وجود هذا الغلام ، فلما خافت أم موسى عليه ، أوحى اله إليها أن تصنع تابوتا وتطليه بالقار والزفت ، وتضع موسى فيه ، وتلقيه فى اليم ففعلت ، ووعدها الله أن سيرده إليها ويجعله من المرسلين قال تعالى :(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته : قصّية ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ فرددناه إلى أمه كى تقرعينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) . ، ٧ - ١٣ : القصص ، .

---

(١) البداية والنهاية : المجلد الأول - الحافظ بن كثير .

وشب موسى فى بيت فرعون ، وكان قوى البأس ، وافر القوة ، ولم يخف عليه أنه دخيل فى بيت فرعون وأنه اسرائيلى من ذلك الشعب المضطهد من فرعون وآله . فكان ظهيرا للعبرانيين ، خرج يوما عل حين غفلة من أهل المدينة ، فوجد رجلا مصريا يأخذ عبرانيا ليسخره فى بعض الأعمال ، وأساء معاملته ، فاستغاث العبرانى بموسى ، فوكز موسى هذا المصرى وكزة كانت القاضية ، فواراه فى التراب ، ولم يعلم أحد بذلك إلا العبرانى ، وندم موسى على فعلته وقال فى نفسه : هذا الذى أتيت إنه من عمل الشيطان ، إنه عدو ومضل مبين ، وضرع إلى الله وتاب ، وسأله ألا يكون ظهيرا للمجرمين ، وناصرا لأهل الشر ، فلما كان اليوم الثانى خرج إلى المدينة خائفا يترقب افتضاح فعلته ، فوجد نفس الإسرائيلى يقاتل فرعونيا آخر ، فاستغاثه الإسرائلى على الفرعونى الذى هو من عدوه ، فغضب موسى ، وقد ندم على ما كان بالأمس ، وكره الذى رأى ، فمد يده يريد أن يبطش بالفرعونى قائلا للإسرائيلى (إنك لغوى مبين) . « ١٨ : القصص » . فخاف الإسرائيلى أن يكون إياه أراد ، فحاجز الإسرائيلى الفرعونى وقال لموسى : (أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين) . « ١٩ : القصص » .

وانطلق الفرعونى فأخبره قومه ، ورفعوا الأمر إلى فرعون ، فأرسل إليه الذباحين ، وانطلق رجل شريف من آل فرعون مسرعا وأخبر موسى ونصحه أن ينجو بنفسه ، وفارق موسى أرض مصر إلى أرض مدين (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ، قال : رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين ، قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) . « ٢٠-٢٢ : القصص » .

وورد ماء مدين ووجد عليه جماعات من الناس يسقون ماشيتهم ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان أغنامهما عن الورد ، فسألهما موسى من حبسهما ماشيتهما عن الورد ، فقالتا : لا نسقى حتى ينتهى الأقوياء من الرعاة من سقى ماشيتهم أولا ، فحمى موسى لهما وطرد الرعاة ، وسقى لهما غنمهما، ولم يقدر أحد على منعه.

عادت المرأتان إلى أبيهما فأخبرتاه بما كان من شأن الرجل الذى سقى لهما ، فأرسل إحداهما إليه فوافته بمكانه قرب الماء وأبلغته دعوة أبيها وقالت : (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال : لاتخف . نجوت من القوم الظالمين) . « ٢٥ : القصص » .

أعجبت ابنة الشيخ بقوة موسى وفتوته وأمانته فطلبت من أبيها أن يستأجره لرعى ماشيته ، ويكفيهم مؤونة هذا العمل . (قالت إحداهما : ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال : إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) . « ٢٦-٢٧ : القصص » .

فقبل موسى هذا العرض ، وصار صهراً لذلك الشيخ ، وراعياً لغنمه : (قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت ، فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل) «٢٨ : القصص » .

وهكذا يمشى السياق على وتيرة ما أسلفنا من سورة « طه » إلا أن اللوحة هنا تزيد إضافة جديدة وهى تهكم فرعون وطلبه من وزير العمران والإسكان أن يبنى له صرحا ، يتخذه وسيلة للصعود إلى إله موسى (وقال فرعون : يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صرحا ، لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين) . « ٣٨ : القصص » .

وفى سورة « الإسراء » إشارة خفيفة سريعة إلى سوء مصير فرعون وقومه ،

بعد أن رأوا الآيات التسع التى جاء بها موسى ، فكذبوا وعصوا ، وأغرقهم الله فى البحر ، ومكن لبنى إسرائيل بعدهم قال تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات،فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مسحورا ، قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يافرعون مثبورا، فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ، ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبنى إسرائيل: اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) «١٠١ - ١٠٤: الإسراء» .

وفى سورة « يونس » وردت إضافة جديدة ، هى إعتراف فرعون بإله موسى وبنى إسرائيل ، إذ أراد أن يدفع عن نفسه الغرق والهلاك (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق ، قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . وأنا من المسلمين) . « ٩٠ : يونس » .

وفى سورة « هود » وردت إضافة جديدة وسريعة توضح مصير فرعون وقومه يوم القيامة (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملئه ، فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد ، يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار وبئس الورد المورود) . « ٩٦-٩٩ : هود » .

وفى سورة « غافر » إضافتان جديدتان :

أولاهما : أن فرعون لما ضاق ذرعا بموسى ائتمر وقومه على قتله والخلاص منه ، ومن دعوته وفساده الذى فرق به شعبه (وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) « ٢٦:غافر » .

وثانيهما : أن رجلا من آل فرعون يكتم إيمانه ، دفعته الرجولة والشهامة فدافع عن موسى دفاعا مجيدا ، وبين لقومه : كيف يقتلون رجلا يقول : ربى الله ، وقد جاءهم بالمعجزات الدالة ، والبراهين الساطعة لصدق دعوته ، وأشار إليهم أن

يرجئوه ، فإن كان صادقا يصبهم جانب من وعده ، وإن يك كاذبا فلا يضر إلا نفسه . (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن : ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلما للعباد، وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد) «٢٨-٣٣:غافر».

وفى سورة « الزخرف » لم تر نفس فرعون من مقاييس الإنسانيةأو المبادىء الخلقية أو الفعلية الا متاع الدنيا الزائل ، لم تر إلا وفرة المال والذهب والفضة فهى المقياس الوحيد لوزن الرجال فى نظره ، لقد تباهى على موسى وعيره بالفقر ، وعيره بعدم الإفصاح أو البيان عما يريد قال تعالى : (ونادى فرعون فى قومه قال : ياقوم : أليس لى ملك مصر ؟ وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين) «٥١-٥٤: الزخرف».

هذا ما ورد عن موسى من يوم أن ولدته أمه إلى أن نصره الله وأيده بروح من عنده وأهلك فرعون وقومه ، وجعلهم آية للعالمين .

أما بنو إسرائيل الذين تحمس لهم موسى ، وحمى الوطيس بينه وبين فرعون من أجلهم فاللوحة التالية تكشف عن طبيعة هؤلاء الناس العدوانية وتبين عقدهم وأصول نشأتهم ، وتأثرهم بفرعون وملئه ، وسلوك الأقباط الذين اقتدوا بهم وأثروا فى حياتهم .

آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى مرارا وتكرارا – إذ اتهموه بمرض فى جسمه (كالبرص أو الأدرة (١) أو آفة ما فبرأه الله – تعالى – مما قالوا ، قال تعالى : فى سورة « الصف » . (وإذ قال موسى لقومه : ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) . « ٥: الصف » . وقال تعالى فى سورة « الأحزاب » (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوْا موسى ، فبَرَّأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها) . « ٦٩ : الأحزاب » . عن أبى هريرة–رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – أن موسى كان رجلا حيياً ستيراً لا يرى جلده شىء ، استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص أو أدرة وإما آفة ، وإن الله – عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه ، وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر – ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله – وبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بالعصا ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا ، قال : فذاك قوله عز وجل : (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) .

واللوحة التالية تجسد قارون وعبادته المال وطغيانه على قومه وازدراءه لهم ، ومباهاته وادعاءه وغروره ، وموقف موسى – عليه السلام – من ذلك كله .

عن ابن عباس قال : « كان قارون ابن عم موسى » وقال قتادة : وكان يسّمى النور لحسن صدقه بالتوارة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرىّ ، فأهلكه البغى

(١) الأدرة : فتق فى احدى الخصيتين أو هو ورم فى الخصية.

لكثرة ماله ، وفحوى قصته : أنه كان رجلا من بنى إسرائيل آتاه الله مالا ، وبسط له فى الرزق وأدر عليه الثراء ، حتى أن مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولى الفترة ، وكان مرموقا فى قومه بعين الغبطة ، كل من رآه فى زينته وأبهته يتمنى أن يرزق رزقه ، وفى يوم من الأيام خرج فى زينته ومواكبه ، فنصحه أولو العلم والعاقلون من قومه ألا يفرح ، وألا يعبث فى الأرض فسادا ، فرد عليهم (إنما أوتيته على علم عندى) . « ٧٨ : القصص » .

ولما رآه الذين يريدون زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوه ، فلما سمع مقالتهم العلماء قالوا لهم : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) . « ٨٠ : القصص » .

وقد ذكر ابن عباس والسدى أنه بلغ من الفساد مبلغا عظيما لدرجة أنه أعطى امرأة بغّياً – مالا وفيرا على أن تتقّول على موسى – عليه السلام –، وهو فى ملأ من الناس أنه فعل بها كذا وكذا .. ويقال إنها فعلت ذلك فأرعد موسى من الفرق وصلى لله ساجدا ، ودعا على قارون ، فأوحى الله إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره . (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين) . « ٨١ : القصص » .

وثمة لوحة تؤكد ما نحن بصدده ، إذ هى برهان ساطع على أنه ليس فى القرآن القصصى تكرار مطلق ، وإنما هى إشارات وعظية يقتضيها السياق ، جاءت على صورة حلقات تكمل كل منها سابقتها وتؤدى إلى التى تليها ، إذ تحمل شيئا جديدا لم تتضمنه الحلقات السابقة ، فالقصة الكلية لم تكرر ألبتّه ، شأنها شأن التمثيليات التى نسمعها فى الإذاعة أو نراها فى « التليفزيون » على حلقات ينتظرها المغرمون كل يوم فى مواعيدها ، تشوقا لتطور الأحداث وجدة المواقف ورغبة فى

حل عقدها ، لتحقيق المتعة والفائدة والوصول إلى الحقيقة .

تصور اللوحة بنى إسرائيل وهم وقوف على باب الأرض المقدسة التى وعد الله أهل البيت من سلالة إبراهيم – عليه السلام – أن تكون ملكا لهم ، إذا جدوا وعملوا على طرد من يسكنونها حينذاك ، وقف بنو إسرائل على باب الأرض المقدسة تغشاهم الذلة ، ويعلو وجوههم مسحة الخنوع والصغار ، ونفوسهم مفعمة بالهوان ، حيث تمثل لهم شبح الموت مجسما فى كل خطوة يخطونها فى تلك السبيل ، فحاوروا نبيهم حوارا عنيفا كشف عن نياتهم السيئة ، وطبائعهم الميتة قال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه) :

– ياقوم : اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) .

ناداهم متلطفا داعيا لهم إلى الخير وهم يتخابثون عليه ويردون عليه فى غلظة ، واستعلاء وجفاء ووقاحة (قالوا) :

– يا موسى : ان فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) .

لايريدون أن يدخلوا الأرض المقدسة إلا أن يخليها لهم أصحابها القاطنون فيها ويدعونهم : هلموا إلينا .. إنها طبائع أطفال ونعلات صبيانية ، وأمانى الجبناء المتواكلين ، ومع ذلك قال لهم موسى وأخوه هارون قولا حسنا ، وأشارا عليهم بالدخول من الباب ووعدوهما بالنصر إن نفذوا ذلك الأمر السماوى (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) :

– ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) .

إنهم صمموا على عدم الدخول وركبوا رءوسهم وأبوْا فى صفاقة ، وطلبوا من موسى أن يقاتل هو وربه ، وكأنه ربه وحده ولم يك ربًا لهم .. (قالوا)

– ياموسى ، إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) .

لقد انتهى الأمر بين تلك الجماعة الشاردة وبين موسى – عليه السلام – إلى نقطة اليأس ، فاعتذر موسى إلى ربه (قال) :

– (رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) . فكان هذا حكم الله فيهم يتيهون فى الصحراء أربعين سنة ، وقد حرمت عليهم الأرض المقدسة ، فلم يروها ، ومن رآها منهم بعد ذلك – فإنه يراها فى شيخوخة واهية لاينتفع بخيراتها (قال) :

– فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين) . الآيات : « ٢٠ – ٢٦ : المائدة » .

يقول ابن خلدون معلقا على هذه الوقفة الإسرائيلية التى جسدتها الآيات القرآنية فى تلك اللوحة القصصية « إن نفس بنى إسرائيل كانت صغيرة ضئيلة ، لأنهم رئموا الذل والهوان فى ملك المصريين !! ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال ، ولذلك ذابت قلوبهم فى صدورهم ، وملأ الخوف أنفسهم حين أمروا بقتال أولئك الجبارين ، والعلماء يقررون : إن حضانة العلم خمس عشرة سنة ، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة ، وأما حضانة الأخلاق أربعون سنة ، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق ، فإنها لاتجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة ؛ لذلك أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يبقى بنو إسرائيل فى البرية أربعين سنة ، حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد ، وينشأ جيل ألف

الحرية ، ولم تذله العبودية ، [1]

وبعد : فلعلنا استطعنا أن ندلل فى هذا الفصل على أن القصص القرآنى ليس به تكرار مطلق ، وإنما القصة حلقات تحوى كل منها جوانب وأجزاء وإشارات فنية أو وعظية أو أخلاقية يقتضيها السياق لنسأ أو تأخير ، أو مجمل أخر بيانه ، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو مداخلة معنى فى آخر .

فالذين يتوهمون أن ثمة تكرارا ، نقول لهم : الموضوع واحد ، والقصة بنيان حى وجسم ينبض ، ووحدة الموضوع متمثلة ، والوحدة الفنية قائمة وكل حلقة من حلقات القصة صورة ناطقة تضيف شيئا جديدا يرتبط بحالة خاصة ، أو موقف معين مقدر لها اقتضته علة تدور معه وجودا أو عدما .

يقول ، أبو بكر الباقلانى ، فى كتابه ، إعجاز القرآن ، :

، إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة ، تؤدى معنى واحدا - من الأمر الصعب ، الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتبين البلاغة ، .

وفحوى كلام الباقلانى : إن عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة ، ومحاكاة منوعة ، دون أن تتغيّر معالمه ، ودون أن يفتر أسلوب عرضه ، هو الإعجاز الذى لايقدر عليه إلا الحكيم العليم ، رب العالمين .

ثم يقول الباقلانى :

، وأعيد كثير من القصص القرآنى فى مواضع مختلفة ، ونُبّه العرب بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ ، ومكررا ، .

يريد أن يقول:أن القصص القرآنى فى عرضه المتفاوت بين الطول والقصر،

---

(١) قصص الأنبياء : ص ٢٦٤ عبد الوهاب النجار .

والبسط والقبض ، والإيجاز والإطناب ، فتح المجال امام العرب المعارضين له ليأتوا بمثله أو بعشر سور مثله ، أو بعشر آيات فعجزوا واستخزوا .

ويقول « الزركشى » فى كتابه : « البرهان فى علوم القرآن » :

« ومنه – أى من التكرار – تكرار القصص فى القرآن ، كقصة ابليس فى السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء .. قال بعض العلماء : ذكر الله موسى فى القرآن فى مائة وعشرين موضعا » !!

ويتناول الزركشى آراء بعض العلماء ، ويكشف عن وجوه لبعض أسرار هذا التكرار فيقول : « وإنما كررها – أى القصة – لفائدة خلت عنه فى الموضع الآخر وهى أمور :

أحدها : أنه – أى القرآن – إذا كرر القصة زاد فيها شيئا ، ألا ترى أنه ذكر « الحيّة » فى عصا موسى – عليه السلام – وذكرها فى موضع آخر ثعبانا ؟

ثانيها : إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة – لايخفى ما فيه من الفصاحة .

ثالثها : أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية ، لصحة نبوة محمد – ﷺ – ثم بين وأوضح الأمر وعجزهم بأن كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا وبأى عبارة عبروا » .

ويقول الشيخ « عبد الكريم الخطيب » فى « التفسير القرآنى للقرآن » :

« التكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية ، فى إبراز جوانب لايمكن إبرازها على وجه واحد من وجوه النظم ، بل لابد أن تعاد العبارة مرة ومرة، كى تحمل فى كل مرة بعضا من مشخصات المشهد ، وإن كانت

كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله ، ولنا أن نشبه ذلك – على بعدما بين المشبه والمشبه به – بالتصوير السينمائى ، فإن الصورة السينمائية ، تتشكل من مئات وآلاف من « اللقطات ، حتى تتجسّم الأحداث والشخوص ، وتتكشف كل خافية كانت مختفية وراء الصورة افوتوغرافية ، فإذا هى تجمع بين الحركة والتجسيد » .

« إن تكرار الأحداث القصصية فى القصص القرآنى ، هو إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لايُرى لها وجه فى أية لغة ، وفى أية صورة من صور البيان ، يقارب هذا الوجه فى جلاله وروعته وسطوته » .

« وهل شهدت الحياة « الكلمة » تؤدى ما يؤديه العمل « السينمائى » اليوم فى نقل المشاهد والشخوص بأبعادها الثلاثة « طولها وعرضها وعمقها » وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها وصمتها ؟ وكم تتكلف « السينما » لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوفا !! » .

« أما النظم القرآنى ، فإنه يعرض المشاهد بأبعادها ، وأعماقها وحركاتها ، وسكناتها ، ومنطقها وصمتها ، وبوسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، وخلجات قلوبها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بعدد محدود من اللقطات ، لايكاد يتجاوز أصابع اليد عدا ، ولم تجمع هذه « اللقطات فى معرض واحد ، بل جعلها موزعة فى مواضع متباعدة أو متقاربة ، بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة منها بذاتها ، بحيث لو نظرنا إليها من خلال اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها لوجدنا منها جميعا تجاوبا واتساقا وأئتلافا ، حتى لكأنها اللحن الموسيقى ، يتألف من أنغام شتى ، تجمعها الوحدة التى يسير فى مجراها اللحن » .

الواقعية والقصص القرآنى

القصص القرآنى حقائق
وأحداث واقعية

كل ما ورد فى القصص القرآنى - من أشخاص وأحداث ومجتمعات وأقوام وأمصار وقرى - حقائق قد وقعت فعلا .. ما فى ذلك شك ..

وإن المتقولين بأن القصص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها - على مدى الزمان والمكان ، وأنه قد بعد عن الواقع - هؤلاء المتقولون وأمثالهم هم أعداء الله .. وما من مسلم فى قلبه ذرة من إيمان يتقول على الله ، ذلك لأن الحياة كلها بأزمنتها وأمكنتها وأشخاصها وأحداثها حاضرة بين يدى الله الحكيم العليم ، بين يدى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) . « ٣٦ - ٣٧ : الجاثية » .

وإذا كنا نحن البشر نلجأ إلى الخيال والوهم لننسج منهما قصصا حينما يعجزنا الواقع ، أو لم يسعفنا بما نتصوره ونتملاه ، فإن قدرة الخالق جل وعلا - أيعجزها شىء ، تريد فيقع ما تريد كما أرادته دون قصور أو مهل ، إنها إرادة لايخالطها وهم، ولايطوف بها خيال ، ولا تعللها الأمانى . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فإذا كان المستشرقون المتعصبون ومن خالطهم من أنصاف المثقفين السوفسطائيين يفترون هذه الفرية ، فقد جاءوا ظلما وزورا .. إنهم يتهمون قدرة الله ، وينسبون إليه ما ينسب إلى البشر عن عجز وقصور ولجوء إلى الخيال حينما يعجزهم الواقع وتعمى عليهم الحقائق .

ولقد قلنا فى فصل سابق : إن هذا القرآن ليس كتاب تاريخ أو عرضا لكل

أحداث الحياة برمتها ، وإنما يعرض من الأمور ومن المواقف ما يحدث فى النفوس أثرا ، ويقيم فى الصدور وازعا ، يدور مع العبرة أينما تدور ، ويفتح للعقل منافذ التفكير والتدبر ، حتى يضع الميسم على بواطن الأمور ويتعرف عليها ويتعظ بها .

ولا شك أن الأحداث التى يقتطعها القصص القرآنى من شريط الحياة هى الحقيقة الواقعة والصدق الخالص (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) . (١٠٥ : الإسراء) (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) (١٦ :الحديد) . (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) (١٧٦ : البقرة) . (نّزل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه) . (٣ : آل عمران) . (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . (٩ : الحجر) . (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) . (٤٢ : فصلت) .

وإذا كان القصص القرآنى قد نقّى هذه الأحداث وغربلها ، وحسّن عرضها ، وخلّصها من الزوائد والحواشى التى لا تفيد شيئا فى تصوير هذه الأحداث ، إذا كان ذلك هو الشأن ، فلا يصح أن يكون مسّوغا لأن يُتهم بأنه ليس من صميم الواقع ، أو أنه غيّر فى معالم الواقع ، وبّدل من الحقائق التى وقعت .

وإذا كانت – الآن – قد ازدهرت الترجمة ، وتعلم الناس كيف ينقلون ويترجمون ما يحيك فى صدور المتكلمين بالأوربية إلى العربية وبالفارسية إل التركية ، ومن كل أولئك إلى العربية وبالعكس ، إذا كان الأمر كذلك ، أفلا يكون ذلك أيسر وأقدر على من جعل الألسنة فى خلقتها مختلفة (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين) (٢٢: الروم) . أفلا يكون ذلك أيسر وأقدر على من خلق الخلق وهو أعلم بهم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) . (١٤ : الملك) .

فالذين يتقوّلون بأن القرآن قد تحدث بلسان عربى عن ألسنة غير عربية فهذا ادعاء باطل أيضا ، إن القرآن لم يتقّول على قوم نوح حين ترجم ما نطقوا به، ولم يتقول على أقوام عاد وثمود وصالح وموسى وعيسى ، إنما نطق بما نطق به هؤلاء الأقوام ، إنه المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما تكن صدورهم وتجمجم به أفئدتهم ، فإذا كانت حكمته وقدرته أنطقت السموات والأرض ، أليس ذلك بقادر على أن ينطق من خلق لهم الألسنة ؟ ينطقهم بالعربية، ويترجم ما نطقت به دلاله حالهم، فإذا جاءت كلمات الله ناطقة بما نطقت به ألسنة الحال أو المقال ، فهو الصورة الكاملة – روحا وشكلا ومضمونا ومحتوى – لما نطق به الناطقون ، وأعجزهم العجز عن البيان به أو التعبير بلسان عربى مبين .

ولنعرض – الآن – بعض القصص القرآنى ، لندلّل بها على أن القرآن حينما عرض هذه القصص ، إنما استقاها من مصدرها الواقعى ، بأحداثها وخلجاتها ومواقفها وتعبيراتها وحركاتها وسكناتها على مسرح حياتها الغابرة .

هل كان الذى حدث لأصحاب الكهف موتا حقيقيا أم كان سباتا ونوما طويلا؟ كلا الأمرين يمكن أن يكون ما دام ذلك متعلقا بقدرة الله ، وكذلك الشأن فى ذلك الرجل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، فهو رجل يؤمن بالله ، وكان يريد أن يستوثق لإيمانه ، ويطلب له المزيد من الأدلة والشواهد ، فالرجل حينما مر على هذه القرية التى اندثرت معالمها ، وخمدت حياتها ، وصار كل شيء فيها إلى تباب ويباب . فتساءل : هل تعود هذه المعالم التى بلاها البلى ، وأكلها التراب مرة أخرى إلى الحياة ؟؟ أذلك ممكن ؟؟ فعلم الله – تعالى – ما يدور بخلده ، وما يتجمجم فى صدره ، فأعاشه التجربة الحية ، وأماته مائة عام ، ثم أحياه ، ووجد الرجل هاتفا من قبل الله يسأله عن الزمن الذى لبثه ، فوضع فى

تقديره أن ما لبثه يوما أو بعض يوم ، ولم يدر بخاطره أنه لبث مائة عام ، وأخبره الهاتف بالحقيقة وطلب منه أن ينظر إلى طعامه وشرابه اللذين لم يدخلهما فساد ، والى حماره مازال قائما إلى جواره كما تركه (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال أنّى يحى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه .. قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم .. قال : بل لبثت مائة عام .. فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه .. وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس . وانظر إلى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ؟ فلما تبين له : قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير) ، ٢٥٩ : البقرة ، .

فهاتان القصتان قد وقعتا بالفعل :

الأولى : فى قصة أصحاب الكهف والعبرة فيها موقفهم من الضلال الذى كان مطبقا على بيئتهم التى عاشوا فيها ، وفى تخليص أنفسهم من هذا الضلال ، وفى تضحيتهم بالأهل والمال والوطن ، فى سبيل عقيدتهم ، والفرار بدينهم من هذه الفتنة المهلكة ، وأخيرا قدرة الله على بعث الموتى .

والثانية : جعل هذا الرجل – الذى أراد أدلة على إحياء الله الموتى – آية لكل من يشك فى قدرة الله تعالى – على البعث والنشور بعد الممات .

وهاتان التجربتان المثيرتان ليستا إنشاءً أو خيالا ، فأحبار اليهود يعلمون تماماً حقيقتيهما ، وقد اختلفو فى عدد السنوات التى مكثها أبطال القصتين .

ماذ ينتظر المستشرقون ومن سلكوا مسلكهم من الدارسين ؟؟

هل ينتظرون أن يجىء القرآن الكريم بالأشخاص والأحداث ، فيبعثها من مرقدها ، ويحركها من جديد لتنطق بما نطقت به ، أو لتشير بما كانت قد أشارت إليه ؟؟

- إن القصص القرآنى لم يخرج عن المألوف ، أو سنة الحياة التى يحياها الناس فى رواية أخبار الأمم السابقة ، ويتناقلونها -على اختلافهم - فالمعيار الأول والأخير هو الصدق فى الرواية والأمانة فى النقل، والدقة فى التصوير والتعبير،ولن يكون ذلك على أتم تمامه، وأكمل كماله إلا فى القرآن (ومن أصدق من الله قيلا؟) ، ١٢٢ : النساء ، .

(ومن أصدق من الله حديثا ؟) . ، ٨٧ : النساء ، .

وتجربة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - صورة أخرى و تمثل المؤمن الذى يطلب المزيد من الإيمان ، ليقتل فى نفسه كل وسواس ، وليخمد فى صدره كل همسة من همسات الشيطان (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيّته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) . ، ٥٢ : الحج ، . فالحكم فى الآية صريح لا انفكاك منه ، يقع على رسل الله وأنبيائه جميعا ، فالشيطان راصد لكل نبى وكل رسول ، وهذا الموقف - موقف أبى الأنبياء جميعا - لاينتقص من إيمانه ، إذ كانت غايته طلب المزيد من النور ، والجديد من العلم ، وقضية الموت والبعث هى الثغرة التى تنفذ منها رميات الشيطان إلى قلوب المؤمنين .

وجد إبراهيم - عليه السلام - أن ألطاف الله تحف به ، ونفحاته ورحماته لاتنقطع عنه ، فهفت نفسه إلى أن يسأل ربه - بدافع غريزة حب الاستطلاع - السؤال الذى يتضمن معنى الآيات الحوارية التالية :

(وإذ قال إبراهيم) :

- رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟؟

ومن ثم جاء الجواب متخذا اتجاها آخر غير متجه السؤال (قال) :

- أو لم تؤمن ؟؟

إثارة لمشاعر إبراهيم وإستحضارا للإيمان الذى يعقد عليه قلبه ، ولهذا كان جواب إبراهيم (قال) :

– بلى – ولكن ليطمئن قلبى .

فكشف الله له عن تجربة يجريها إبراهيم بنفسه ، ويصنعها بيده ، ويشهد على آثارها بعينه (قال) :

– فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم) . (٢٦٠ : البقرة) .

ويقوم إبراهيم – عليه السلام – بالتجربة ، فيأخذ من الطيور أربعة مختلفة ويضمها إليه ، ويتعرف عليها حتى تألفه ويألفها ، ثم يقطعهن أجزاء وأشلاء ، ويجعل كل شلو على رأس جبل ، ثم يدعوها إليه بأسمائها التى أطلقها عليها ، كما يدعو أهله ومعارفه بأسمائهم ، وتتم التجربة وتجيء الطيور الأربعة بسرعة ، فليس فى هذا خيال أو افتعال ، وإنما هى أمثلة لقدرة الله وحكمته عن طريق التجربة الحسية ، والإعاشة الحيّة ، التى اهتاجت لها المشاعر ، وخفقت لها الأفئدة .

والحقيقة التالية التى لايتطرق إليها الشك تتجلى فى هذه الدعوة إلى البر والإحسان ، وكما يربوا لإيمان وينمو فى طريق الهداية والعلم يربو أيضا غرس الحق والخير ، فالذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، إنما يجنون ثمرة هذا الغرس الذى غرسوه فى سبيل الله أضعافا مضاعفة ، كما يزرع الزارع حبة فى أرض طيبة فتنبت سبع سنابل ، تحمل كل سنبله مائة حبة ، هكذا الحبة تعطى سبعمائة حبة ، والحسنة تجازى بسبعمائة حسنة يقول الله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) . (٢٦١ : البقرة) .

فهل هذا تمثيل أو تخيل ؟ إنه حقيقة واقعة ، فإذا تطرق الشك إلى ضعاف النفوس، وأنى للحبة أن تنبت سبع سنابل ؟ وأنى للسنبلة أن تؤتى مائة حبة ؟ نقول لهم: ما أكثر غرائب الطبيعة !! وما أروع عجائبها؟؟ فكم من امرأة ولدت خمسا أو ستا فى بطن واحدة؟؟ كذلك الله يخلق ما يشاء، إن الذى يخبرنا هو الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وأخيرا أيها الشكاكون.. اسألوا علماء النبات: كم من اختراع فى عالم النبات بحيث تلد الحبة أكثر من سبعمائة حبة!!

فإذا كانت طريقة القرآن الكريم فى منهجه وعرضه – تجسيم هذه الأمثال وتصويرها وتشخيصها ، فليس معنى ذلك أنها لم تقع أو لم تحدث ، إن طريقة العرض وأدوات التصوير والمحاكاة شىء ، ووقع الأحداث وحقائقها وكنهها وماهيتها شىء آخر ، وموقفنا نحن الذين لم نشاهدها ، هو الإيمان بوقوعها ، والتصديق بحدوثها ، لأن الإيمان بالغيب هو البرزخ بين عالم الحيوان الذى لايدرك إلا ما تدركه حواسه ، وبين عالم الإنسان الذى يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذى يدرك بالحواس ، والسبيل إلى تخطيه هو البديهة والبصيرة والتفتح ، وإعمال الفكر والتدبر والنظر الثاقب (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ؟ وما كانت لديهم إذ يختصمون) . « ٤٤ : آل عمران » .

(وما كنت بجانب الغربى : إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنّا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) « ٤٤-٤٦: القصص ».

(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا

فاصبر إن العاقبة للمتقين) . « ٤٩ : هود » .

(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين) . « ٩٤ : يونس » .

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) «١٤٦-١٤٧ : البقرة » .

(الحق من ربك ، فلا تكن من الممترين) . « ٦٠ : آل عمران » .

(أفغير الله أبتغى حكما، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) «١١٤: الأنعام» .

ويقول المعترضون : ان هذه المحاورة التى يصورها القصص القرآنى فى آخر سورة المائدة بين المولى – تعالى – وبين عيسى – عليه السلام – لاتفهم على ظاهرها ولاتفسر على أنها وقعت فعلا ، وأنها لايمكن أن تكون إلا التصوير الأدبى الذى يقصد منه إلى توبيخ النصارى المعاصرين لمحمد – ﷺ – ويتساءلون : كيف تفسر الآية (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) « ١١٦ : المائدة » . فكيف يصح ذلك وعيسى لم يقل ذلك للناس ؟ وكيف يصح أن يقول (وإذ قال الله) وذلك يخبر به عن الماضى ، ولم يتقدم ذلك منه – تعالى – فى الدنيا ؟

ونسى هؤلاء المعارضون أو جهلوا أنه يجوز من الحكيم العليم أنه يخاطب متهما بفعل ليكون ردعا وتوبيخا لمن فعل ، والله – تعالى – عالم بالأمور ولايصح الاستفهام عليه . ويرى علماء التفسير أن هناك – فى هذه الآيات – نوعين من الأساليب :

أولهما : إخبار الله – تعالى – رسله يوم القيامة بما حدث من النصارى

والحوار بين مع عيسى بن مريم ، وقد حدث ذلك فعلا فى الدنيا .

وثانيهما : أسئلة تقريرية ، ليقيم الحجة على ضلال ما عمل أتباعه من بعده، فيجيبه عيسى – عليه السلام – منكرا ذلك جاحدا له مقررا أنه فى حياته ، إنما دعا الله وحده وعبادته دون سواه ، وأنه كان يراقبهم ويزودهم بالنصائح حتى وفاته ، والله – تعالى – كان الرقيب والشهيد على ذلك (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد) . ، ١١٧ : المائدة ، .

فكلا الأسلوبين : الخبرى والإنشائى الاستفهامى ، فيه تقرير بما وقع فى الدنيا، والسؤال موجه إلى عيسى – عليه السلام – لتقرير ما حدث من قومه بعد وفاته ، ولم يصدر عن عيسى ، ولكنه حدث فعلا من قومه ، فلزمتهم حجة الله وحق عليهم العذاب (١)

إذن لا نقول إن ذلك مجاف للواقع ، لأن التعبير بالماضى فى جنب الله متحقق الوقوع متى حضر وقته .

ويرى المعارضون أن وصف اليهود لعيسى – عليه السلام – بأنه رسول الله كما حكى القرآن (وقولهم إنا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله) . ، ١٥٧ : النساء ، . يرون أنه لا يمكن أن يفهم على أنه صدر حقا من اليهود ، فهم لم ينطقوا بهذا الوصف ، وإنما هو الذى أنطقهم به ، ذلك لأن وصفه بالرسالة ليس إلا التسليم بأنه رسول الله ، وهم لم يسلموا بهذا ، ولو سلموا لأصبحوا مسيحيين ، ولما كان بينهم وبينه عداء ولما كان قتل وصلب ..

وليعلم هؤلاء المرجفون أن ما قاله اليهود عن عيسى – عليه السلام – بأنه

---

(١) أنظر : تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١١٥ : للرازى

رسول الله ، إنما قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية والاستخفاف به ، فهم لم يعترفوا بإنه المسيح ، ولم يعترفوا بإنه رسول الله ، كقول فرعون عن موسى : (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) . ، ٢٧ : الشعراء ، .

ويرى المرجفون أن مسألة خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم لم يرد به نص قرآنى ، إنهم يفهمون خطأ تفسير قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا (الآية رقم ١ : النساء) فمعنى قوله تعالى : (وخلق منها زوجها) أى وخلق من هذه النفس ومن مادتها وطبيعتها ، زوجا لهذه النفس مقابلا لها ومكملا لوجودها ، فالمرجفون فهموا أن حواء خلقت من ضلع آدم – وهذا الزعم من واردات الأساطير ، لأن الضمير فى (منها) الذى يشير الى النفس الواحدة لا يقصدها باعتبارها كائنا بشريا هو ، آدم ، وإنما يشير إليها باعتبارها مادة مهيأة لخلق البشر ، فمن هذه المادة كان خلق آدم ، ومن هذه المادة أيضا كان خلق زوجه ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : (وخلقناكم أزواجا) . ، ٨ النبأ ، . بدليل أن التدبير الذى قدره الله لخلق الكائنات الحية كلها من حيوان ونبات (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) ، ٤٩ : الذاريات ، . (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) . ،٧:ق ،

وفى قوله تعالى : (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) ، ٣٩ :القيامة ، . إشارة صريحة إلى أن الإنسان يحمل فى كيانه طبيعة الذكر والأنثى : أى المادة المخلّق منها الذكر والأنثى ، ففى الذكر ذكر وأنثى ، وفى الأنثى أنثى وذكر ، وذلك ما يقرره العلم الحديث .(١) .

ونفس المعنى فى الآية الكريمة(هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها

---

(١) انظر التفسير القرآنى ص ٦٨٢ وما بعدها عبد الكريم الخطيب

زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به) «١٨٩ : الأعراف » .

ويرى المرجفون أن بعض الأحداث التي وردت في القصص الإسلامي أسندت لشخوص بأعينهم في موطن ، ثم أسندت ذاتها لغير هؤلاء الأشخاص في موطن آخر ، ومن ذلك قوله تعالى : (وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت : يا ويلتى أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلي شيخا ، إن هذا لشيء عجيب) « ٧٢ : هود » ، وقال تعالى: (قالوا : لا توجل ، إنا نبشرك بغلام عليم، قال: أبشرتموني على أن مسني الكبر، فبم تبشرون؟ قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) «٥٢-٥٦ :الحجر »

وبالرجوع إلى أمهات التفسير ألفيناهم أجمعوا على أن البشرى لكليهما في سورة « هود » لأن ابراهيم – عليه السلام – بعلها ، ولأنها فزعت منهم حين قدمت الطعام ، وفي سورة الحجر كانت البشرى لإبراهيم – عليه السلام – حين فزع منهم في أول لقاء – قيل زوجه سارة – ولم يسم الغلام في سورة الحجر ، ولا النافلة – يعقوب الذي يخلفه – اكتفاء بما سلف في سورة هود ، وتوجيه البشارة إلى سارة مع أن الأصل في ذلك ابراهيم – عليه السلام – فقد وجهت إليه (فبشرناه بغلام حليم) « ١٠١ : الصافات » (قالوا: لا تخف، وبشروه بغلام عليم) « ٢٨ :الذاريات» . قالوا للإيذان بأن ما بشر به يكون منهما ، ولكونها عقيم حريصة على الولد . وقيل : ان الملائكة بشروهما (بغلام عليم) هو « إسحاق » أما قوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) هو « إسماعيل » – عليه السلام – وهذا مما استدل به على أن الذبيح هو إسماعيل ، وإن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب من بعده .

ويرى المعارضون والمرجفون أن حرف « لا » في قوله تعالى : (ما منعك ألا

تسجد إذ أمرتك) ؟ فكيف يكون الإنكار على إبليس بترك السجود بهذا الاستفهام عن السبب الذى منعه من عدم السجود ، وهو على خلاف المراد من الاستفهام الذى يطلب إليه فيه أن يجيب عن سبب المنع من السجود ، لا عن سبب المنع من عدم السجود ؟

يقول « عبد الكريم الخطيب » فى « التفسير القرآنى » صـ ٣٧٢ وما بعدها « القول بزيادة اللام لا معقول له إلا – عند القائلين به – أنه يسوى النظم القرآنى ويمنع اضطراب المعنى أو فساده ، ولا يشفع لهذا القول ما جاءوا به من شواهد من الشعر العربى بزيادة حرف النفى « لا » فالقرآن حجة على الشعر وليس الشعر حجة على القرآن ، ثم إن القرآن ليس شعرا حتى تتاح فيه الضرورات التى يتاح فى الشعر ، وإن القرآن ليس من قول بشر حتى تحكمه الضرورة ، وتلتمس لقائله المعاذير . ولكنه كلام رب العالمين (لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) . « ٤٢ : فصلت » .

وإذن فحرف النفى « لا » حرف أصيل ، هو من صميم النظم القرآنى فى الآية الكريمة ، وله مكانه فى الإعجاز الذى تحمله الآية ، ولو حذف لحذف معه بعض ما فى الآية من إعجاز ، والذين يقولون بزيادته يهربون من مواجهة كلمات الله وآياته .

لأن « لا » إذا قيل بزيادتها كان المعنى حسب منطوق النظم بعد الحذف هكذا « ما منعك أن تسجد ؟ » وهذا يعنى أن مع إبليس حجة على منعه من السجود !! وقد أجاب إبليس على هذا وقدم الحجة التى معه فقال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) . « ٧٦ : ص » . ولكن أية حجة لمخلوق أمام الخالق ؟؟

قد أمره الله – تعالى – بالسجود ، وكان عليه أن يمتثل لهذا الأمر وأن يسجد

كما سجد الملائكة كلهم أجمعون ، أما التردد فى الامتثال لهذا الأمر ، أو النكوص عنه ، فهو عصيان صريح لله ، وتحد وقاح لأمره .

وإذا بقيت « لا » بمكانها من النظم – وهى باقية أبد الدهر – مؤدية وظيفتها (النفى) ، فإن المعنى حينئذ يكون هكذا حسب منطوق النظم : ما منعك من ألا تسجد إذ أمرتك ؟ أى ما حملك على ألا تسجد ؟ وبهذا يكون النظر إلى كلمة المنع ، لا إلى الحرف « لا » وهل هو منع قائم عى حوافز وحوائل تمنع من امتثال الأمر ، وتحول بين المأمور وبين إتيان ما أمر به ؟ أم هو منع قائم على أوهام وضلالات ، ومستند على محامل وعلل من الوهم والضلال ؟؟

والجواب أنه ليس هناك منع على الحقيقة وإنما هى علل فاسدة ، ومحامل باطلة ، اتخذ منها هذا الشقى ذريعة يتذرع بها إلى عصيان ربه ، وعذرا يعتذر به إليه.

ولهذا كان النفى للمنع مطلوبا هنا ، حيث لا سبب للمنع على الحقيقة ، ثم فى مساءَلة الله – سبحانة وتعالى – لإبليس فى غير هذا الموضع جاء قوله تعالى : (قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين) . « ٣٢ : الحجر » . فقوله تعالى : (مالك) هو بمعنى « ما منعك » حيث لا منع ، وقد جاء فى موقف آخر قوله تعالى : (قال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ استكبرت أم كنت من العالمين ؟) . « ٧٥ : ص » . جاء من غير حرف النفى « لا » ولكن جاء بعده ما يكشف عن تعلات إبليس وأوهامه المندسة فى صدره ، فقال تعالى : (أستكبرت أم كنت من العالين) ؟ فهو الاستكبار – والتعالى ، وتلك موانع اصطنعها إبليس وأقامها من ضلاله وجهله ، وقد تكررت إجابته : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) . إذ كان هذا الاختلاف فيما بين النار والطين هو الذى أضل

إبليس وأغواه ، حين قدر أن النار خير من الطين ، وأن الأعلى لا يسجد للأدنى(١)

وهكذا أسقط في يده ، وأخذ بمخانقه فانهار وهوى ، ثم تخبط في هذا الهذيان المحموم ، وقد عرف الاتجاه له فإبلس وكان من الهالكين

ومن آراء المرجفين والمعارضين أنهم لا يستطيعون أن يتصوروا مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوتي بدر وأحد ، اللهم إلا أن يكون حديث القصص القرآني عنهم حديث من يأخذ الناس بعقائدهم ، وتقوية للروح المعنوية ، وتحقيقا للأمل القوى في الانتصار السريع ، وحجتهم في ذلك أن الملك الواحد يكفي لإهلال أهل الأرض جميعا كما فعل جبريل – عليه السلام – بمدائن قوم لوط ، فإذا هو حضر يوم بدر فأى حاجة إلى مقاتلة المسلمين الكفار ؟ وبتقدير حضوره ، أى فائدة في إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضا فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم ، وأيضا لو قاتلوا ، فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ؟ وعلى الأول يكون الشاهد من عسكر الرسول – ﷺ – ثلاثة آلاف وأكثر ، ولم يقل أحد بذلك ، ولأنه خلاف قوله تعالى : (ويقللكم في أعينهم) ، ٤٤ :الأنفال ،

وإن كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ، ولم ينقل ذلك ألبته .

وعلى الثاني : كان يلزم حز الرءوس وتمزق البطون ، وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات ، فكان يجب أن يتواتر ويشتهر بين المسلمين والكفار – والموافقين والمخالفين .

وأيضا : أنهم لو كانوا أجساما كثيفة وجب أن يراهم الكل ، وإن كانوا أجساما لطيفه ، فكيف ثبتوا على الخيول ؟؟

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٧٢ وما بعدها .

والجواب – بإجماع آراء المفسرين – أن المسلمين استغاثوا ربهم فى موقعة بدر – حيث كانوا قلة وكان المشركون كثرة ، حتى أن رسول الله – ﷺ – قد اشتد فى الاستغاثة والمناشدة ، روى الإمام محمد أحمد – بإسناده – عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : لما كان يوم بدر . نظر النبى – ﷺ – إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبى – ﷺ – القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ثم قال : « اللهم أنجزنى ما وعدتنى .. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا » ، قال : فمازال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه من منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبى الله . كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل . (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) . « ٩ : الأنفال » . أى يردف بعضهم بعضا ، ويجىء بعضهم إثر بعض (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) . « ١٠ : الأنفال » . فالضمير فى (جعله) يعود إلى هذا المدد السماوى ، فلا يهولنكم العدو وكثرة عدده ، بعد أن علمتم أن الله معكم ، وأن إشارات النصر وبشرياته قد جاءت إليكم، تحملها ملائكة الرحمن التى بعثها الله لتقاتل معكم .

وفى قوله تعالى (وما جعله الله إلا بشرى لكم) ما يقطع بأن هذا المدد الملائكى لم يكن إلا قوى من قوى الحق ، تظاهر الذين آمنو وتثبت أقدامهم ، وتربط على قلوبهم ، وبهذا يصبح الواحد من المؤمنين يرجح عشرة من المشركين كما يقول الله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) . « ٦٥ الآنفال » .

فوجود الملائكة بين المؤمنين يشد أزرهم ، ويريهم أنهم أكثر من المشركين

عددا وأقوى قوة وعتادا ، يقول جل شأنه : (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا) . « ٤٤ : الأنفال » . (١)

والدخول فى تفصيلات المفسرين عن صور الملائكة وطريقة مشاركتهم فى المعركة وملابسهم وغطاءات رءوسهم والسيوف التى يمسكونها والخيل التى يركبونها ليس مجديا بل نقف عند النص القرآنى (إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان) . « ١٢ : الأنفال » .

قال البخارى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى ، عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر – قال : جاء جبريل الى النبى – ﷺ – فقال ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » – أو كلمة نحوها . قال : « وكذلك من شهد بدرا من الملائكة » انفرد بإخراجه البخارى .

وأما عصمة آدم – عليه السلام – التى أثارها المبطلون والمرجفون فتوضحها الآيات القصصية التالية : (وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) . « ٢٢ – ٢٣ : الأعراف » .

فهذا التضرع والتذلل والخضوع والاستكانة والافتقار الى رحمته وتعالى – والاعتراف بالخطأ ، والتوبة عنه ، يجب ما كان من معصية أو تفريط أو نسيان ، إذ علمه الله سبحانه وتعالى كيف يتوب ، وكيف يرجع إليه (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم) . « ٣٧ : البقرة » . وهذا السر العجيب

(١) أنظر تفاسير : المقرطبى وابن كثير وظلال القرآن والمنار والرازى والتفسير القرآنى للقرآن

ما سرى فى أحد من ذرية آدم إلا كانت عاقبته إلى خير فى دنياه وأخراه (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) « ١٢٢ : طه »

ثم إن آدم مخلوق من البداية ليكون خليفة الله فى الأرض ، فذلك الامتحان والابتلاء لصقل ملكاته وتزويده بالخبرة ، فلابد من أن يخوض التجربة ، لابد وأن يزود بالسلاح الذى يقتحم به المعمعة ، لابد من ايقاظ مواهبه والأسرار المركوزة فيه ، حتى يتبين الحق من الباطل ، والنور من الظلمات، والإســـلام من الكفر، والإلحاد من العقيدة ، والخطيئة من التوبة ، وأخيرا ليعرف صديقه من عدوه (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما) . « ١١٥ : طه » . هذا هو آدم وتلك ذريته من بعده ، وهكذا شأن الناس جميعا يتحدون كل سلطان بقيد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان فى ذلك خيرهم وإسعادهم (خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون) « ٣٧ : الأنبياء » . (ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) . « ١١ : الإسراء » . (يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا) « ٢٨ : النساء » .

يقول الفليسوف « محمد إقبال » : « فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم كما جاء فى القرآن وغفر له ، وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا ، بل هو خضوع عن طواعية للمثل الأخلاقى الأعلى ، خضوعا ينشأ من تعاون النظرات الحرة المختارة ، عن رغبة ورضى ، والكائن الذى قدرت عليه حركاته كلها ، كما قدرت حركات الآلة ، لا يقدم على فعل الخير !! وعلى هذا فإن الحرية شرط فى عمل الخير ، ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل ، بعد تقدير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها – هو فى الحق مغامرة كبرى، لأن حرية اختيار الخير تتضمن

كذلك اختيار عكسه ، وربما كانت مغامرة كهذه ، هى وحدها التى تيسر الابتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلق (فى أحسن تقويم) (ثم رددناه أسفل سافلين) « ٤-٥ : التين » وكما يقول القرآن الكريم: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) «٣٥:الأنبياء» . (١)

وأثار المبطلون والمرجفون مشكلة الأوثان التى كانت تعبد فى الجزيرة العربية زمن البعثة المحمدية وقبلها ومنها « ودّ وسواع ، ويغوث ويعوق ونسرا » وعجز فهمهم وإدراكهم عن الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح - عليه السلام - حتى تجىء فى قصته .

جاء فى تفسير الرازى : هذه الأصنام الخمسة ، كانت أكبر أصنامهم وإنها انتقلت عن قوم نوح الى العرب فكان (ود) لقبيلة « كلب » و (سراع) لهمدان و(يغوث) لمذحج ، و (يعوق) لمراد و (نسر) لحمير ، ولذلك سمت العرب بعبد (ود) وعبد (يغوث) ، ولا يمكن أن يقال : إن نوحا عليه السلام - وضعها فى السفينة ، لأنه جاء لنفيها وكسرها . (٢)

ويقول ابن كثير : « وأما مضمون ما جرى لنوح مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، رواه البخارى ، ثم بعد تلك الفترة الصالحة ، حدثت أمور افتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس عن تفسير قوله تعالى : (وقالوا : لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا) « ٢٣:نوح» . قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام : محمد إقبال ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) تفسير الرازى : حـ ٧ ص ٢١٨

قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى اذاهلك أولئك، وتنسخ العلم عبدت، قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق !! (١)

أما كيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت الى العرب ؟ فالشيطان الذى سول لأبناء الذين هلكو أن يعبدوا هذه التماثيل لم يمت - والذين آمنوا بسيدنا نوح ، ونجوا فى السفينة ، قد نقلوا ما كان من أمر المشركين بعد أن استوت السفينة على الجودى ، وانتقل نوح - عليه السلام - إلى الرفيق الأعلى ، وخلف من بعد قومه خلف وخلف ، والاخبار تنقل مشافهة - سابقا عن لاحق - حتى جاء « دعاء » الذين قال الله تعالى فيهم : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة) . « ٦٩ : الأعراف » . وكانوا عربا جفاة حفاة عتاة كفارا إذ أنهم أول الأمم بعد الطوفان - عبدوا الأصنام .. وهكذا انتقلت إلى العرب .

ودارت الاستفسارات التالية على ألسنة المبطلين والمرجفين ، ولاكتها أفواههم مؤادها : كيف خفى على سليمان - عليه السلام - حال مملكة سبأ ، حتى يزوده بأخبارها الهدهد ؟؟ ومن أين حصل للهدهد معرفة الله - تعالى - ووجوب السجود له ، وإنكاره سجودهم للشمس وإضافة ذلك إلى الشيطان وتزيينه . ؟؟

والجواب فى قول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، مافرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) . «٣٨ :الأنعام» . وفيه اشارة إلى أن عالم الأحياء من إنسان وحيوان وطيوريرجع إلى أصل واحد ، كانت منه جميع هذه المخلوقات فى أنواعها وأجناسها ، والدليل على تلك التسوية

(١) البداية والنهاية : ص ١٠٥ وما بعدها : الحافظ بن كثير .

بينها أسلوب القصر الذى يؤكد ذلك ، التسوية فى إقامة كل جنس من الأجناس نظام حيانه بما يتناسب وطبيعته « كل مهيأ لما خلق له » . وفى أسلوب معيشته وتوالده ، وحملات أفراده بعضها ببعض ، أوصلاته بالقريب والبعيد من أجناس الحيوانات الأخرى ، فكما أن الناس لهم نظام معين يمسكهم ، وقوانين تحكمهم ، وتربط بينهم عادات وتقاليد ومثل وتراث ، فقل ذلك على الأجناس الأخرى ، فكل نوع له عالمه ، وله لغته وعاداته وتقاليدة ونظام حياته قال تعالى : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) . « ٤٤ : الأسراء » .

وقضية الهدهد مع سيدنا سليمان – عليه السلام – لا تقل عنها روعة قضية النملة التى نادت فى جنودها خوفا عليهم وحرصاً على حياتهم – « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » خافت عليهم من جنود سليمان عندما حشرهم – أن يدوسوهم أو يحطموهم ساعة العرض والحشر ، فلبى النمل أوامر قائده وسارعوا الى ثكناتهم وجحورهم ، وتتصدى هى لسليمان وتقف موقف الند للند ، قائد أمام قائد دفاعا عن حياة مملكتها مما يجعل قائدا الإنس والجن والطير يبتسم لها ضاحكا ويشكر ربه ويسأله أن يدخله فى رحمته من عباده الصالحين (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) « ١٧ – ١٩ : النمل » .

فيا سبحان الله الذى أفهم النملة والهدهد تسبيحه وعبادته وشكره على نعماته .. سبحان الله الذى ألهم الهدهد أن يجيب على سليمان – وهو فى ريعان قوته وأبهة ملكه – ويقول له (أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى

وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى – يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) « ٢٢ – ٢٦ : النمل » .

قال الهدهد ذلك وهو متأكد من نفسه معتد بها ، وكأنما يثأر لها حين توعده سليمان بالتعذيب الشديد أو الذبح الأليم ، قال تعالى : (وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين) . « ٢٠ – ٢١ : النمل » . (١)

وبعد . فيا أيها المرجفون والمبطلون ، والمستشرقون والسوفسطائيون ويا أيها المبشرون والملحدون : أنظروا إلى القصص القرآنى نظرة موضوعية ، وتخلوا عن ذاتيتكم وقوميتكم ، فهو القصص الحق ، وإلا ما من سبيل إلا أن يبعث الله من فى القبور ليخبروكم بحقيقتهم وأحداث حياتهم ومواقفهم التى عاشوها ، ولم يتطرق اليها شيء من الخيال أو الوهم أو الفروض ، بل هى الواقع المخبر عنه بالحق الـــذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. ومع ذلك فأنتم على ما أنتم عليه لا ترون لمعة من لمعات الهدى أبدا ، ولو جاءتكم الآيات مبصرة ، قال تعالى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ، فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون) . « ١٤ – ١٥ : الحجر » . (لعمرك . انهم لفى سكرتهم يعمهون) . « ٧٢ : الحجر » .

***

---

(١) أنظر تفسير الرازى حـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها .

الأمثال فى القرآن الكريم

المثل

المثل والمثل والمثيل : كالشبه والشّبْه والشبيه لفظا ومعنى (١) والجمع أمثال كأشباه ، والمثل في الأدب : قول موجز محكيّ سائر ، يقصد به تشبيه حال ما حكى فيه بحال ما قيل لأجله ، أى لكل مثل مورد ومضرب ، فالمضرب يشبه المورد فى جميع حالاته ، مثل « جوزى جزاء سنمار » فأصل هذا المثل ومورده أن النعمان بن امرؤ القيس اللخمى ، ابتنى قصرا له يسمى « الخورنق » وكان قد كلف روميا ببنائه « سينمار » فلما أتمه قال له سنمار : « إنى أعرف موضع آجرة (لبنه) لو زالت لسقط كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟؟ فقال : لاجرم لأدعنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرمى من أعلى القصر إلى أسفله فهلك ، فضرب به المثل وقيل : (جزاء سنمار) .

ومثله : (ما يوم حليمة بسر) : مورده وأصله : أن جيش الغساسنة عندما عاد منتصرا فى إحدى المعارك ، قابلته فى طريق عودته « حليمة » بنت الحارث بن أبى شمير، وضمّخت الجنود بالطيب وقبلتهم تعبيرا عن فرحتها بذلك النصر

---

(١) جاء فى القاموس المحيط : المثل بالكسر والتحريك : الشّبْه والجمع أمثال

والمثَل : محركة : الحجّة والحديث .

وتمثل بالشيء : ضربه مثلا .

والمثال : امقدار والقصاص وصفة الشيء والجمع أمثلة ومُثُل .

والتّمثال والتمثيل : بالفتح وبالكسر : الصورة ، ومثّل تمثيلا : أى صوّره

ومثّل كنكّل : كمثّل تمثيلا : وهى المُثلة بضم الثاء وسكونها .

فقيل : (مايوم حليمة بسر) .

ومثله : (رب رمية من غير رام) أى : رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطىء ، يضرب للمخطىء يصيب أحيانا .

« والحقائق السامية فى معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت فى قالب حسن يقربها إلى الأفهام ، بقياسها على المعلوم اليقينيى ، والتمثيل هو القالب الذى يبرز المعانى فى صورة حية تستقر فى الأذهان ، بتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظير إلى النظير ، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالا ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، وهو من أساليب القرآن الكريم فى ضروب بيانه ونواحى إعجازه » (١) .

والأمثلة على ذلك جمة وغفيرة ؛ هذه جموع خارجة من الأحداث فى لحظة واحدة كأنها الجراد المنتشر ، فتشبيهها بهذا الجراد الذى يملأ الأفق فى انتشاره يساعد على تصور هذ المنظر العجيب (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، مهطعين إلى الداع، يقول الكافرون هذا يوم عسر) «٧-٨: القمر» .

وقوله تعالى : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) . « ١٢ : محمد » .

فالتشبيه هنا رسم صورة دقيقة لغفلتهم إلا عن الطعام ، كالأنعام التى تأكل وهى غافلة عن شفرة القصاب .

وأشار الزمخشرى إلى أن المثل يطلق على الحال والقصة العجيبة الشأن فقال : « والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلا ولارأوه للتسيير ، ولا جديرا بالتداول والقبول إلا قولا

(١) مباحث فى علوم القرآن ص ٢٨١ : مناع القطان .

فيه غرابة من بعض الوجوه ، ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة » (١) .

أما علماء البيان فقد ذهبوا فى المثل مذهبا آخر ، فهو عندهم : المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله ، وأصله « الاستعارة المتثيلية كقولك للمتردد فى فعل أمر من الأمور : « مالى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى » ؟ والمثل فى هذه الحالة لايشترط أن يكون له مورد ، كما لايشترط أن يكون مجازا مركبا .

والأمثال فى القرآن الكريم على ثلاثة أنواع :

أولاها : الأمثال المرسلة ، وهى جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه أو ذكر لأداة التشبيه أو وجه الشبه ، والأمثلة على ذلك فى القرآن كثيرة : (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) . « ٤١ : يوسف » . (أليس الصبح بقريب) ؟ «٨١: هود» . (لكل نبأ مستقر) . «٦٧ : الأنعام» . (الآن حصحص الحق) . «٥١: يوسف» . (ليس لها من دون الله كاشفة) . « ٥٨ : النجم » . (ولايحيق المكر السىء إلا بأهله) « ٤٣ : فاطر » (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) «١٤: الحشر» . (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . « ٢٤٩ : البقرة » . (قل كل يعمل على شاكلته) . « ٨٤ : الإسراء » . (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) . « ٢١٦ : البقرة » . (لايستوى الخبيث والطيب) « ١٠٠ : المائدة » (لمثل هذا فليعمل العملون) « ٦١ : الصافات » . (ضعف الطالب والمطلوب) . «٧٣ : الحج » . (كل نفس بما كسبت رهينة) . « ٣٨ : المدثر » . (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) . « ٦٠ : الرحمن » . (أليس الله بكاف عبده) ؟ . «٣٦: الزمر» (كل حزب بما لديهم فرحون) « ٥٣: المؤمنون » .

(١) انظر الكشاف : للزمخشرى .

وثانيها : الأمثال الكامنة (١) وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز بليغ ، ويكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها ، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة كثيرة منها :

قوله تعالى : (لا فارض ولابكر عوان بين ذلك) . « ٦٨ : البقرة » .

وقوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) . « ٦٧ : الفرقان » .

وقوله تعالى : (ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا) . « ١١٠ : الإسراء » .

وقوله تعالى : (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط) . « ٢٩ : الإسراء » .

وقوله تعالى : (قال: أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) . « ٢٦٠ :البقرة » .

وقوله تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به) . « ١٢٣ : النساء » .

وقوه تعالى : (قال: هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟) . « ٦٤ : يوسف » .

وقوله تعالى : (ولايحيق المكر السىء إلا بأهله) . « ٤٣ : فاطر » .

وثالثها : الأمثال المصرحة : وهى ما صرح فيها بلفظ المثل أو التشبيه وذكرت فيها أداة التشبيه أو وجه الشبه أو حذف منها الإثنان ، أو جاءت على سبيل الاستعارة التمثيلية أو القصة التمثيلية .

منها قوله تعالى فى حق المنافقين : (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لايبصرون ، صم بكم عمى ، فهم لايرجعون ، أو كصيب من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوْا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير) . « ١٧ - ٢٠ : البقرة »

(١) انظر : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٨٥ وما بعدها مرجع سابق .

قال ابن كثير : « ضرب الله للمنافقين هذا المثل فشبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بها ، وتأنس بها ، وأبصر ما عن يمينه وشماله ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار فى ظلام شديد ، لايبصر ولايهتدى ، فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى ، واستحبابهم الغىّ على الرشد ، وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات الشك والكفر والنفاق لايهتدوون إلى سبيل خير ولايعرفون طريق النجاة » (١) .

أما الآية الثانية (أو كصيّب من السماء ...) فشبههم الله – تعالى – بحال من أصابه مطر مهلك ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، فخارت قواه ، وخاف الموت فاتقاه بوضع إصبعيه فى أذنيه ، وأغمض عينيه خشية الصواعق التى تصيبه .

إن نفوس هؤلاء المنافقين فارغة ، لاتستقر على حال ، ولاتطمئن إلى قرار ، إنهم مضطربون لأنهم لايؤمنون ، فالايمان طريق الطمأنينة والسكينة ، « فإذا كان التشبيه فى الآية الأولى يصور حالهم فى طلب الدليل ، وعدم الأخذ به ، لغلبة الهوى وسيطرة الشهوة والجحود والموروث ، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر ، وخوف من غير مخوف ولذلك يقول بعض علماء النفس : « إن النفاق منشأه ضعف فى النفوس » (٢) .

ويقول « سيد قطب » معلقا على الصور المتتابعة فى الآيتين الكريمتين ، أو الشريط المتحرك الذى لم يترك حركة من حركات المنافقين أو خلجة من خلجات

---

(١) مختصر ابن كثير جـ١ ص ٣٦ .

(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٥٤ الشيخ أبو زهرة .

أنفسهم أو سكنة من سكنات جوارحهم إلا وسجلها يقول: « لو سجلت عدسة الصورالمتحركة مشهدا كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع ، لكانت موفقة كل التوفيق ، فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ ، فلا تنقص منه حركة واحدة تستطيع عدسة الصور المتحركة إثباتها ؟ لا – بل تتيح للنفس متعة أشهى ، بأن تدع للخيال عملا؛ وهو يرسم الصور ويمحوها ، ويصنع الحركات ويتبعها ، ويرسم الظلال ويشهدها ،والنفس تجيش ، والوجدان ينفعل ، والقلب يسرع في النبضات ، تحت تأثير ماذا ؟ تحت تأثير الكلمات » (١) .

ومنها قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

جاءت الآية تخاطب العقل ، وتدعوه إلى الله ، والمثل الحسي يجسد صورة الوحي الذي نزل من السماء ليحيي القلوب بعد موات ، سواء بسواء مثل الماء الذي أنزله – الله تعالى – من السماء لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبدا وغثاء ، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها وينقى القلوب منها وكذلك يضرب الله الأمثال الحسية ليقيم من منطقها طريقه الذي يستقيم عليه في التهدّي إلى الحق والإيمان بالله وإفراده بالألوهية ، ونبذ الشركاء والأنداد .

وفي الآية صورة أخرى : هذه المعادن التي تسلط عليها النار فتنصهر ، وتتحول إلى مادة سائلة أشبه بالماء ، إذ يستطيع الصانع أن يشكل منها ما يشاء من أوان وحلى . فإذا انصهرت تحت حرارة النار يعلو الزبد فوقها فيكون شبيها بالزبد

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٩٩ .

الذى يعلو سطح الماء المندفع من جراء السيل المتدفق ، فالزبد فوق سطح الماء والرغوة التى تعلو وجه المعدن المنصهر سواء بسواء ، جمعت صفة الخبث – الذى يذهب بعيدا – بينهما ، وأما ما ينفع الناس من الماء ، ومن المعادن المصفّاة هو الذى يبقى ويعيش مع الناس ، فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار الزبد والغثاء والخَبَث ، وكل ما من شأنه أن يعطل مسيرة الحياة الصالحة ، أو يعوق موكب العلم والنور والإيمان .

ومنها قوله تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا : كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) . « ٢٤ – ٢٧ : إبراهيم » .

فالكلمة الطيبة كل كلمة تحمل الحق والخير والجمال ، وتنفح نفحة من نفحات الإيمان ، وتتملى العدل والإحسان ، ومجمع الكلم الطيب فى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ، والكلمة الخبيثة ما كانت تحمل باطلا وضلالا ، وتتصدى لكل معانى الحق والخير والعدل والإحسان ، فالكلمتان متقابلتان متضادتان لاتلتقيان : معروف ومنكر . حق وباطل، قبح وجمال ، ظلم وعدل، إيمان وكفر، هدى وضلال وطيب وخبيث.

والشجرة الطيبة هى ما كثر خيرها واتصل عطاؤها ، جذورها ضاربة فى أعماق الأرض، تقيم وجودها على مصدر دائم من الرى، وينابيع صافية ، لاتشوبها الشوائب، ولايكدر صفوها خبث أو غبار أو تراب. تنمو فروعها وتترعرع وتطاول السماء باحثة عن الضوء الصافى والهواء النقى ولايتمثل ذلك إلا فى النخل، ولأمر ما وصّى رسول الله – ﷺ – بالنخل فقال : « أكرموا عماتكم النخل ، فإنهن

خلقن من طينة آدم) .

ونقيضها الشجرة الخبيثة التى لاجذور لها ولا أصول فهى نبتة خبيثة مُرّة لاثبات لها ولا استقرار ، لا فائدة ترجى فيها ، ولاعطاء ينتظر منها .

«والمثل الذى ضربه الله للكلمة الطيبة هو الشجرة الطيبة ، والذى تمثل فيه الكلمة الطيبة على هذا الوجه المشرق الطيب لن يضل أبدا بل يعلو بها ويطاول السماء حتى يشرف على الوجود الأرضى ، فيرى كل شىء من متعة ومال وسطوة وسلطان وجاه يراه صغيرا هينا ضئيلا ، فهى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تأخذ الثمرة المتجددة من الله سبحانه ، وتنال ثوابه ورضوانه .

والكلمة الخبيثة آفة تدخل على الإنسان وتندس فى مسارب تفكيره وخلجات وجدانه ، فهى نبتة سيئة خبيثة ، طعمها مر وريحها فاسد ، لاتلبث أن تنهار لأنه لا أصل لها ولا جذور تدعمها ، والذى خبث لايخرج إلا نكدا ، والذى تتمثل فيه لايخرج هذه الصورة المخيفة ، فإنه وباء قاتل وشر راصد ، يهلك نفسه أو لا ثم يقضى على من حوله أخيرا» (١) .

والمثل فى الآيتين الكريمتين ليس مجرد تشبيه المعنوى بالمحسوس فقط إنما تعدى لونا جديدا فى التصوير ، هو تجسيم المعنويات لاعلى وجه التشبيه والتمثيل ، بل على وجه التصيير والتحويل ، إذ أبرز المعنى المقابل للكلمة الطيبة بالكلمة الخبيثة ، والشجرة الطيبة تربى وتخصب وتنمو وتزدهر وتعطى أكلها كل حين بأقل جهد ممكن وأقصر زمن محدد ، فتطورت وتحولت وتصّيرت شيئا نافعا ، أما نقيضتها فتكشفت عن وجه كالح ضار تحّول وتصيّر نكدا وخبثا وشؤما ، والعامل المشترك فى الحالتين : الأرض والماء والغذاء . (فهل من مدكر) ؟.

---

(١) التفسير اقرآنى لقرآن : مرجع سابق .

والأمثال فى القرآن لايستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى ، الشبيه والنظير ، فقط . ولايستقيم حملها على أنها أقوال استعملت لوجود شبه وعلاقة بين مضربها ومورد‌ها فحسب ، ولايستقيم حملها على المعانى البلاغية فحسب ، فمنها ما ليس باستعارة أو لم يفش استعماله . إذن : المعيار فى المثل القرآنى : الصدق والدقة والتعبير بالصورة لإبراز المعنى فى صورة حسية رائعة موجزة ، لها وقعها فى النفس سواء كان له مورد أم لا ، وسواء كان تشبيها أو ستعارة أو قولا مرسلا ، وكل أولئك ماثل فى القرآن الكريم .

وقد ذكر الله – سبحانه وتعالى – أنه يضرب الأمثال للناس فقال :

(وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون) . ، ٢١ : الحشر ،

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) . ، ٤٣ : العنكبوت ، .

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) . ،٢٧ :الزمر ، .

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا) . ،٨٩ : الإسراء ، .

(إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) . ، ٢٦ :البقرة ، .

(وكلا ضربنا له الأمثال ، وكلا تبرنا تتبيرا) . ، ٢٩ : الفرقان ، .

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ، ٩ : الفرقان، .

(ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) . ، ٣٥ : النور ، .

(وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) . ، ٤٥ : إبراهيم ، .

(ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) . ، ٢٥ : إبراهيم ، .

(كذلك يضرب الله الأمثال) . ، ١٧ : الرعد ، .

(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) . ، ٣ : محمد ، .

وعن على – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : ، إن الله أنزل

القرآن آمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا ، [1] .

وللأمثال فوائد جمة ، ومناقب عديدة ، ومنافع كثيرة نوجزها فيما يلى :-

– الحقائق السامية ، والمثل العليا ، والأهداف الرائعة تبرز صورتها ، وتنقش فى لوحة العقول إذا صيغت فى صورة حسية قريبة الفهم كتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظير إلى النظير .

– تجمع الأمثال المعانى الرائعة فى عبارات موجزة سواء كانت للترغيب أو التنفير.

– تكشف الأمثال عن الحقائق الغيبية . كالجنة والنار ، وعالم الملائكة وعوالم الشياطين والجان .

– الأمثال أوقع فى الخطابة من السرد ، وأبلغ فى الوعظ ، وأقوى فى الزجر ، وأقوم فى الإقناع بإعطاء الحجة وإقامة الدليل .

– الأمثال أداة تربوية ، تعين المربين على الانتقال من المحسوس إلى المعقول ومن المعلوم إلى المجهول ، لما تحمل فى طياتها من قصص شائق .

***

---

(١) رواه الترمذى .

القصة التمثيلية

والقصة التمثيلية التى تضرب مثلا هى قصة تصور الحق والواقع ، وأحداثها قد وقعت فعلا ، وحوار شخوصها قد صدر عنهم ، والمواقف التى ترتبت على هذا الحوار قد مثُلت ، وكل ما ينسب من أقوال وأفعال وحركات وسكنات قد كان ، بلا زيادة ولانقصان ، فهى تلتقى مع القصة التاريخية فى عاملى الزمان والمكان ، إلا أنها نوع من التمثيل والتمثيل ضرب من ضروب البلاغة وفن من فنون البيان ، والبيان العربى يقوم على دعامتين :

أولاهما : الحق والواقع والعرف والتقاليد .

ثانيهما : التصوير الفنى والتعبير بالصورة المحسة عن المعنى الذهنى فى طبائع الشخوص ، وتجسيد حالاتهم النفسية ، وتجسيم خركاتهم وعرضها فى صورة حية شاخصة ، وحركة متجددة ، حتى يحيل كل ذلك إلى مسرح الحياة الأولى التى وقعت فيه القصة .

وإذا كان قد أطلق عليها البعض « قصة فنية » ، لتغلب جانب المجاز عليها ، حيث تشترك مع « المثل » فى المورد والمضرب ، فليس معنى ذلك أن أحداثها لم تقع ، أو أن أشخاصها لم يوجدوا ، أو أن الحوار لم يصدر ، وليس معنى ذلك أنه تقوم على الفرض والتخييل .. أبدا ليس من ذلك شىء كل ما فى الأمر أن الناس متساوون فى الإنسانيه وطبائعهم متقاربة ، وأحاسيسهم ومشاعرهم قد تلتقى عند رابط يجمعهم أو موقف يثيرهم ، والتاريخ يعيد نفسه – مع اختلاف فى الزمن والإدراك والتقدم ، فإذا كان حادث اليوم يشبه نظيره فى الأيام الغابرة ، وإذا كان الموقف هو الموقف – مع تغيير فى الشخوص والزمان والمكان – فمن ثمة تنبع

العظة ، وتظهر العبرة ، وتستعار القصة التى وقعت فى زمن غابر (مورد المثل) إلى الزمن اللاحق المشابه تماما للغابر فى أحداثه ومواقفه وصراعاته (مضرب المثل) وليس فى ذلك اختلاف أو افتراء أوكذب أو ميْن ، فلا مناص من واقعيتها ، ولا مراء فى حقيقتها ، ولذلك أطلقوا عليها فى علم البلاغة ، استعارة تمثيلية ، حذف أحد طرفيها وهو المشبه فى الحالة الغابرة، ولسان حالها مؤداه: أن حالتكم– أيها الناس المعاصرون –فى كذا وكذا وكذا تشبه حالة من سبقكم فى كذا وكذا وكذا .

فالقصة التمثيلية التى يضربها الله للناس ، غرضها أن يرواْ فها مواقع العبرة والعظة ، حتى يكون لهم منها طريق إلى الحق والهدى ، ونحاول أن نبرهن على هذه الحقيقة بعرض موجز لبعض القَصص الذى يضرب مثلا – يقول الله – تبارك وتعالى : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا :

– إنا إليكم مرسلون (قالوا) :

– ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون .

زادهم ذلك التعزيز عنادا واصرارا على الكفر والضلال ، فما كان من الرسل إلا أن (قالوا) :

– ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين .

فما كان من هؤلاء العناة إلا الرد الفاجر الزاجر المهدد (قالوا) :

– إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لترجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم .

ويتلقى الرسل هذ الرد فى ملاطفة وحلم ورفق (قالوا) :

– طائركم معكم ، أئن ذكرتم . بل أنتم قوم مسرفون .

وينتهى المشهد الأول ، ويقبل وافد جديد عليهم ، يؤمن بدعوة الرسل ،

ويسفه قومه لمعارضتهم إياهم (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال) :

– ياقوم . اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون ، ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر ، لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون ، إنى إذن لفى ضلال مبين ، إنى آمنت بربكم فاسمعون .

فجاءه الجزاء سريعا فى الجواب وشيكا ، راد على إقراره بالإيمان بربه (قيل: ادخل الجنة) . فتمنى قومه أن ينالوا مثله . (قال) :

– ياليت قومى يعلمون ، بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين .

الآيات من (١٣ – ٢٧ : يس) .

هذه هى القصة التمثيلية التى ضربت مثلا ، وعلى ضوئها تبرز العبرة والموعظة ، فالصورة التى يصورها المثل : حالة هؤلاء المشركين الضالين فى الزمن الغابر، وحالة المشركين المعاصرين لرسول اله – ﷺ – والمآل والمصير لدعوة الكفر، ويقابله النعيم والجنة مآلا ومصيراً للذين استجابوا لدعوة الإيمان بالله والرسول.

فهل القصة مختلفة ؟ حا شا لله !! فالقرية– بإجماع المفسرين هى «أنطاكية » والرسل الذين أرسلوا إليها من حواريى المسيح – عليه السلام – فالقصة كشفت عن الطبيعة الإنسانية ، والمعادن النفسية ، وميزت الخبيث من الطيب : أصحاب طبيعة نكدة تتأبّى على الخير ، غافلة عن الحق ، سادرة مغلقة الحواس . موصدة القلوب . وأصحاب طبيعة خيّرة مهيأة للإيمان ، متشوقة إليه بآذان مصغية وأفئدة متفتحة .

وقصة الرجلين اللذين ضربهما الله مثلا : أحدهما مؤمن والآخر كافر . قال – تعالى – (واضرب لهم مثلا رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب

وحففناها بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره :

– أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا .

حيث استبد به الغرور ، وركبه الصلّف والطيش والنزق ، فأخذ يكيد للمؤمنين ويغريهم بالضلال ليفتنهم عن دينهم فقال ما قال لصاحبه ، وهو يطوف به فى جنتيه (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال :)

– ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى، لأجدنّ خيرا منها منقبا .

لقد أعمته المادة ، واستحوذ عليه الشيطان فقال قولته الشنيعة : (وما أظن الساعة قائمة) ويتفرس فى وجه صاحبه عله يجد أثر هذه المقولة على وجهه ، ثم يتمادى فى غروره ويقطع على صاحبه خلجات تفكيره فيقول لصاحبه (لأجدن خيرا منها منقلبا) هذا شأنه وشأن من زُين له سوء عمله فرآه حسنا (لايسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسّته ليقولن : هذا لى وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) . ، ٤٩ – ٥٠ : فصلت ، .

وجاء المشهد الثانى إذ يصمت هذا الكافر المغرور ، ليسمع كلام صاحبه المؤمن ، الذى لم يعره انتباها (قال له صاحبه وهو يحاوره) :

– أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لاقوة إلا بالله ، إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا من السماء ، فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا .

ويستجيب الله لهذا المؤمن ، ويحقق رجاءه . فإذا بالحال تتغير ، وإذا بالجنة الزاهرة الزاهية تجتاحها فجأة جائحة تعصف بها فتجعلها رمادا ، ويفور ماؤها ، ويقابل هذه اللوحة ، لوحة المؤمن وقد ألبسه الله ثوب الغنى ، وأنعم عليه بجنة خير من جنة صاحبه . (وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها .. ويقول) :

– ياليتنى لم أشرك بربى أحدا .

ويجيء التعقيب من قبل الله – تعالى – على هذا المثل القصصى ، وبطلْ القصة : الكافر الذى لجّ فى كفره وتمادى فى غيه وضلاله (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا) .. ويقابل هذا .. ذلك المؤمن الذى يجد ولاءه لله – سبحانه – حيث يأخذ بيده إلى النجاة يوم القيامة (هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا) . ، الآيات من ٣٢ – ٤٤ : الكهف ، .

هذه هى القصة التمثيلية التى ضربها الله مثلا لكفار قريش ، فحالتهم شبيهة بحالة هذا الكافر المغرور – الذى لم ينتصر لنفسه ولا لجنتيه – وقد أجمع المفسرون على أن الرجلين كانا أخوين من بنى إسرائيل : كافر يسمى ، قطروس ، ومؤمن يسمى ، هوذا ، اقتسما ثمانية آلاف دينار ، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وبساتين ، وصرف المؤمن نصيبه فى طاعة الله ومرضاته ، وافتخر الكافر على المؤمن وعايره بالزروع والثمار ، ودانت له الدنيا فظن أنه لم يبعث فكان ما كان ، بينما المؤمن لم يركن إلى هذه الحياة الدنيا ، بل سلم أمره لربه ، وأنفق فى سبيل الله ولم يحجم ، وأعطى ولم يبخل فعوضه الله فى الدنيا خيرا ، وبّوأه فى الآخرة مكانا فى جنات الخلد .

وهذا نموذج من القصص التمثيلى الذى ضرب الله به مثلا لمشركى قريش

ووجه الشبه القائم بينهم وبين أصحاب الجنة يقول الله – تعالى – (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولايستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوًا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا :

– إنا لضالون . بل نحن محرمون .

قالوا ذلك بعد أن دبروا تدبيرهم السيء على أن يصرموها فى الصباح الباكر ولايدعوا فيها شيئا – خشية أن يراهم المساكين – فيلحوا عليهم فى العطاء ، (ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين) . ، ٥٤ : آل عمران ، . فطاف على جنتهم طائف ، واجتاحتها جائحة بالليل وهم نائمون ، فإذا هى عارية من الثمار ، والآن وقد تأكدوا أن هذه جنتهم – بعد أن حسبوا أنهم قد ضلوا الطريق إليها – وبعد أن سقط فى أيديهم وأخذ بتلا بيبهم ، (قال أوسطهم) :

– ألم أقل لكم : لولا تسبحون ؟

وهنا يتنصّل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ، فيراجعون أمرهم على ضوء هذه الحقيقة ، ويتلاومون – بعد فوات الأوان – ويدركون خطأهم ويعترفون بذنبهم ، عسى الله أن يصفح عنهم ويبدلهم خيرا من جنتهم ، ولات ساعة مندم . (قالوا) :

– سبحان ربنا إنا كنا ظالمين

وبعد الندم والتلاوم والتخلص من تبعة هذا الأمر المشئوم (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا) :

– ياويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون.

ويعقب الله – تعالى – على ما حدث منهم ، وما أصاب جنتهم فى الدنيا ، وما مسّهم من عذاب مادى فى أموالهم وأنفسهم فى هذه الحياة العاجلة ، يعقب – جل شأنه – بأن هذا العذاب ضئيل لايقاس بعذاب الآخرة فى هوله وشدته وقوته (كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

الآيات من « ١٧ – ٣٣ : القلم » .

تلك هى القصة التمثيلية التى مثلت موقف المشركين من رسول الله – ﷺ – إذ بسط إليهم يده الكريمة ، يدعوهم إلى الإيمان ، بينما هم يمكرون له ويدبرون إيذاءه وقتله والتخلص منه ، وحالتهم السيئة وموقفهم المنحرف المتعجرف ، هى حالة أصحاب الجنة ، وموقفهم المشين ، وتعاليهم الممقوت .

أما مكان هذه الجنة وزمانها وأعيان أصحابها ، فالقصة لم تتعرض له ، ولم يلتفت القرآن إلى شيء من ذلك ، لأنه لايتعلق بالعبرة الماثلة من الحدث ، بل يكون معوّقا للموعظة وصرف العقول عن التدبر والتفكير فيما آل إليه أصحاب الجنة ، ثم إن هذه القيود التى تكبّل الحدث بالزمان والمكان وأشخاص بأعينهم ، ألا تجمده وتجعله فاقد الحركة والحيوية ؟

إن الحدث لم يرتبط بزمان معين أو مكان بذاته ، أو أناس بسماتهم فهو حى على مر العصور ، تشهده الخليقة على مسرح الحياة المتجدد ، ليطلقوا ضحكات السخرية ما شاءوا أو يكتموها ، متابعين المشهد وأعصابهم مشدودة ، متشوقين وأبصارهم شاخصة ، يقظين وأفئدتهم متفتحة ، وأنفسهم مبهورة مشدوهة ، وعقولهم مأخوذة مسحورة .

والعبرة مجسمة فى القصة ، والعظة ملموسة ، فالبلاء والاختبار الذى وقع على « مضر » إذ أخذهم بالقحط والجدب استجابة لدعوة رسول الله – ﷺ - حيث

دعا عليهم بقوله فيما يروى عنه « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف » .

ألا فليعلم الملأ من قريش أن العذاب الذى نزل بأصحاب الجنة ينزل بغيرهم، ما داموا يمنعون خير الله عن عباد الله ، فأصحاب الجنة أنعم اللع عليهم بفيئها وظلالها وثمارها ، وقريش أنعم الله عليهم بهذا القرآن الكريم الذى جاء به رسول من أنفسهم ، يتلوه عليهم ، ويدعوهم إلى قطف ثماره ، فهو الجنة الباقية التى تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها ، أما والحال هكذا فسوف يلقون ما لقيه أصحاب الجنة ، بل هناك ما ينتظرهم أشد وأكبر يوم تقوم الساعة .

فجو القصة تجربة من واقع البيئة ، والقرآن – كما عودنا – يربط بين الغابر والحاضر ، حتى يمس شغاف القلوب بأقرب وسيلة ، وأنجع أداة بالتصوير المجسّم ، والتعبير المجسّد للجنتين : السابقة والحاضرة فالصور مكتملة واللوحة محسّة ، والإعراض من كل منتزع ، والطمع والخوف والحرص على ما بأيديهم أدى إلى العناد مع رسول الله ، والا غترار بأموالهم وأولادهم وأنفسهم .

وهذه صورتهم المجّسمة فى هذا المشهد ، قد كشفت ما بطيات نفوسهم ، وما تكن صدورهم فلام التوكيد ونونه فى قوله – تعالى – (ليصرمنها) يقابلها (ولعذاب الآخرة أكبر) ، ولفظة (ليصرمنها) أبلغ من القطع ، لأن الصرم اجتثاث الجذور نفسها ، والمقابلة الجميلة أيضا بين حالة الجنة قبل الصرم وبعده ، وبين حالتهم القادرة على المنع والبخل وحرمان الفقراء حقوقهم ، وبين حالتهم العاجزة عن المنع والعطاء ، فالأولى يملأها الفرح والأمل ، والأخرى يفعمها الحزن واليأس والقنوط وقوله تعالى (وهم يتخافتون) توحى بالحركة الخفية ، التى يحبون ألا يراهم عليها أحد ، كأنهم يأتون منكرا أو يقدمون على فاحشة مبينة .

إن اللوحة مفعمة بالصورة المجسدة ، واللون المعبر ، والصوت الدال ، والحركة الدائبة المتجددة ، انظر قوله تعالى (على حرد) حيث يتجسد لك اللؤم والخبث حتى تلمسه بيدك وقوله تعالى : (فلما رأوها ، قالوا إنا لضالون) . « فيالها من مفاجأة ، وتطور فى الحدث والصراع النفسى والحسى ، إن المفاجأة كانت شديدة الوقع على نفوسهم فأصابتهم بضلالين : ضلال حسى فى توهمهم أنهم قد ضمنوا السبيل إلى جنتهم ، وضلال معنوى أشد وأنكى من الأول ، إذ عُدّوا من الضالين المغضوب عليهم » . (١)

وقوله تعالى : (ألم أقل لكم .. لولا تسبحون) تقرير وتوبيخ وتقريع على لسان أوسطهم وأفضلهم ، إذ أنكر عليهم هذه الفعلة متد البدء فى تنفيذها وتدبيرها ، لأنهم لم يسبحوا الله وينزهوه ويقدسوه ، وينفذوا أوامره ويخرجوا حق الفقراء المعلوم من هذه الثمار .

هذه صورة من صور القصة التمثيلية ، تضافرت فيها المعانى الذهبية المجردة بالمعانى الحسية المجسدة ، واللوحات المجسمة ، والنماذج المشخصة ، وتلاقت فيها الأفكار بالكلمات فى اتساق تام ووئام ، وتآخى العقل والمنطق والنغم الموسيقى الفياض (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) . « ٢١ : الحشر » .

وقصة القرية التى كانت آمنة مطمئنة بما يسوق الله إليها من النعم ، فبطرت معيشتها وكفرت بأنعم اله – هى أيضا قصة تمثيلية ضربها الله مثلا لأهل مكة – خاصة – وإلى كل ذى عقل ونظر يقول الله ، تعالى – (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ، بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) . « ١٢٢ – ١٣٣ : النحل » .

(١) التفسير اقرآنى للقرآن الكريم – مرجع سابق .

لقد اختلف المفسرون فى هذه القرية ، مكانها وزمانها ، وأناسها ، أهى قرية من قرى الأولين التى هلكت ،؟ أم هى مكة ؟؟

أية قرية من تلك القرى الظالمة – التى عرف المشركون أخبارها – تصلح أن تكون مضرب المثل لأهل مكة .. (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوما آخرين) ؟ ، ١١ : الأنبياء ، .

(وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ، وجعلنا لمهلكهم موعدا) ، ٥٩ :الكهف،

(وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) ،٤٨: الحج،.

فليست العبرة مرتبطة بالزمان والمكان ونوعية الناس وأجناسهم فى هذه القصة، إنما العبرة بالحياة التى كانت عليها القرية ، والحالة التى عليها مشركو مكة آنذاك .. ولم نذهب بعيدا ؟ ألم يسمعوا بأخبار سبأ وهى قريبة منهم ؟ ألم يروا ما حل بها وبأهلها جزاء ما كفروا ؟ (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له : بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتىْ أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور) ؟ ، ١٥–١٧ : سبأ ، .

لم تشكر القرية نعم الله عليها ، فالرغد والعيش الهنىء ، والسعة والأبهة والإريحية أنستها صانع كل شىء ، فبطرت معيشتها ، وكفرت بأنعم الله فأخذهم الله بالبأساء والضراء ، وأذاقهم لباس الجوع والخوف ، إذ بدل أمنهم وطمأنينتهم جوعا دائما وفقرا متقعا وخوفا متصلا ، عمهم واشتملهم وغشاهم واحتواهم كما يحتوى الثوب الجسد ويشتمل عليه ، ويفنى الثوب ويتجدد ثوب آخر ألعن من سابقه ليذوقوا العذاب بما كانوا يصنعون .

وهكذا أخذت بجريرتها ، وحل البلاء بإقامة الحجة عليها ، إذ بعث الله –

تعالى – رسولا من أهلها ، دعاهم إلى الصراط المستقيم فأبوا وعتوا عتوا كبيرا . (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون) . (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . « ١٥ : الإسراء » .

والشاهد فى الحالتين : أهل القرية الظالم أهلها والتى نُسفت ، وأهل مكة المضروب لهم المثل ، فإما أن يأخذوا العبرة منه ، وأن يجدوا فى النعم التى أنعمها الله عليهم داعية يدعوهم إلى شكر الله والولاء له ، وإلا حل بهم عذاب الله ، ويلقون نفس المصير .

فأين الاختراع والافتراء من هذا القصص التمثيلى ؟؟ وأين التخييل والتلفيق ؟ وأين البعد عن عالم الواقع والحقيقة ؟؟ (ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه) . « ٣٧ : يونس » . (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) . « ٤٣ : العنكبوت » .

وهذه الألهة التى تعبد من دون اله ، وأملتها عليهم أهواؤهم ، دون أن يكون لها رصيد من كتاب سماوى أو سلطان روحى يدعوهم إلى عبادتها ، لقد بلغت بهم الجهالة والسفه والطيش أن إذا سمعوا آيات الله تتلى ، يكادون يبطشون بالتالى ، وكأنهم على حق وغيرهم هو الباطل بعينه ، لذا يضرب الله – سبحانه وتعالى – مثلا مجسما يمكن أن يقوموا به كتجربة عملية ، فيدعوهم – تعالى – إلى جمع آلهتهم التى يعبدونها ، ويطلبون منهم أن يخلقوا كائنا من أضأل مخلوقات الله – وهو الذباب–فإن فعلوا – ولن يفعلوا– فليتخذوها آلهة، وإن لم يستطيعوا –بعد أن تتكشف نتيجة التجربة – فليكفوا وليعلموا أن عبادتهم لها ضلال فى ضلال (أيشركون ما لايخلق شيئا وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصرا ولاأنفسهم ينصرون) ؟ «١٩١ – ١٩٢ : الأعراف » .

وأكثر من هذا فإن الذباب الذى عجزوا عن خلقه هو أقوى منهم بدليل أنه إذا

سلبهم شيئا من طعامهم أوشرابهم لا يستنقذونه منه ، ولايستطيعون رده ،

فهذا المعنى التجريدى ، والتعبير عن عجز هذه الآلهة – التى كانوا يعبدونها من دون الله – عن أن تخلق أحقر الأشياء وأضئلها ، لأن الذى يستطيع أن يخلق الذباب والبعوض قادر على خلق الجمل والفيل ، إنها معجزة الكون والحياة ، ولكن ، الإبداع الفنى هو فى عرض هذه الحقيقة فى صورة ظلال الضعف عن خلق أحقر الأشياء ، والجمال الفنى فى تلك الظلال التى تضفيها محتويات الصورة ، وفى الحركة التخييلية فى محاولة الخلق ، وفى التجمع له ، ثم فى محاولة الطيران خلف الذباب لاستنقاذ ما يسلبه، وهم وأتباعهم عاجزون عن هذا الاستنقاذ ، [1] .

صور الله – سبحانه وتعالى – هذه اللوحة المعجزة ، والمعبرة بالصوت واللون والحركة عن عجز ما يُعبد من دون اله ، وضعف العابدين لها – بالذباب ، وإن كان الذباب – فى بعض الأحوال أقوى منهم ، وأقدر على كيدهم . قال تعالى : (ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) ، ٧٣ : الحج ، .

وبعد : فالذين يتقولون بأن القصص التمثيلى فى القرآن الكريم ، ليس من الضرورى أن يستند إلى الواقع أو الحقيقة فى أحداثه وشخوصه وصراعاته ، فلعل فى الأمثلة التى سقناها ما ينفى هذا التأويل ، ويوضح هذه المجاهيل ، بعد أن اتضح الدليل ؛ ليس فى القصص التمثيلى القرآنى تلفيق ولاتخييل ، وليس فيه إبداع أو تزويق ، وليس فيه اختراع أو تهويل ، وإنما هو تصوير فنى ، وتناسق بديع ، ونماذج إنسانية ، ومنطق وجدانى وعقلى ، وتجسيم حى ، وتجسيد وتشخيص ، والمعيار الوحيد الذى بين أيدينا هو ذلك العقل البشرى ، مع التحفظ عليه بأنه

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٦ .

لايعلم كل شيء ، إن له مجالا لايتخطاه ، وقدرا لايتجاوزه ، ومن ثم كانت أولى دعامات الإيمان (الذين يؤمنون بالغيب) . ، ٣ : البقرة ، .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) . ، ٤٤ : آل عمران ، .

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) . ، ١٧٩ : آل عمران ، .

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) . ، ٥٠: الأنعام ، .

(وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) . ، ٥٩ : الأنعام ، .

(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) . ، ٤٩ : هود ، .

(قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) . ، ٦٥ : النمل ، .

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) . ، ٤١ : الطور ، .

(أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) . ، ٣٥ : النجم ، .

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) . ، ٢٦ : الجن ، .

(قل أن ربى يقذف بالحق . علام الغيوب) . ، ٤٨ : سبأ ، .

(فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبن) . ، ٧ : الأعراف ، .

(وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) . ، ٧٥: النمل ، .

والحقيقة التى لامراء فيها – أن القصة التمثيلية تستمد من الواقع عرضها وحلها وعقدتها وحبكتها وأشخاصها وأحداثها ، ، وتجعل آيات القرآن تتلى فى كل زمان ومكان بشغف وولوع ، وتطرد السآمة عن جميع القارئين بما توالى عرضه من حكايات أمثالهم ، وأقاصيص أسلافهم ، كأنها حكاياتهم هم إذ يرتلون آيات الله ، أو أقاصيصهم هم ، ساعة يطربون لألجان السماء ، [1] .

---

(١) انظر : مباحث علوم القرآن ص ١٣٠ د. صبحى الصالح .

الوحدة الفنية فى القصة القرآنية

الإعجاز القرآنى

القرآن الكريم : هو الكلام المعجز المنزل على النبى محمد – ﷺ – المكتوب فى المصاحف ، المنقول عنه التواتر ، المتعبد بتلاوته ، وليس هناك أفضل ولا أبلغ من تعريف الرسول الكريم لهذا القرآن العظيم : « كتاب الله – تبارك وتعالى – فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : (إنا سمعنا قرآنا عجيبا) من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

فلا غرو أن يأتى القرآن وافيا بكل مطالب الحياة الإنسانية ، وينزل على رسول أوتى جوامع الكلم ، علمه الله من لدنه ، بعد أن كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فتحدى به أرباب الفصاحة والبيان ، وعجزوا أن يأتوا بمثله ، أو يأتوا بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله . (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . « ٨٨ : الإسراء » . (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات)(. « ١٣ : هود » . (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) . « ٢٣ : البقرة » .

ومن أوصاف الله – تعالى – (إنه لقرآن كريم – فى كتاب مكنون ، لا

يمسه إلا المطهرون) . « ٧٧ – ٧٩ : الواقعة » . (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا دعى الله وآمنوا به) « ٢٩-٣١: الأحقاف » (وبالحق أنزناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله ، إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) « ١٠٥-١٠٩: الإسراء» . (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين لديه) « ٢٧: يونس » . (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) . « ٣: يوسف » . (ولقد أتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) « ٨٧: الحجر » . (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .) « ٩ : الإسراء » . (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) «٨٢: الإسراء (ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) « ٨٩ : الإسراء » (يس . والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) . «١ – ٣ : يس) . (ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدّكر ؟) « ٢٢ : القمر » .

ولقد وصف الله – سبحانه وتعالى – القرآن الكريم بأوصاف أخرى غير مشتقة من لفظة « القرآن » جاء منها قوله تعالى : « نور » (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) . « ١٧٤ : النساء » . ومنها : « هــدى » « وشفاء » « ورحمة » « وموعظة » . (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) . « ٥٧ : يونس » . ومنها

«مبارك» . (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى يبين يديه) . ، ٩٢ : الأنعام،
. ومنها : « مبين » . (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) . ، ١٥ : المائدة ، .
ومنها « بشرى » . (مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) ، ٩٧ : البقرة ،
ومنها: عزيز ، (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز) ، ٤١: فصلت ، .
ومنها « مجيد » . (بل هو قرآن مجيد) . ، ٢١ : البروج » . ومنها «بشير ، ونزير» .
(كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيراً ونزيراً) . ٣، - ٤ : فصلت ، .

والحقيقة أن القرآن معجز فى كل شىء ، معجز فى ألفاظه وأسلوبه ، الحرف الواحد منه فى وضعه من الإعجاز الذى لا يغنى عنه غيره فى تماسك الكلمة . والكلمة فى موضعها من الجملة، والجملة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الآية

معجز فى بيانه ونظمه ، لا يتصل الباحث إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى ، يكشف عن سر اعجازها الزمن « ما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك – خلقا جديدا ، ومراما بعيدا » . [1]

معجز فى معانيه التى كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانيه ورسالتها فى الوجود ، إذ هو صورة حية للحياة والكون والإنسان . « إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعانى من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان لمنهاج عبادته ، فى تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، مودعا أخبار القرون الأولى،

(١) أنظر : تاريخ آداب العرب للرافعى ٢ / ٢٢٥

وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الماضية من الزمان ، جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل فى المدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ، ونهى عنه ، ومعلوم إن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرتهم ، .[1]

ولما كان القرآن معجزا بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى ، فهو معجز بعلومه ومعارفه ، ومعجز فى تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالى تسعد الدنيا على يديه ،

لذا سوف نقصر كلامنا على معجزاته الفنية فى القصة القرآنية ، إذ تقوم القصة على الوحدة العضوية بشطريها: وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى فهى محاكاة [2] فعل تام له بداية ووسط ونهاية ، سواء كان بنية واحدة ، أو عدة حلقات متتابعة ، تقوم فنيا مقام الإقناع المنطقى ، عن طريق الإيحاء الفنى ، أو التصوير التشخيصى للنماذج الإنسانية ، أو رسم الشخوص المتباينة ، أو عرض المواقف المختلفة ، حيث يعلو الخط الدرامى ويهبط ، ويتأزم وينفرج ، وتنبع الأحداث طبيعية يغاير بعضها بعضا ، ولكنها تتضافر لشد أزر النهاية به ، ويتحقق الهدف ويتم التطهير[3] الذى يستثير كوامن الوجدان ، ويوقظ الأحاسيس والمشاعر، فتنفذ العظة إلى العقول من كل جانب، وتجد العبرة طريقها إلى القلوب من كل حدب وصوب.

والوحدة الغنية فى القصة وسيلة من وسائل التربية ، وأداة من أدوات التعليم،

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابى ، والبرهان للزركش ص ١٠١ جـ ٢

(٢) المحاكاه هنا : بمعنى القص والحكاية .

(٣) عقاب الرذيلة وثواب الفضيلة

إذ يكتسب الإنسان العلم أو المعرفة من مصدرين رئيسيين :

مصدر إلهى ومصدر بشرى ، وهذان المصدران متكاملان ، ويرجعان أساسا الى الله – تعالى – الذى خلق الإنسان وأمده بأجهزة الإدراك واكتساب المعرفة (وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك انت العليم الحكيم ، قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما انبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون ؟) . ، ٣١ – ٣٣ : البقرة ، . (الرحمن . علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان)، ١-٤ : الرحمن ، . (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ، ١ – ٥ : العلق ، . (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) . ، ٥٢ : الشورى ، . (وداوود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما) . ، ٧٨ – ٧٩ : الأنبياء ، . (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) . ، ٨٠ : الأنبياء ، . (وآتاه الله الملك والحكمه وعلمه مما يشاء) . ، ٢٥١ : البقرة ، . (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) . ، ٢١ – ٢٢ : يوسف ، .

(قال: إنما أشكو بثِّى وحزنى الى الله،وأعلم من الله ما لاتعلمون) ،٨٦:يوسف، . (وانه لذو علم لما علمناه) . ، ٦٨ : يوسف ، . (وأنزل الله عليك الكتـــاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم) . ، ١١٣ : النساء ، . (فوجدا عبدا من عبادنا

آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما ، قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟) . « ٦٥ – ٦٦ : الكهف » . (واتقوا الله ويعلمكم الله) . « ٢٨٢ : البقرة » .

والوحدة الفنية فى القصة ركيزة من ركائز الوسائل التعليمية والتربوية لإثارة انتباه المتلقى واجتذاب مشاعره ، فضلا عن إثارة الدافع للتعليم حتى تتهيأ نفسه للدرس فى شوق يستجمع قواه العقلية ، ويرغبه فى الاستماع والمتابعة إذ شاهد تحرك الشخوص وطبائعها ، وكيف كانت عصبية موسى وتحمسه لواحد من جنسه، ويرى نموذج الهدوء والتسامح والحلم فى شخصية أبينا إبراهيم – عليه السلام – ويعيش مع آية الوعى والحصانة والجمال والإباء والتعفف الماثل فى شخصية يوسف– عليه السلام – ويطير على بساط الريح ليصاحب شخصية الرجل والملك والنبى سليمان – عليه السلام – ويقتدى بمن بعثه الله رحمة وهداية ونورا للعالمين فى شخصية خاتم الأنبياء والمرسلين « محمد » عليه الصلاة والسلام .

والعلاقة بين الوحدة الفنية والوحدة العضوية ، كعلاقة الفرد بالمجتمع والعضو بالجسد ، فهى التى تربط بين الموضوع وعناصره ، وبين الموضوع ووحدة المشاعر والانفعالات التى تنبعث منه ، وبعبارة أخرى هى التى توجد الصلة بين طبيعة الموضوع والأثر الناتج عنه ، فهى التى ترتب الأفكار وتنظمها ، وهى التى توحى بالمثل والقيم ، وهى التى تمد الخيال بالصور ، وهى التى تنتقى الألفاظ والجمل ، وهى التى تدعم المحاكاه والقص بالرسم والتشخيص والإيقاع والموسيقى ، وهى التى تبعث الحركة والحيوية فى الصراع والمحاورة ، وهى التى تكسب العمل دلالة اجتماعية ونصيغه بالصيغه الموضوعية .

***

اللغة ... والأسلوب

اللغة وظيفة عضوية فى الإنسان ، وهى أساس طبيعى للفضائل والصلات الاجتماعية والقومية والسياسية ، ووحدة اللغة والكلمات – وهى بمقاطعها – نتيجة لحركة صوتية ، ولكن هذه الحركة الصوتية فى الحقيقة عملية عقلية ، إذ مجرد نطق الكلمة يدل على شىء ما ، فيحدث فى الفكر حركة ما ، وهذه الكلمات رموز لمعانى أشياء ، أى رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولا ، ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من مرتبة الحس ، فهى رموز لحالات نفسية هى مادة الفكر ، فالصوت اللغوى وظيفة عقلية لها دلالتها على الكلام الداخلى ، وهذه الحالات النفسية التى تثيرها اللغة ليست فردية محضة ، لأن دلالتها على الأشياء ومعانيها ليست طبيعية ، بل هى وضعية قد اصطلح عليها . (1)

فالمعانى المشتركة بين الناس هى التى تعطى القيمة للغة ، وبهذا وحده نستطيع أن نفكر بالكلمات ، ونبنى حججنا عليها بوصفها رموزا للأشياء ، وهى فى الواقع رموز لتجارب سابقة أفادها الإنسان بالحس ، والذاكرة تحتفظ بمجموعة التجارب الحسية ، وهذه التجارب تهدى الإنسان إلى المبادىء العامة العالمية ، وذلك عن طريق القياس والحجة ، إذ بواسطتهما نتجاوز مرحلة الحس ، والقيام بالتجارب بأنفسنا ، وذلك يحدث عندما نشاهد مسرحية أو قصة حية نابضة

فنشارك فى أحداثها وصراعاتها بأحاسيسنا ومشاعرنا وخلجاتنا .

، وصلة الكلمات اللغوية بالكلام النفسى – من حيث هى رموز له – كصلة الكلمات المنطوقة ، من حيث ان الأولى رموز للثانية ، فالكلمات المنطوقة رموز

(1) انظر النقد الأدبى الحديث ص ٦٢٥ وما بعدها د. محمد غنيمى هلال

لحالات النفس ، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة ، والكتابة ليست واحدة عند كل الناس ، شأنها فى ذلك شأن الكلمات المنطوقة ، ولكن المحاولات النفسية التى يعد التعبير دليلا مباشرا عليها هى هى عند كل الناس ، شأنها فى ذلك شأن الأشياء التى تعد هذه الحالات صورا لها .(١)

وغاية اللغة تحقيق الصلات بين الإنسان والأشياء ، فهى تستخدم أداة للتربية والمتعة والتعبير عن الفن والمحاكاة ، وقد تكون وسيلة للتلاعب بالمعانى لتظهر المستحيل ممكنا والممكن مستحيلا ، فهى من مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها ، فبفضلها تميز الإنسان عن الحيوان ، ودراسات العلوم والآداب وطبيعة الإنسان والأشياء .

ومارس أهل العربية فنون لغتهم حتى شبت وترعرعت ، واستظهروا شعرها ونثرها وحكمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها ، وطاوعهم البيان العربى والقصاصة والبلاغة ، حقيقة ومجازا ، إيجازا وإطنابا ، وارتقت اللغة بفنون القول وضروبه .

وجاء القرآن الكريم بلغة قريش ألفاظا وحروفا ، تركيبا وأسلوبا ، واتساقا وائتلافا ، وجرسا وإيقاعا ، كلمات وجملا ، وعبارات وفقرات ، فى النفى والإثبات ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والحقيقة والمجاز ، والإطناب والإيجاز ، والعموم والخصوص ، والإطلاق والتقييد (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) « ٢٣ :الزمر » . (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) « ٨٢ : النساء » .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى : « والذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه : منها ما يرجع الى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف

(١) المرجع السابق ص ٣٩ وما بعدها .

وجوهه واختلاف مذاهبة خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ،

ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا ، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، فليس من باب السجع ، وليس من قبيل الشعر ، وتبّين بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن الكريم ، وتميز حاصل فى جميعه » .[1]

فإذا أردنا أن نستقصى إعجاز القرآن فى ألفاظه لا نقدر ، وحسبنا أن نقتطف بعض ما ورد فى القصص كقصة إبراهيم – عليه السلام – فى بناء البيت العتيق الذى اصطلع ببنائه ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

جاء فى سورة البقرة : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال :

– إنى جاعلك للناس إماما (قال) :

– ومن ذريتى ؟ (قال)

– لا ينال عهدى الظالمين .

فلقطة « ابتلى » ما أكثر معانيها !! وكم تحمل فى طياتها من ظلال ، وحتى لا يذهب المفسرون بعيدا جاءهم تفسيرها فى نفس الآية (إنى جاعلك

(١) انظر أعجاز القرآن : أبو بكر الباقلانى

للناس إماما) والإمامة – إن كانت فضلا من الله ونعمة – ابتلاء لما لها من أعباء وتبعات .

ويمضى السياق القصصى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام : إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل : أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود) . ، ١٢٥ : البقرة .

ولفظة ، البيت ، هنا معرفة ، إشارة إلى التنويه بالبيت الحرام ، فإذا ذكر البيت كان هو البيت الحرام

ولفظة ، أمنا ، منتهى الإيجاز البلاغي: أمنا مطلقا يصيب كل شيء ، أماكنه آمنه ، والناس آمنون ، والحيوان والنبات والطير كلها آمنه مطمئنة ساكنة .

ولفظة ، واتخذوا ، التفات من غيبة إلى حضور ، ومن الأسلوب الخيرى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه ...) إلى الأسلوب الإنشائى الطلبى (واتخذوا) لتعظيم هذا البيت وعظيم الأمر المتعلق به .

ولفظة ، وعهدنا ، فيها من حركة صوتية ، وهى فى الحقيقة عملية عقلية ، فالتكليف وتنفيذ الأمر – يقتضى الحركة وتشمير السواعد كعامل حسى ، أما العامل العقلى المجرد هو فى أداء الأمانة العلمية ، وعقد النية على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم فى اللفظة إشارة إلى أنه كان بيتا لله قبل أن يعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان التى عبدها العابدون فيه

ويمضى السياق ويطلب إبراهيم من ربه الأمن لهذا البلد ولأهله الثمرات وهكذا الطيب يعبق ريحه فيطيب الأجواء .. (وإذ قال إبراهيم) :

– رب أجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . (قال) :

- ومن كفر فأمتعه قليلا ،ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، ١٢٦ : البقرة ، .

ولفظة ، بلدا ، فى سورة البقرة ، و (البلد) فى سورة إبراهيم قال تعالى (رب اجعل هذا البلد آمنا) . ، ٣٥ : إبراهيم ، وذلك قمة الإعجاز ، فحين ترك إبراهيم - عليه السلام - هاجر وابنها إسماعيل ، كانت بلدا غير معمورة ، ولم تكتمل بعد ، فلما عاد إليها بعد مدة كانت قد أخذت تعمر ، فهى البلد .

ولفظة (يرفع) فى قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا منا سكنا ، وتب علينا انك انت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) . ، ١٢٧ - ١٢٨ : البقرة ، .

فالمعنى الذى اصطلح عليه فى ، يرفع ، غير يبنى أو يشيد ، فهى توحى بأن البيت كان معدا بيد القدرة ، وكان قائما على قواعد ، وإنما بوأ الله لإبراهيم مكانه . قال قتادة : ذكر لنا رسول الله - ﷺ - قال يوما لأصحابه : ، هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : مسجد فى السماء بحيال الكعبة لوخر لخَّر عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجو منه لم يعودوا آخر ما عليهم ، .

ومن ذلك ما قاله السدى : لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال لها ، الخجوج ، لها جناحان ورأس فى صورة حية ، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، وأتبعا بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس ، وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) فلما بلغا القواعد بنيا الركن ، قال إبراهيم لإسماعيل : يا بنى

. اطلب لى الحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ، ياقوتة بيضاء مثل النعامة ، وكان آدم – عليه السلام – قد هبط به من الجنة ، فاسود من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن فقال : يا أبتى . من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أشد منك ، فبنيا وهما يدعوان الله (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم....) .

هكذا يستجيب الله لعباده الصالحين ويتقبل منهم ، فجعل منهما أمة محمد ، وبعث منهم النبى – ﷺ – وفى هذا يقول : « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى » .

قلنا من رحمة الله – تعالى – أن جعل القرآن يفسر بعضه بعضا ، حتى لا تتشعب الآراء فى التفسير والألفاظ والعبارات والجمل والآيات ، فالآية تزداد وضوحا بمقارنتها بآية أخرى ، لأن دلالة القرآن تمتاز بالدقة والإحاطة والشمول وسنوضح طائفة – كنماذج – مختلفة من الألفاظ القرآنية بدلا لانها وإيحاءاتها وبلاغتها وإعجازها ، استقيناها من كتاب الله الحكيم .

من ذلك قوله تعالى – (هو معكم أينما كنتم) « ٤ : الحديد » .فالتأويل أن الله مع كل عباده بالقدرة والعلم والرعاية، لأن حمل المعية على قرب الله بذاته مستحيل .

وقوله تعالى : (فلا تقل لهما أف) . « ٢٢ : الأسراء » فإذا كان النهى عن التضجر والضيق بالوالدين ، قد ورد فى الآية ، فمن باب أولى أن تكون الاساءة إليهما بالضرب وما شابه ذلك محرمة لقوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا) . « ٢٢ : الإسراء » .

وقوله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) «٥٣: النساء » فلفظة « الناس » من العام الذى يراديه الخصوص ، والمقصود بها إنسان واحد هو

محمد – ﷺ – جمع ولم يفرد لأنه المثل الأعلى للإنسانية .

ولفظة « الهلوع » قد فسرها السباق القرآنى فى قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) « ٩ –٢١ : المعارج » .

ولفظة « عسعس » فى قوله تعالى : (والليل إذا عسعس) . « ١٧ : التكوير » . صالحة لإفادة الإقبال والإدبار .

ولفظة « تنفس » فى قولة تعالى : (والصبح إذا تنفس) . « ١٨ : التكوير » . توحى بالحياة ودب النشاط فى الأحياء على وجه الأرض والسماء .

ولفظة « يغشى » فى قوله تعالى: (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) «٥٤: الأعراف» شخصت الليل مسرعا فى طلب النهار فلا يستطيع له دركا

ولفظة (يغشيكم) فى قوله تعالى:(إذ يغشيكم النعاس أمنةً منه) « ١١ :الأنفال » خلقت الحياة على الظاهرة الطبيعية وهى النعاس ، فطرقت العيون ، ولبست الأجساد ، فكانت باعثا من بواعث الأمن والطمأنينة .

قوله تعالى : (وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) . « ٢٢ – ٢٣ القيامة» . فإن السباق يدل عى جواز الرؤية ، ولكن قوله تعالى : (لا تدركة الأبصار وهو يدرك الأبصار) . « الأنعام » . يجعلنا نتردد بين نفى الرؤية أصلا ، وبين نفى الإحاطة والحصر ، دون أصل الرؤية ، فهو سبحانه وتعالى : لطيف لا يرى ، إذ لو رؤى لتحدد ، ولو تحدد لتجسم ، ولو تجسم لكان مركبا ، ولو كان مركبا لكان مخلوقا . سئل الإمام على رضى الله عنه – هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه ؟ وإذن فالدليل العقلى والدليل النقلى يؤكدان جميعا عدم إمكان رؤية الله تعالى رؤية بصرية ، ولكن ماذا يكون الموقف إزاء قوله تعالى : (وجوه يؤمئذ ناضرة الى ربها ناظرة) فى رأى المعتزلة ؟ يقولون فى تأويل (ناظرة) إنه من قول

الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، يريد التوقع والرجاء . والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه[1]

نخلص من هذا كله ، بأن المراد بالنظر إلى الله ، هو النظر إلى رحمة الله والطمع فى رضوانه ، والتعلق بالرجاء فيه كما يقول سبحانه – (إنا إلى ربنا راغبون) « ٣٢ : القلم » . (وانا إليه راجعون) « ١٥٦ : البقرة » .

فإذا ما تطرقنا إلى إعجاز القرآن البلاغى ، ألفينا المجاز يلعب دوره فى التشبيهات والاستفسارات والكنايات وامجاز المرسل وعلاقاته والتعبيرات التصويرية الحسية والتشخيصية والتجسيدية والتجسيمية والتمثيلية والتصوير الفنى ، والإيقاع الموسيقى ، والصور الكلية ووسائلها الثلاث « الصوت واللون والحركة » كل أولئك تجمعه الوحدة الفنية فى القصة القرآنية . فما هو المجاز ؟؟

المجاز هو نقل أسم يدل على شىء إلى شىء آخر ، والنقل يتم إما من جنس إلى نوع ، أو من نوع إلى جنس ، أو من نوع إلى نوع ، أو من جنس إلى جنس ، وبإيجاز شديد : كل ما يتجاوز التعبير الحقيقى البسيط هو أقرب معنى إلى المجاز . والمجال لا يتسع لتعدد هذه الأنواع والتطبيق عليها بأكثر من مثال أو أثنين فلتقطف من كل بستان زهرة ، ومن كل قصة صورة ، ومن كل حادثة تشبيها أو استعارة فمثلا :

فى قصة العبد الصالح زكريا نبى الله – عليه السلام – إذ وقف ذليلا فقيرا بين يدى من بيده ملكوت السموات والأرض ، وقف يشكو إلى الله فقال (إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا) . « ٤ : مريم » . ففى قوله : « وهن العظم منى » أبلغ فى الإبانة عن الضعف وذهاب القوة من قوله : « وهن عظمى » إذ أن المقولة

(١) انظر الكشاف ٢ / ٤٤٠ .

الأولى تشير إلى أنه لا عظم معه ، بل ذهب هذا العظم ، وما بقى منه فإنه لا غناء فيه ، أما المقولة الثانية فإنها تحدث أن معه عظما ، وأنه لا زال يملكه ويحرص عليه .

وأما قوله « واشتعل الرأس شيبا » أبلغ فى الإبانة عن إستيلاء الشيب على الرأس كله على العموم والشمول ، إذ شاع فيه وأخذه من نواحيه ، وأنه استقر به وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به ، وهذا ما لا يكون إذا قيل : « اشتعل شيب الرأس » . « أو الشيب فى الرأس »

ونظير هذا قوله تعالى : (وفجرنا الأرض عيونا) . « ١٢ : القمر » . فالتفجير للعيون فى المعنى ، وواقع على الأرض فى اللفظ ، كما أسند هناك

الاشتعال إلى الرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ها هنا مثل الذى حصل هناك .

وهذه هى الوحدة الفنية التى تتجلى فى القصة القرآنية ، والتى تجعلنا ندرك الخصائص العامة المشتركة التى يصدر عنها كتاب الله فى تصويره وتعبيره فيهز النفوس ويحرك المشاعر ، ويفيض الدموع .

والصورة التالية حافلة بالحركة والحياة ، وقد أغنت الألفاظ فى رسم اللوحة وأتمتها بما لا يتم من الإبداع بالريشة والألوان ... وموضوع اللوحة « متاع الحياة الدنيا ، ما حقيقته ، وما مدته ؟؟ وما العبرة منه ؟؟ يقول الله – تعالى – (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) . « ٢٤ : يونس » .

وفحوى اللوحة : ماء تنزل من السماء ، يمتصه النبات فيمرع به ويزدهر بمختلف ألوانه وأشكاله ، وكان تأثير ذلك على الأرض أن أكتست وازينت كالعروس فى ليلة جلوتها ، وأهلها من حولها معجبون ومزهوون ، إذ الفضل منهم وإليهم فى تنشئتها وتربيتها وإعدادها لهذه الليلة وتلك الغاية ، وفى وسط هذا النماء المزدهر والخصب الممرع ، والفرح الغامر ، والاطمئنان التام – أتاها أمر الله فى ومضة ، وفى خطفة ، فإذا هى معدومه الأمن والأطمئنان ، مجتثة الثمار والأزهار ، مسلوبة الزينة والخصب والنماء

« قد استخدمت فى هذه اللوحة الوسائل المقصرة لعرض مراحل النبات : فالفاء التعقيبية نطوى المشاهد بسرعة عظيمة ، ولكن أهل هذه الأرض المتمتعين بنباتها البهيج يمتد بهم الغرور ، غارقين فى متعها ، متقلبين فى نعماتها ، مسحورين بزخرفها فاستخدمت « حتى » الدالة على إمتداد الصدر امتدادا يعرف أوله ويجهل منتهاه . وأما الأرض فشخصت مرتين ، وقامت بحركتين ، إذا أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس فى يوم جلوتها ، وتطلبت الزينة وسعت إليها فلم تزين ، ولكنها ازينت . وأما أهل الأرض فانتفخت أوداجهم زهوا واختيالا حتى ظنوا أنهم قادرون على كل شيء وفى لحظة خاطفة يأتى أمر الله فيطوى تلك الأخيلة الكواذب فى وقت كلمح البصر » [1]

والصورة الآتية رسمت لوحة للاستعارة الحسية لمعقول عقلى بطريقة التجسيم والتشخيص والتخييل يقول الله – سبحانه وتعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) . « ١٨ : الأنبياء » . فالقذف والدفع مستعاران محسوسان ، والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان ، هذه هى الخطوط الرئيسية لهذه

---

(١) انظر : مباحث فى علوم القرآن ص ٣٢٣ د . صبحى صالح .

الصورة الاستعارية ، ولكن ماذا فى القذف من إيماء ؟ وفى الدفع من إشعاع وظلال؟ إن الحق - وهو معنى مجرد - أشبه بالجسم القوى العنيف الذى ينفذ فيجسم الباطل الضعيف الخفيف ، فيرزح الباطل تحته ، ويعانى من وطئته الشديدة التى تدفعه وتكاد تلصقه بالتراب ، فى دفع الحق الباطل وأزهاق روحه ، والتخييل فى تصور نوع الثقل الذى تحدثه حركة القذف ، ثم الدفع ، ثم الإزهاق ، فإنها أصوات شداد توشك أن تكون صدى لعظام الباطل وهى تتحطم وتتقعقع ، «ولقد أصاب الشريف الرضى حين لاحظ أن الدفع إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال ، وعلى طريق الغلبة والاستعلاء، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه »[1]

وليس فى الصورة التالية استعارة معقول لمحسوس فقط ، وإنما اللوحة تشخيص لجهنم جعل المشهد حافلا بالحياة والحركة ، يقول الله - تبارك وتعالى - : (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ) « ٧-٨ : الملك » . فهى مغيظة محنقة ، تحاول أن تكظم غيظها حين ألقى إليها المجرمون فتلقتهم بألسنة لهبها ، وتلقفتهم وهى تئز وتشهق ، فاستعيرت لجهنم شخصية آدمية، لها انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية ، فهى تشهق شهيق الباكين ، وهى تغضب وتثور ، ولها نفس حادة الشعور . « ولقد تملى الشريف الرضى جمال هذه الصورة حين رأى أن الله - سبحانه - وصف النار بصفة المغيظ الغضبان الذى من شأنه أن يبالغ فى الانتقام ، ويتجاوز الغايات فى الإيقاع والإ يلام » [2]

وفى قصة موسى مع العبد الصالح يقول تعالى : (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) « ٧٧ : الكهف » .

(١) أنظر مجازات القرآن ص ٢٢٨ الشريف الرضى .

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٩ .

أقام العبد الصالح هذا الجدار المتداعى الميت الذى يشبه أهل هذه القرية فى موات الإنسانية والمروءة والشهامة عندهم ، فإذا بالجدار قد دبت فيه الحياة وسرت فى كيانه ، فثبتت قواعده ، واعتدل قوامه . يقول السيوطى : « شبه ميلانه للسقوط بانحراف أهل الحى ، فأثبت له الإرادة التى هى من أخص خواص العقلاء » (١) .

والصورة الآتية ننقلها كما هى حتى لا يضيع تأثيرها إذا أختزلناها ، وقد وردت شاهدا على أن الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن هى التصوير ، تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل يقول « سيد قطب » . « تبين الآية التالية أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة إطلاقا ، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل . هذه هى الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعانى المجردة ، ولكن أسلوب التصوير يعرضها فى الصورة الآتية : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لاتفتح لهم أبواب السماء ، ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) . « ٤٠ : الأعراف » .

وتدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء ، وصورة أخرى لو لوج الحبل الغليظ فى سم الخياط ، وتختار من أسماء الحبل الغليظ اسم « الجمل » خاصة فى هذا المقام ، وتدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير ، ليستقر فى النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة فى أعماق النفس ، وقد وردا إليها عن طريق العين والحس – تخييلا – وعبرا إليها من منافذ شتى ، فى هينة وتؤدة ، لا من منفذ الذهن وحده ، فى سرعة الذهن التجريدية » (٢) .

وفى قصة الثلاثة الذين خُلّفوا عن الغزو مع رسول الله – ﷺ – فالآية تقول :

(١) الإتقان : ٢ / ٧٦ السيوطى .

(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن . ص ٣٤ . سيد قطب .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) . « ١١٨ : التوبة » . فقد بلغت « الكتابة » هنا عن الندم والحسرة مبلغا مجسما ، والضيق النفسى المعنوى يصير ضيقا حسيا انتقل وتحرك من نفوسهم إلى الأرض التى يعيشون عليها ، فلم تسعهم أنفسهم ولم تسعهم أرضهم فاختنقوا إذ لم يجدوا لهم ملجأ ولا مفرا ، ولا مأوى ولا راحة حتى قبل الله توبتهم .

هذا هو الندم وتلك هى الحسرة : حالات نفسية محضة ، تجريدية وليست حسية تحولت إلى حركات ذات جسم له ثقل وله وطأة ، لم يستطع الثلاثة حمله ، وعانوا منه ما عانوا حتى أزاح الله عنهم هذا الحمل الثقيل .

فأى كتابة أبلغ من هذه الكتابة ، لقد صيرت الفكر المجرد إلى صور محسَّة فاستحالت المبالغة بلاغة ، وصار التهويل تخييلا . حقا إنه لقرآن كريم ....

نخلص من هذا بأن التجسيم هو إبراز المعنويات المجردة فى أجسام محسوسة وملموسة على العموم والشمول ، والإعجاز القرآنى حوّل هذه المعنويات المجردة إلى

حياة فيها حركة وإحساس بعد أن كانت ساكنة باهتة جامدة ، وفى ذلك إثارة وجمال وتدبر وتفكر فى كل ما تقع على الحواس فى هذا الوجود .

والصورة : تذكر واع لمدرك حسى سابق كله أو بعضه فى غياب المنبه الأصلى للحاسة المفكرة ، ومفهومها فى الفن ، فإما أن يخصصها فيعيدها مرادفة للاستعارة ، أو يعممها ويتوسع فى نطاق دلالاتها فيعنى بها « التعبير عن تجربة حسية نقلت بطريق البصر أو السمع أو اللمس أو التذوق » . [1] .

أى أن بعض هذه الحواس أو كلها مجتمعة تدرك عناصر التجربة الخارجية

(١) أنظر النقد التحليلى ص ٥٧ د/ محمد عنانى .

فينقلها الذهن إلى الشعور بطريقة من شأنها أن تثير فى صدق وحيوية الإحساس الأصلى .

والصورة قد تكون حسية بأنواعها التى تقدم ذكرها كتجربة يوسف – عليه السلام – مع امرأة العزيز ، والعتاب على إخوته ، وقد تكون سيكولوجية أو عقلية فيغلب عليها الطابع التجريدى ، كطلب يوسف – عليه السلام – الولاية وكرسى الوزارة (قال : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) . « ٥٥ : يوسف » .

وللرمز والإيماء فى القصص القرآنى أثرهما الفعّال حينما يراد التلميح لا التصريح الذى لا يجمل فى بعض المواطن فمثلا : أراد الله – تعالى – أن يعبر عن الغاية من المعاشرة الزوجية (وهى التناسل) رمز إلى ذلك بلفظ (الحرث) فى قوله تعالى :ـ نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم) . « ٢٢٣ : البقرة » . وأكمل – سبحانه – وصف تلك العلاقة بين الزوجين – بما فيها من مخالطة وملابسة والتحام – وصفها بأنها لباس من كل منهما للآخر (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . « ١٨٧ : البقرة » . ومن هذا الباب فى الإيماء اللطيف والرمزية العجيبة التى تعلمنا أدب التعبير قوله تعالى : (أولامستم النساء) . « ٤٣ : النساء » . وقوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) . « ١٨٧ : البقرة » . وقوله – سبحانه – (فلما تغشاها حملت حملا خفيفا) . « ١٨٩ : الأعراف» .

ففى التعبير عن اتصال الرجل بالمرأة بقوله – تعالى – (فلما تغشاها) أدب من أدب القرآن ، وإشارة لطيفة إلى ما يكون بين الزوجين ، ورمز إلى اتصال الرجل بالمرأة ، إذ يغشى الرجل المرأة فيكون لها غشاء ساترا رقيقا ، أشبه بالثوب يلبسه الإنسان ، أو أشبه بالليل إذ يغشى النهار ، ويدخل عليه ، فيستر ما فيه من كائنات ، ويحجب الأعين عنها .

وإن الوحدة الفنية فى الأسلوب القرآنى تدعك أحيانا ترسم فى خيالك صورة ناطقة لاتقف عند التصوير الاستعارى أو الرمز الكنائى ، بل تجاوزه إلى التلويح والتعريض ومثاله: (وقالوا: لاتنفروا فى الحر . قل نار جهنم أشد حرا) « ٨١ : التوبة ». فالغرض الحقيقى هنا : التعريض بهؤلاء المتخلفين عن القتال المتعذرين بشدة الحر، بأنهم سيرون جهنم ويجدون حرها الذى لايوصف .

قلنا إن الصورة الفنية التى تتخلل التعبير التصويرى ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة من حيث الألفاظ والتراكيب ، وترتبط أيضا بالخيال والتخييل الحسى والوجدانى ، الأمر الذى يؤدى إلى تعميق الدلالة وتوضيحها ، ويصبح المعنى غنيا ومؤثرا فى النفس « إن المادى الحسى والفكرى الوهمى أو الخيالى يتعانقان تعانقا ملحا فى مجال الدلالة الأدبية ، فالدلالة نبتة عضوية حية متميزة من حصيلة الأقسام التى يمكن أن تتحلل إليها الصورة التعبيرية بجميع أنواعها التخييلية والتشخيصية والتجسيمية » [1] .

وقد نحا الشهيد سيد قطب فى دراسته القرآنية منحى أدبيا ، إذ توصل إلى أن « التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن » يقول : « هذه القضية لدىّ كل ما يؤكدها من الاحصاء الدقيق لنصوص القرآن ،فالقصة ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية والمنطق الوجدانى فى القرآن ، مضافا إليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعانى الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التى عاصرت الدعوة المحمدية ... تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم ، وكلها تستخدم طريقة التصوير فى التعبير ، فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التى تقتضى طريقة التصوير

(١) الصورة الأدبية : ص ٥٦ د. مصطفى ناصف .

الذهنى المجرد ، وهى عل كل حال محصورة فيما يوازى ربع القرآن ، [1] .

هذا التصوير تحدى به القرآن فصحاء العرب بمعارضته ، وطاولهم فى المعارضة ، حتى انهزموا أمام تحديه ، وأعلنوا عجزهم عن تقليده لأنه يعلو ولا يعلى عليه، وما هو يقول بشر، فإذا كان أسلافنا أثاروا الجوانب البلاغية فى القرآن الكريم إلا أنهم قد وقفوا عند كل نص على حدة ، ولم تسعفهم الأبحاث الكلية أو الموضوعية فى دراسة الوحدة الفنية الكلية التى لاتنتهى عند مشكلة اللفظ والمعنى ، بل تتعداهما إلى التذوق وإلى الطريقة الفنية فى العرض ، وكيف تتلافى المعانى ، وكل معنى يروق لما سبقه ومقدم لما يليه فى تآخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته ، والألفاظ مؤتلقة فى نغم بهز النفس ، ويثير الفكر ويجيش الوجدان ، والخيال والتصوير والانتقال من مجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة ، وكأننا نقفز فى سمائه من أفق إلى أفق ، فنشعر بالبهجة ونحس بالمتعة ، إذ نشعر كأننا فى دار خيالة تعرض علينا صورا متتابعة تنفصل بها عن حياتنا الواقعية ، فنسكن إليها ، ونتخلص من أعباء الحياة وتكاليفها ، [2] .

ويعرب ، سيد قطب ، عن منهجه فى هذه الدراسة القرآنية مؤكدا ، أن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، فيقول : ، التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن الحدث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنسانى ،

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ٢٠٤ سيد قطب .

(٢) المصدر السابق .

والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذى وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة » .[1] .

« ولعل الغاية التى انتهى إليها « سيد قطب » من فهم الأسلوب القرآنى أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفنى الخالص فى كتاب الله ، وتمكن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم ، والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم ، ولا ريب أن العرب المعاصرين للقرآن قد سحروا قبل كل شىء بأسلوبه الذى حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا ، حتى إذا فهموه أدركوا جماله ومس قلوبهم بتأثيره » .[2] .

(١) المصدر السابق : ص ٣٢ .

(٢) انظر مباحث فى علوم القرآن ص ٣٢٠ د/ صبحى الصالح .

الإيقاع ... والموسيقى

إن الكلام – ذا الإيقاع الموسيقى والمتمثل فيه وحدة الوزن ووحدة النظم – ووحدة القافية يشد من أزر المعنى ويثبته ، ما فى ذلك شك !! لأن هذه الخاصية الفنية لم يخلقها اله – عبثا – فى الإنسان ، إنما هى ملكة كسائر الملكات الأخرى تخص الوجدان ، فيطرب الإنسان للنغم والتوقيع ، ويتأثر بما يسمع ، وربما يوحى إليه النغم والإيقاع بما لايستطيع القول أن يشرحه ، وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل يقى من المنطق ، لم يقدر اللسان على استخراجه ، فأستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لاعلى التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحنت إليه الروح ، ولذلك قال أفلاطون : لاينبغى أن نمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا ، ألا ترى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان ، [1] .

وتمثلت الصياغة الموسيقية والنغمّية فى اللفظة والكلمة ، والجملة والمقطع والبيت والفقرة ، فكما أن التصوير يكون باللون والحركة والصوت والتخييل والتجسيم، يكون أيضا بالنغمة فى جرس الكلمات ، وإيقاع العبارات وموسيقى السياق، الأمر الذى جعل البلاغيين يصنفون موسيقى الكلام إلى نوعين من الإيقاع، ظاهر وخفى: فالظاهر فى وحدة التفعيلية ووحدة الوزن المتمثل فى التناسب التام بين الكلمات والأجزاء والحركات والسكنات، بحيث تعشقه الأذن وتسربه النفس، وتهتز له الجوارح فى الإنسان، وأضافوا إلى ذلك نوعا من التقسيم الإيقاعى كالمحسنات البديعية، والازدواج وحسن التقسم واختيار حرف الروى والتصريع فى

(١) العقد الفريد ح٣ ص ١٧٧ ابن عبد ربه .

الأبيات، وتضمينها مختلف الصور البيانية والمقابلات اللفظية والمعنوية .

أما النوع الثانى – وهو الخفى – فنابع من تنسيق العبارات وتخير الألفاظ ، وائتلافها وانسجامها ونظمها فى نسق خاص مع الجو النفسى الماثل فى وحدة الأحاسيس والمشاعر ، والخطوات النفسية التى تصاحب النصوص ، والتناسب فى الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن غرض إلى غرض .

هذه هى موسيقى النثر والشعر ، والقرآن الكريم ليس شعرا ولا نثرا ، وإن صح القول : هو نوع من النثر ممتاز مبدع فريد ممتنع ، جميل متفرد ، ، لا هو من سجع الكهان ولا من حكمة السجاع ، وإنما هو سور وآيات منسّقة ومتساوقة يربط بينها فواصل محكمة ، غاية فى الدقة ، وروابط قوية وخفية (وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) . ، ٦٩ : يس ، .

إذن هو نثر إيقاعى غير موزون ، عباراته مقسمة ، متقابلة الأجزاء ، وألفاظه مختارة ذات ظلالات وإيحاءات ، جمع فضائل الشعر والنثر جميعا ، وتعبيراته معفاة من قيود القافية الموحدة والتفعيلات الوزنية المتعددة ، ومن ثم انطلق التعبير فى حركة كاملة ، وبدأ النظم محتويا دلالاته ، على اختلاف مواقعها ، شاملا ما يدرس الآن فى علم المعانى من فصل ووصل وتعريف وتنكير ، وتقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وإظهار وإضمار ، جامعا ما يدرس الآن فى علم المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق وتورية وترصيع ، متضمنا صور البيان المختلفة من تشبيهات واستعارات وكنايات ومجازات مرسلة .

ولما كان الإيقاع الموسيقى نوعا من أنوع التصوير الفنى فى القصص القرآنى، ألفينا وحدة النغم تتكرر فى كل آياته ، ووجدنا الاتساق الفنى والخيط النفسى بين فقراته ومقاطعه ؛ لذا يحدث التغنى، وتحل النشوة ، وتتواجد المتعة ،

وتسمو الأرواح، وتفهم المعانى، وتتضح الأفكار، وتبين الأغراض ، ويسهل الإقناع ، ولاسيما عند من يتأثرون عن طريق وجداناتهم ، ومشاعرهم وأحاسيسهم المرهفة .

وصياغة اللفظة هى التى تؤثر فى الصورة المجازية التى تحدث النغم والإيقاع ، لأن الصورة الموسيقية لاتكتمل إلا بالدقة فى اختبار اللفظ وكأن المعنى مجلوب له وليس العكس ، ثم وضعه فى مكانه بحيث لايصلح إلا هو ، وقد عبر عن ذلك ابن الأثير فقال : « أعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها ، فإن المعانى عندها أقوى وأكرم وأشرف قدرا ، ولكن عنايتهم بالألفاظ لأنها عنوان لهذه المعانى ، وطريقها إلى إظهار أغراضها ، فأصلحوها وزينوها ، وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع فى النفس ، وأذهب فى الدلالة عى القصد ، ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا ، لذ لسامعه فحفظه ؟ وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه فى حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ، ورقّقوا حواشيها ، وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العنابة إذ ذاك ، إنما هى بألفاظ فقط ، بل هى خدمة منهم للمعانى ، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء فى الحلل الموشبة والأثواب المحبرة ، فإننا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوه من حسنه نداءة لفظه وسوء العبارة عنه » [1] .

ويرى الجاحظ أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها الأعجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى ، . « وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وصحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الأدب صياغة وضرب من النسج ، وجنس من التصوير » [2] .

(١) المثل السائر : ص ٢١٢ ابن الأثير .

(٢) انظر : الحيوان جـ ٢ ص ١٣١ الجاحظ .

وأدباء العربية ونقادها يكادون يجمعون على أن حسن اللفظ فى تباعد مخارج حروفه ، لأن الحروف أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ، والألوان المتباعدة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، وجل كلام العرب مبنى على التأليف من الحروف المتباعدة ، ولحروف الحلق مزية من القبح إذا تقاربت ومثال اللفظ القبيح فى تقارب مخارج حروفه ، حينما سئل الأعرابى عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهمُخع [1] ومن الألفاظ التى لها وقع فى السمع حسن تسمية الغصن غصنا أو فننا أفضل من تسميته عسلوجا .. وهكذا .

ولقد عنى مصطفى صادق الرافعى عناية خاصة بالنظم الموسيقى فى القرآن فقال : « إنه مما لايتعلق به أحد ، ولايتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه إلا فيه ، لترتيب حروفه بإعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبه بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشى والتكرير»[2] .

ويمضى الرافعى فى سرد بعض الأمثلة ليوضح وجهة نظره فيقول : « ولو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة ، فيهيىء بعضها لبعض ، ويساند بعضها بعضا ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها فى النظم الموسيقى ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من الأسباب فى الثقل مثلا ، فلا تعذب ولا تستساغ ، وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا

(١) نبات ترعاه الإبل بالبادية .

(٢) تاريخ آداب العرب ٢/٢٢٥ الرافعى .

عجيبا ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد امتهدت لها طريقا فى اللسان ، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقى ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شىء وأرقه، وجاءت متمكنة فى موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة .

من ذلك لفظ (النُّذُر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن أن جُسأة [1] هذا الحرف ونبوه فى اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه ، ولكنه جاء فى القرآن على العكس وإنتفى فى طبيعته من قوله تعالى : (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) . ، ٣٦ : القمر ، فتأمل هذا التركيب ، وأنعم وتأمل على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها فى حسّ السمع ، وتأمل مواضع القلقة فى دال (لقد) وفى الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروْا) مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات إذا هى جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها ، كما تكون الأحماض فى الأطعمة ، [2] .

مما تقدم نلاحظ أن الرافعى حرص فى دراسته القرآنية على الأصل اللغوى وإعجازه حروفا وألفاظا ، وحركات وسكنات ، إنه عهد على نفسه الكشف عن أسرار النظم الموسيقى وإيقاعاته وأنغامه ، هذا النظم الذى أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة وجعلهم يسحرون فيؤمنون أو يسحرون فيهربون ، هذا السحر العجيب الذى ألف أمة بعد أن كانت على شفا جرف هار، وأنقذهم بعد أن كانوا على شفا حفرة من النار، وألف بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداء .

---

(١) الجُسأة : الغلظ والصلابة .

(٢) نفس المصدر ٢٣٩/٢ الرافعى .

ويرى الرافعى أن الوحدة الفنية فى القوة والإبداع راجعة إلى روح التركيب التى تنعطف عليه جوانب الكلام الإلهى ، وهذه الروح لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن وبها انفرد نظمه ، وخرج مما يطبقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو ، كأنما وضع جملة واحدة ، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، إذ تراه ينظر فى التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها ، ثم إلى تأليف هذا النظم فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة إعجازه فى جملة التركيب كما عرفت ، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب ، كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه [1] .

وحسبنا من التجريد وتقعيد القواعد وسرد المصطلحات الموسيقية ، وكيفية حدوث النغم والإيقاع ، ولنطف الآن فى بساتين القرآن من قصص وأمثال وسور وعبر وعظات وآيات وجمل وفقرات ، لنقطف منها عمليا وحسّبا تلك الثمرات الناضجة ، والقطوف الدانية ، والأكمام اليانعة ، ولنبدأ بعروس القرآن (الرحمن) يقول الله – تبارك وتعالى فى مطلع هذه السورة :

* الرحمن .
* علم القرآن .
* خلق الإنسان .
* علمه البيان .

نلاحظ أن الآية الأولى من كلمة واحدة،ثم الثلاث الآخر من كلمتين على

---

(١) نفس المصدر السابق : ٢ ٢٦٠ .

هذا المطلع بمثابة مقدمة موسيقية، علوية اللحن، قدسية النغم لاتكاد تتحرك بها الشفاه ، وتتصل بها الآذان حتى يتفتق من أكمامها هذا الجلال المهيب ، الذى يملأ القلوب مهابة وخشية ، ويشبع فى النفوس رَوْحا وانتشاء، ولعل مرد ذلك إلى تناغم الألفاظ، وتجاوب جرسها وجلال المعنى، وصفاء رويّها، وتلاحمها وتماسكها دون أن يقوم بينها حرف عطف واحد، إن ما بينها من تآلف وتناسق وتوأم واتساق يجعلها فى غنى عن ذلك كله.

إن هذه الموسيقى القرآنية موزونة بميزان شديد الحساسية ، تميله أخف الحركات والاهتزازات ولو لم يكن شعرا ، إنها رتيبة الحركات ، وئيدة الخطوات ، رقيقة الأصداء ، شجية الإيقاع .

ثم تجيء بعد هذا آيتان من ثلاث كلمات :

* الشمس والقمر بحسبان .

* والنجم والشجر يسجدان .

ثم تتلوهما آيتان من أربع كلمات :

* والسماء رفعها ووضع الميزان .

* ألا تطغوا فى الميزان .

ثم تتلوهما آية من ست كلمات :

* وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان .

وهكذا تتراوح الآيات بين ثلاث وأربع وخمس حتى يأتى القرار الذى ينتهى إليه النغم ، والذى يتردد بعد كل آية أو ايتين من السورة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فما الحكمة من تكرير قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) إحدى وثلاثين مرة فى السورة ؟؟

لأن المخلوقْين اللذين يناط بهما التكليف (الإنس والجن) يقعان تحت حكم

المساءلة والحساب والثواب ، وإذا كان الله – تعالى – لايحاسب غيرهما لأنه يقول – تبارك وتعالى ـ : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) . « ٧٢ : الأحزاب» .

وهذا الوجود على تلك الحال التى عليها الجن والإنس نعم جليلة من نعم الله، واضحة ومعدودة ومحصورة فى كل آية ، ونعم الله لاتعد ولا تحصى ولعل أعظمها وأجلها نعمة هذا الكتاب التى تصدرت السورة . فكيف يكذبون بآلاء الله ونعمه ؟؟.

« إن لعلماء الموسيقى مجالا فسيحا للدراسة والافادة من هذا النظم الذى تمثل كل آية منه جملة موسيقية ، تختلف طولا وقصرا ، وتأتلف مطلعا وختاما ، إن الموسيقى – وهو يتلو هذه الآيات – يجد نفسه يتلقى درسا علويا من ينابيع الموسيقى القرآنية ، فيستفتح اللحن بكلمة « الرحمن » فيعطيها كل ما يمتلىء به صدره من أنفاس الحياة ... ثم يعود فيوزع أنفاسه بين كلمتين ، كلمتين ، ثم بين ثلاث ثلاث .. ثم بين أربع أربع ، ثم بين ست كلمات ، هى آخر ما يمكن أن يمتد إليه النفس غالبا ، ثم يعود ليلتقط أنفاسه ، فيوزعها بين ثلاث كلمات .. ثم يأخذ نفسه مرة أخرى ليوزعه على خمس كلمات ، وهنا يكون النفس قد توازن ، وانضبط على حدود معينة ، فنلقاه الآية التى ستكرر على امتداد السورة • فبأى الاء ربكما تكذبان) . وهى من أربع كلمات إذ هى وسط بين الثلاث والخمس»[1] .

« إن المرء ليحار إذا قرأ سورة « الرحمن » فيتساءل : هل انبعث إيقاعها الرخى المنساب من مطلعها أم من ختامها ، أم من خلال آياتها ؟ وإذا هو يقطع بأن النعم يسرى فيها كلها : فى فاصلها ومقاطعها ، وفى ألفاظها وحروفها ، وفى انسياقها وانسيابها حتى لو انتقى على حدة مقطعا من مقاطعها ، أو من موضوع واحد من

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن : ص ٦٥٥ وما بعدها حـ ٧ . عبد الكريم الخطيب .

موضوعاتها الجزئية ، والتمس فى أجزائه النغم والإيقاع لكان فى كل جزء منه نغمة ، وفى كل حرف منه لحن من ألحان السماء ، [1] .

انظر قوله تعالى : (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم) . ، ٤٧-٤٩ : الدخان ، . إنه يعتل عتلا ويرفع رفعا ، ويدع دعا ، حث يلقى به فى وسطها ومركز دائرتها ثم يتضاعف عذابه حيث يُصب فوق رأسه ذوبُ جهنم ونضيح عرقها ، فالإيقاع الظاهر بين قوله تعالى (خذوه فاعتلوه) وقوله تعالى فى الفاصلة (الجحيم والحميم والكريم) والموسيقى الخفية فى هذا التبكيت وتلك التحايا التى كان يتلقاها فى دنياه من ندمائه وأتباعه (ذق . انك أنت العزز الكريم) ما أروع جرس الألفاظ وفواصل الآيات والخيوط النفسية والتساوق بين الموسيقى الخفية والظاهرة اللتين اخترقتا الحس ونفذت إلى مواطن الإدراك والوجدان، يقول قس بن ساعدة الإيادى :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها ... يمضى الأكابر والأصاغر .

أيقنت أنى لامحا ... له حيث صار القوم صائر .

لايرجع الماضون لا ... ولا يبقى من الباقين ناظر .

وقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟) . ، ٣٩ : التوبة ، . فلقطة ، اثاقلتم ، أصلها تثاقلتم وأدغمت التاء والثاء وجيء بهمزة الوصل حتى لا يبدأ بحرف ساكن ، والتثاقل هو التباطؤ والتحرك فى ثقل ، لأن شأن كل ثقيل أن يكون بطيء الحركة ،

(١) انظر : مباحث فى علوم القرآن ص ٣٣٦ د/ صبحى الصالح

فالموسيقى التصويرية تتيح لخيالنا أن نتصور تلك الأجسام المتثاقلة ، كلما أراد الله رفعها إلى الجهاد لتسمو وتعلو ، إذ بها تدّعى وتتغابى عن الدعوة وسرعان ما تسقط إلى الأرض لتختلط بها وتمتزج بترابها ، وهى كناية عما يستولى على الإنسان من مشاعر التحيّر والانهزام ، حين يواجه أمرا عسيرا مثل النفور إلى القتال والجهاد فى سبيل الله . وهذا لايليق بخلق المسلم وكرامة المؤمن ، ونظيره قوله تعالى : (وإنّ منكم لمن ليبطّئن) فهى إشارة واضحة لجبن الجبناء ونفاق المنافقين حيث يتعللون ويتعذرون حتى يفوتهم ركب المجاهدين ، فاللفظة مختارة بجرسها وإيقاعها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لهذا التباطؤ والتثاقل والتعثر والتخلف والتقاعد عن الجهاد إننا لانغالى إذا رددنا أن فى كل سورة من هذا القرآن إيقاع غنى بالموسيقى مفعم بالنغم ، مملوء بالألحان ، بل فى كل مقطع وفى كل فقرة ، وفى كل آية وفى كل لفظة ، وفى كل مطلع وخاتمة ، إن الأسلوب القرآنى – على حد قول الشهيد سيد قطب – جمع بين مزايا النثر والشعر جميعا ، فقد أعفى من قيود القافية الموحدة ، والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ فى الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة – فى الوزن – التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تغنى عن القوافى ، فشأى النثر والنظم جميعا»[1] .

قلنا آنفا : إن اللفظة المفردة فى كل آية من آياته – بجرسها ونغمها – لها ظلالها وإيحاءاتها ، وتستقل بموسيقاها الداخلية أو الخفية ، فحيين نتسمع همس السين المكررة فى قوله تعالى : (فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنّس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس) . « ١٥–١٨ : التكوير » . ذلك الهمس الخفى الذى

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن : مرجع سابق ص ٨٦ .

يتناسب وسريان الليل الذى يغشى النهار ، بينما حرف السين وتكراره فى قوله تعالى: (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس ، الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) يحدث فى النفس وسوسة كاملة تناسب جو وسوسة الوسواس الخناس ، فهذا هو الإعجاز الموسيقى ، والرتم الإيقاعى مجسد فى اختيار اللفظ ووضعه فى مكانه .

وإذا قرأت قوله تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد) . « ١٩ : ق » ، وقعت الرهبة فى صدرك ، ودب الخوف فى نفسك وأنت لاهثا مكروبا من إنذار صوت الدال المتوعدة المسبوقة بالياء المشبعة المديدة فى لفظة « تحيد » .

وقوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . « ١٨٥ : آل عمران ». وقوله تعلى : (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) . « ٩٦ : البقرة » . إن مشهد الزحزحه والإبعاد والتنحية مفعم بالصوت والحركة ، وما يصحب ذلك من حالات نفسية مذعورة إذ تحس بالنار وترى لهيبها وتسمع أزيرها .

وقوله تعالى : (فكبكبوا فيها هم والغاوون، وجنود إبليس أجمعون) . «٩٤: الشعراء» إن الكبكبة يحدث جرسها صوت الحركة التى تتم بها وما توحى به من تدهور وسقوط فى هوة ، وما توحى به من تصارع هذه الجماعات والأفواج إذ تتناهش كما تتناهش الحيات ، وما توحى به أيضا من صراخ وعويل ، فالوحدة الفنية فى اختيار هذه اللفظة ووضعها فى هذا الموضع ، الذى لايصلح فيه سواها ، والإعجاز الفنى فى استقلال هذه اللفظة بتلك الصور والإيقاعات الموسيقية ، والكبكبة الجماعية .

وقوله تعالى : (يوم يدعون الى نار جهنم دعًّا) . « ١٣ : الطور » . فالدُّع

هو الدفع العنيف الذى يغلب أن يكون من الخلف ، مما يجعل المدعوع يحدث صوتا غير إرادى عند دعه ، فهو بجرسه وظله يصور مدلوله وإيقاعه .

وقوله تعالى : (الحاقة . ما الحاقة ....

.... وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية) . « ١ – ٦ : الحاقة » .

تبدأ السورة بتشنيف الآذان بتلك الصيحات الراعدة ، والنداءات ، والإيقاعات المزلزلة ، والموسيقى المرعبة والأنغام الصافية ، الأمر الذى جعل كل الألسنة تتساءل : ما هذا ؟ ما هذا ؟ إن الدقات أشبه ما تكون بالرعد ، وإن الإيقاع أشبه ما يكون بالقصف إنه يوم الفزع ويوم الكرب ، ويوم إحقاق الحق وإبطال الباطل ، إنه يوم الحساب ، فالعبارة كلها تبرز قيمة اللفظ المصور للفزع ، والظل الذى تلقيه كل جملة يتساوق مع العرض العام ، عرض الرعب والكرب والفزع . ويتناسق مع دقات الطبول الضخمة المجلجلة ، ويأتلف مع نفخ الأصوار المزعجة حقا إنها اللفظة التى أغنت عن وسائل التصوير الأخرى . حقا إنها صياغة هذه المقاطع ونظمها على هذا التنسيق دائرة معارف موسيقية ، وبحار لآلى إيقاعية ، أنفاسها منثورة ، وألحانها منضودة ، لا تزال أبد الدهر – منابع غنية لوجدان ، ومناهل سكرى للعواطف وأريجا طيبا تعبق منه الأنوف والنفوس .

ومن الموسيقى الصاخية المرعبة ذات الإيقاعات الخارقة صماخ الآذان ، والأنغام الصارخة البالغة حبات القلوب ، والصادقة فى نقل الجو المكهرب وحالة الفزع والهلع والعويل والصراخ ، وقعقعة السيوف ، وضبح الخيول وصلصلة السنابك والدروع ، حيث الدماء تراق والقسى تحطم ، ويثار الغبار وينقلب النهار ظلاما فلا ترى فيه إلا لمعان السيوف والحراب وهى تتهادى . كالنجوم كما قال الشاعر :

كأن مثار النقع فوق رؤءسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إنها المعركة الحامية ، والمعمعة الفاصلة ، والحرب المدمرة ، إنها فى اللوحة الموسيقية التالية (والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا) . ، ١ – ٥ : العاديات ، .

هذا الإيقاع العجيب والنغم المفزع ، والموسيقى الصاخبة وهذا التسلسل فى المعانى ، وذلك التوافق فى الألفاظ والانسجام بين الجمل والفواصل ، من شأنه أن يلمس الوجدان ، ويحرك العواطف ويثير الأحاسيس والمشاعر حينئذ تكتمل الصورة ، ويسهل الإقناع ، ويحدث التأثير .

وللقافية أثرها فى الإيقاع الموسيقى إذ أنها تدعم الموسيقى الظاهرة والخفية ، والقافية فى القرآن الكريم يطلق عليها الفاصلة أو اللفظة الأخيرة من الآية ذات الروى الواحد وكلما تعددت وطالت أو قصرت تتعدد ألوان الإيقاعات والموسيقى ، وتبدو الوحدة الموسيقية والإيقاعية فى بعض سور بأكملها وقد تبدو فى مجموعة من آياتها فمثلا : عدد آيات سورة ، الرحمن ، ثمان وسبعون آية يغلب عليها روى واحد ، هو حرف النون قبلها ألف ،

وفى سورة الدخان يقول الله تعالى (ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ، ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين ، ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) . ، ٢٧ – ٣٣ : الدخان ، .

فالقافية هى النون قبلها حرف الياء الممدودة ، إذ أن هذه القافية تبدو غالبة فى معظم الآيات والسور ، يليها فى العموم والشمول قافية النون قبلها واو ممدودة كما فى قوله تعالى : (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم

يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ، هو الذى يحى ويميت ، فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون .) . ، ٦٧ – ٧٣ : غافر ، .

وقد ترد القصة كلها بروى واحد ، وقد يرد أكثر من قصة بروى واحد فى سورة واحدة ، فمثلا فى سورة مريم ، نجد الروى واحدا فى معظم السورة على تعدد قصصها ، تلك هى الياء المشدة المشبعة بألف المد ، الأمر الذى يحدث إيقاعا هادئا ، وموسيقى تصويرية تنسجم مع الجو العام والسباق القصصى . يقول – تعالى فى مطلع السورة : (ذكر رحمة ربك عبده زكريًا ، إذ نادى ربه نداء خفيًا ، قال : رب انى وهن العظم منّى ، واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيًا ..... الى قوله تعالى : (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) . ثم يتبعها السباق بقصة يحيى – عليه السلام – بنفس الروى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيًا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيًا ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا) ثم تأتى قصة مريم على أثر القصتين السابقتين بنفس الروى وذلك الإعجاز الموسيقى ، والرتم الإيقاعى : (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سوياً ، قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال : كذلك قال ربك

هو على هيّن ، ولنجعلة آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .... وهكذا حتى تنتهى قصة مريم ، حتى يقول المسيح بن مريم (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) . ، ١٦ - ٣٣ : مريم ، .

قلنا : إن هناك نوعا من الموسيقى الخفية لا تتمثل فى الفواصل ولا فى الرّوىّ ولا فى التعادلية بين جملة وأخرى ، ولا فى رتم الإيقاع والنغم ، وإنما تتمثل فى نسيج اللفظة المفردة ، وتركيب الجملة الواحدة ، وتناسق الكلمات فى الجمل ، والتوفيق بين الخطوات المتدرجة فى المعانى ، والتسلسل المنطقى ، والتناسق النفسى الممثل فى الوجدان والعواطف ، وخير مثال لذلك تفسير الزمخشرى لسورة الفاتحة يقول ، إن العبد إذا أفتتح حمد مولاه الحقيقى بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله (الحمد لله) الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق به ، وجد من نفسه - لا محالة - محركا للإقبال عليه ، فإذا انتقل على نحو الافتتاح الى قوله : (رب العالمين) الدال على أنه مالك العالمين ، لا يخرج منهم شىء عن ملكوته وربوبيته ، قوى ذلك المحرك ، ثم انتقل الى قوله : (الرحمن الرحيم) الدالة على أنه منعم بأنواع النعم ، جلائلها ودقائقها ، تضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهى قوله تعالى:(مالك يوم الدين) الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء ، تناهت قوته وأوجب الإقبال عليه ، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات (إياك تعبد وإياك نستعين) ،

هذا التسلسل فى المعانى ، وذلك التوافق فى الجمل ، وتلك الرقة فى الألفاظ ، والتناسق بين الأحاسيس المتنابعة المنبعثة من تتابع الآيات ، كل أولئك يشكل نوعا من أنواع الموسيقى الخفية التى لاتدركها إلا كل نفس ذواقة للموسيقى ، ومن السهل عليها أن تفرق بين إيقاع وإيقاع ، ولحن ولحن .

إن الجو فى فاتحة الكتاب جو حمد وثناء وشكر ، جو اعتراف بالزبوبية الكاملة ، جو الخشوع والذلة لرب العالمين ومن ثم يتسق مع هذا الجو تخصص العبادة لله ، والتضرع إليه حيث يتسع المجال للدعاء ، وتعطر الموسيقى الرتيبة أريج المكان ، وتضمخ الأنغام الخفية بالمسك مواضع السجود والشكران .

وهكذا تتجسد الموسيقى التصويرية فى القرآن ظاهرة وباطنة ، تبدو فى القواصل والقوافى والتعادل والتوازن بين الآيات ، وتلمس فى ائتلاف الحروف واتساق الكلمات ، وتشاهد فى التناسق بين الأجزاء واللوحات ، والتوافق فى الإيقاع والتنغيمات ، وهذا قليل من كثيرا لا نهاية له فى الابداع ، وتبارك الله رب العالمين ، ومما يجدر ملاحظته أن كثيرا من العلماء يرفضون لفظة سجعة وأحلوا محلها الفاصلة وسميت الفاصلة فاصلة بين آية وأخرى لأنها تقع عند نهاية الآية ، والكلام ينفصل عندها ، وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية ، فالفاصلة تعم النوعين وتجمع الضربين ، (1) معنى ذلك أن الفاصلة قد تكون رأس آية وقد لا تكون ، لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها .

وإذا أتحد الروى فى آخر كل آية سمى سجعا فى اصطلاع علم البديع إلا أنه فى القرآن الكريم يسمى فاصلة ، لأن الفواصل فى القرآن هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة لذاتها ، (2) على عكس السجع وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد مقصود لذاته ، وهذا معنى قول السكاكى ، الإسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر ،

ورد القاضى أبو بكر الباقلانى على من أثبت السجع فى القرآن فقال: ، وهذا

(1) انظر البرهان للزركشى ص ٣ ، جـ ١

(2) مباحث فى علوم القرآن ص ١٥٣ . مناع القطان .

الذى يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز . وكيف ؟؟ والسجع مما كانت كهان العرب تألفه ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تخالف النبوات بخلاف الشعر ، وما توهموا أنه سجع باطل ، لأن مجيئه على صورته لا يقتضى كونه هو ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى بالسجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى معنى السجع من القرآن ، لأن اللفظ وقع فيه تابعا للمعنى ، وفرق بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ » . [1]

فالفواصل فى القرآن الكريم يجىء الوزن تابعا للمعانى وليس العكس . فقوله تعالى : (فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة) « ١٣ – ١٤ : الغاشية » . فاصلة متوازية ، نظيره فى دعاء النبى – ﷺ : « اللهم إنى أدرأبك فى نحورهم ، وأعوز بك فى شرورهم

وهناك الفاصلة المطرفة كقوله تعالى : (ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا) . « ١٣ – ١٤ : نوح » . لأن الآيتين مختلفتان وزنا .

وهناك الفاصلة المتوازنة التى تتفق فيها الكلمتان وزنا كقوله تعالى : (ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوتة) . « ١٥ – ١٦ : الفاشية » .

وهناك الفواصل المتساوية القرائن [1] كقوله تعالى (فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود) . « ٢٨ – ٣٠ : الواقعة » .

وهناك الفاصلة التى تطول قرينتها الثانية كقوله تعالى : (والنجم إذا هوى ،

---

(١) ابرهان للزركش ص ٥٨ جـ ١ .

ماضل صاحبكم وما غوى) . ، ١ – ٢ النجم ، .

وهناك الفاصلة التى تطول قرينتها الثالثة لقوله تعالى : (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه) . ي ٣٠ – ٣١ : الحاقة ، وقد اجتمعت القرينتان الثانية والثالثة فى قوله تعالى : (والعصر . إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتوصوا بالحق وتواصو بالصبر) ، سورة العصر ،

وهناك الفواصل القصيرة كقوله تعالى:(والمرسـلات عرفـا، فالعاصـفات عصفا، والناشرات نشرا، فالفارفات فرقا، فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا) ، ١ – ٦: المرسلات ، .

وهناك الفواصل الطويلة كقوله تعالى : (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور) . ، ٤٣ – ٤٤ : الأنفال ، .

وهناك الفواصل المتوسطة كقولة تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا : سحر مستمر) . ، ١ – ٢ : القمر ، .

***

---

(١) التساوى فى القرائن : أن يكون ما فى اجدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية .

البطولة ورسم الشخصيات

البطولة فى القصص القرآنى مدار المعانى الإنسانية ، ومحور الأفكار الفلسفية ، والآراء الإيجابية ، وليس من سبيل إلى ظهورها مجسمة إلا فى الأشخاص ، ولا مناص من إخراجها إلا بالصراع أو الاحتدام النفسى ، أو الدينى أو الإجتماعى أو التجريدى أو الحسى ، يضطلع به الأبطال ضد المجتمعات أو الأقوام، بغية تسخير الطبيعة أو جوانب الكون ، والافادة منها والسيطرة عليها ، تحقيقا لخلافة الإنسان فى الأرض وتعميرها ، واستجابة لدعوة الخالق (ففروا إلى الله – إنى لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين) « ٥٠ – ٥١ : الذاريات » . فالجميع بين الآيتين الآمرة والناهية فى آية واحدة إعجاز من إعجاز القرآن إذ الأخذ بواحدة منهما لا يغنى عن الأخرى .

إذن عمار الأرض فى خلافة الإنسان لها ، وما خلق هذا المستعمر إلا ليكون عبدا لله، عابدا له، مظهرا فى خلافتة للأرض جلال المعبود، شاكرا لفضله ، خاضعا لعظمته وسلطانه (وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون)، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) «٥٦–٥٨ :الذاريات»

والواقع والمجتمع هو مصدر الأشخاص والأبطال فى القصة القرآنية ، أو بتعبير آخر هو مصدر الأفكار فى الأشخاص ، لأن سلوكهم معلل فى دوافعه العامة، ونوازعهم مردودة إلى المعانى والقيم الإنسانية ، فشخصية « إبراهيم » – عليه السلام – رسمها الله – سبحانه وتعالى – ووصفها بالحلم والتسامح (إن إبراهيم

لحليم أواه منيب) . ، ٧٥ : هود ، . (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم) ،١١٤ : التوبة،

فى هذه الآيات ثلاث صفات كلهم حسن وجمال ، وحسب إبراهيم شرفا ورفعة أن يجعله ربه بصفة من صفاته (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم) . ، ١٧ : التغابن ، .

فالبطولة فى القلب الكبير ، والعقل النافذ الحكيم ، فى الاتصال بالله دائما ، وفى الأوبة إليه ، وفى العجز عن الوفاء ببعض شكره ، وإن كان من الشاكرين .

البطولة تتجسّد فى عقد محاورة بينه وبين نفسه ، ويتصفح موقفه مع ربه وأين يقف من قضية الإيمان به ؟ ، والناس فيما أودع الخالق فيهم من قوى العقل والإدراك للبحث عن الخالق – ليسوا سواء .. فما أبعد الشقة بين من يعمل عقله وتفكيره وحواسه ، وبين من يعطل ذلك كله ، ويصير كالأنعام يأكل ويجتر ويرتع ويلعب غافلا عن شفرات القصاب !! فها هو ذا ينكر على أبيه عبادة الأصنام (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر :

– أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .

وقد وجه إبراهيم نظره وعقله وقلبه إلى ملكوت السموات والأرض ، فرصد كوكبا من هذه الكواكب السيارة فتصوره إلها ، وسرعان ما نفض يديه منه ، وصرف عقله وبصره عنه بعد أن هوى الكوكب (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال :

– هذا ربى .. فلما أفل قال:

– لا أحب الآفلين .

ثم تابع النظر والتدبر وهو على يقين بأن لهذا الوجود ربا (فلما رأى القمر

بازغا قال :

– هذا ربى .. فلما أفل قال :

– لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين

وغاب النجم وأفل القمر وذهب الليل ، وبزغت الشمس (فلما رأى الشمس بازغة قال :

– هذا ربى . هذا أكبر فلما أفلت قال :

– يا قوم . إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

ودخل مع قومه فى حوار حاد ، وجدال عنيف فى شأن آلهتهم ، وفى الإله الذى يدعوهم إليه (وحاجه قومه قال :)

– أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما . أفلا تتذكرون ؟؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون ؟

هذه هى البطولة ، قلب مملوء بالإيمان ، ووقفة فى وجه مجتمع كافر بأسره ، إذ أخرس كل ناطق ، وأفحم كل منطق ، وسقطت بين يدى حجته كل مقولة لملحد وكل حجة لمشرك ، أنه – وحده – أمة ، ومجتمعه لا شىء ، لأنه – وحده الذى يحمل كل شىء (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) . « ١٢٠ – ١٢١ : النحل » .

اجتاز معارك ثلاث وأحرز فيها النصر المبين ، حاور نفسه ، وحاور أباه وحاور قومه ، وفى كل محاورة تكون له الحجة البينة ، ولا يخرجه سفهاء قومه عن طبيعته الحليمة وإبتسامته العريضة ، ولا حدة أبية وقسوته عن وده وبره له (واذكر

فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه :

– يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا.

لقد نكر النداء الحبيب « يا أبت » الى أبيه أربع مرات ، إنه لأدب رفيع أدب النبوة والموعظة الحسنة والمجادلة الحسنه ، ويقابل أبوه كل ذلك بالغلظة والقسوة والتهديد بالرجم والتعذيب (قال) :

– أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ويقابل حلم إبراهيم – عليه السلام – ذلك الشطط من أبيه بالإحسان ليمحو هذا الشرك المركب (قال) :

– سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى ، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا .

هذه هى أفكار البطل تتحرك لتخلق أمة ، وتجدد عقيدة ، وتثير العواطف من مكانها ، وتدحرغى الشيطان ، وتباعد بينه وبين تحقيق أمانيه (قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن [1] ذريته إلا قليلا) « ٦٢:الإسراء ».

هذه هى المبادىء الإنسانية والمثل العليا تتجسم فى سلوك البطل : (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) لترجع بالمجتمع إلى طبيعته الأولى التى فطر عليها ، قبل أن يصيبها الفساد والعطب (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟؟ قالوا : بلى شهدنا) . « ١٧٢ : الأعراف ».

(١) لأحتنكن : لأفسدن وأستولين عيهم ، من لاكه فى حنكه وعلكه .

وفى سبيل ذلك لاقى البطل ما لاقاه من الاستهزاء والسخرية والغمز واللمز والهمز [٢] ، بل وصل الأمر إلى إحراقه والتخلص منه (قالوا : حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) . « ٦٨ – ٧٠ : الأنعام » .

إن فى قصة إبراهيم – عليه السلام – كل العناصر الفنية التى يتشدق بها القصاصون وأرباب التجديد ، ويزعمون أن لكل قصة خمسة أبعاد :

أولها : التحول : وقد غير إبراهيم مصير شعب وحوله من عبادة الوثنية إلى عبادة الواحد القهار ، وتحول إبراهيم (البطل) من التعذيب والتحريق إلى النجاة والفوز برضا ربه .

ثانيها : التعرف : وقد انتقل إبراهيم (البطل) من الجهل وعدم الاهتداء إلى خالق الكون ، انتقل إلى المعرفة واليقين بالله ، وانتقل من كراهية قومه ومجتمعه إلى محبته – تعالى – حتى اتخذه الله خليلا ، وجاء الاستنتاج – بعد صراعه مع نفسه وأبيه وقومه – من الوقائع والأحداث مثبتا تلك القاعدة الكبرى « لا إله إلا الله . ولا معبود بحق إلا الله » .

وثالثها : العقدة ، وهى الجزء الذى يسبق الحل ويحدث الصراع والشوق إلى النتيجة ، وقد رأينا : كم من عقدة تطورت فى القصة حتى بلغت قمة التعقيد فى إيقاد النار وتحريق إبراهيم عليه السلام .

ورابعها : الحل الذى يأتى طبيعيا ، وتظهر فيه لحظة التنوير ، وتجلى ذلك فى المعجزة التى نجى الله بها إبراهيم على ملأ من عباد الطاغوث ، ومشهد من

---

(٢) الهمز واللمز : غايتهما واحدة وهى الحط من أقدار الناس ، وإن كان الهمز بأسلوب العلانية ،واللمز بأسلوب السر والخفاء .

الناس حاشرين على غير ما توقعوه .

وخامسها : داعية الألم أو الفرح أو التطهير ، وهى المرحلة التى أعقبت الحل ، وحدث فيها أن « البطل » إبراهيم « عليه السلام طهر نفوس القوم من الرجس والدنس والأوثان ، وأثار الرحمة والخوف والحماسة فى نفوس المشاهدين .

وهكذا تكشفت شخصية البطل ، عن نموذج فريد من نوعة ، اصطفاه الله على عينه ، ورسمة بدقه ، وصوره فأحسن تصويره ، مميز الملامح ، واضح السمات ، صاحب قلب كبير ، أحب الله وأحب دينه وأحب الناس جميعا . (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى . قال : لا ينال عهدى الظالمين) . « ١٢٤ : البقرة » .

أى أن هذا العهد لا يمتد إلى الظالمين ، فمن سلم من ذريته التى تعيش معه والتى تأتى من بعده – سلم من الظلم والكفر والإلحاء ، وكان أهلا لأن ينضوى تحت هذا العهد ، ويأخذ ميراثه منه

فشخصية إبراهيم – عليه السلام – ليست منعزله عن الجو العام الذى يعيش فيه فالمجال والبيئة فى حكاية قصتة هما دعامتا الواقعية ، إذ لا وجود لأفراد معزولين عن مجتمعهم ، الأمر الذى يستلزم تصوير موقفهم – موضوعيا – هم مرتبطون بفترة معينة ، وبيئة طبيعية خاصة ، وإلا كان موقف الأحداث والوصف كموقف دارس التشريح حين يعزل الحيوان الذى يشرحه فى معمله بعيدا عن بيئته وجنسه .

سادسها : الإيقاع : وهو مرتبط بحركة الأحداث وتطور الشخوص وتصور الجوانب النفسية ، والتنوع فى الحكاية والقص بين السرعة فى الحركة والبطء وإذا رجع السرد إلى الوراء فى الزمن ، ليبعث فنيا ما من شأنه أن يجلو الموقف ،

فينبغى أن يكون الرتم سريعا ، حتى لا يقف الحديث طويلا ، وكذلك إذا انظر الى نفس الحدث من جانب آخر على لسان شخصية أخرى فى القصة ، والسرعة

مطلوبة أيضا فى انحدار الحوادث للوصول إلى الحل بعد العقدة فى القصة ، إذ يراعى حينئذ قصر الجمل وبسط الصور المعبرة فى إيجاز أو الاقتصار على لمحات منها .

وذلك مالمسناه فى قصة بناء البيت (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ..) فالإيقاع يعلو ويهبط ، ويثور ويهدأ ويجهر ويهمس ليتسق مع الجو النفسى يقول « سيد قطب » « قد أنهى الدعاء وانتهى المشهد وسدل الستار ... وهنا حركة عجيبة فى الانتقال من الخير إلى الدعاء هى التى أحيت المشهد وردته حاضرا ، فالخبر (يرفع إبراهيم القواعد) كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد : البيت وإبراهيم وإسماعيل يدعوان هذا الدعاء الطويل ، وكم فى الانتقال من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فنى بارز يزيد وضوحا لو فرضت استمرار الحكاية كانت الصورة تنقص لو قيل : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان : ربنا تقبل منا ... ، إنها فى هذه الصورة حكاية وفى الصورة القرآنية حياة ، وهذا هو الفارق الكبير .. إن الحياة فى النص لتثبت متحركة حاضرة ، وسر الحركة كله فى حذف لفظة واحدة . وذلك هو الإعجاز » .[1]

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ٤٩ سيد قطب .

الحوار

الحوار سمة من سمات الوحدة الفنية فى القصة القرآنية، والمحاورة بين الأنبياء وأقوامهم ضرب من إيضاح الفكرة ، وسبيل العرض الموضوع ، ووسيلة لبلورة الهدف الذى من أجله سبقت القصة ، وهو فى الحقيقة يكشف عن طبيعة الشخوص ويوضح اتجاهاتهم ، وما تنطوى عليه نفوسهم .

والجملة فى الحوار وضعت أصلا لتقال ، ولينطق بها الشخوص ، وليست كالمحاكاه أو الوصف أو السرد ، وإنما إيقاعها من نوع مخالف يتراوح بين الطول والقصر ، والإيجاز والإطناب لملاءمة الموقف الذى تقال فيه ، فالمقولة تبرز الفكرة والفكرة تبرز المقولة ، وطبيعة الشخصية التى تنطق بهذه الفكرة المصوغة فى المقولة يتحتم أن يكون موائمة لما تنطق به متسقة نفسيا واجتماعيا وخلقيا مع كل جملة ولفظة تخرج من الملقى إلى المتلقى ، إذ الحوار فعل من الأفعال ، به يزداد المدى النفسى عمقا ، ويحتدم الصراع ويتأزم الموقف ، الأمر الذى يبعث الحركة والحيوية فى فنية القصة .

وعلى قدر واقعية الشخوص يكون إحكام الحوار ، ولايؤتى ثماره إلا إذا ارتبط بحوادث الجو العام للقصة والمجتمع الكائن زمنا وعاده وسلوكا، لأنه يصور المواقف الإنسانية ، ويثير الشعور والفكر معا بوسائل التغريب المعروفة [١]

(١) التغريب : ذكر الصفات العامة دون الخاصة .

والصدق الفنى : أصالة الكاتب فى تعبيره ورجوعه إلى ذات نفسه ، حتى ينقل ما يحس بهويكون صادقا فى نقل هذا الإحساس .

كالإغراب [١] أو الغلوّ [٢] أو المبالغة [٣] .

وفى اللوحة التالية يتجسد لنا المدى الذى كشف عن طبيعة إبليس ، وبعد غوره ومكنوناته اللاشعورية وما تراكم فيها من عقد نفسية كحب السيطرة ، والجبروت والعظمة والكبرياء ، والحسد وعدم الإعتراف بالفضل لأهله ، فظهر ذلك فى فلتات لسانه حينما أمره ربه بالسجود لآدم ، فتبدت خليقة الشرفيه مجسمة فى عصيانه إذ أخذته العزة بالإثم ، واستغلق فهمه ، فإذا هو قوة شر مطلقة ، شيطان مريد رجيم ، يتطاير منه الشرر فيصيب من يتعامل معه ويتبع خطاه ، وكان أول من قاس وأخطأ فى القياس. يقول – تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدو إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال :)

– ما منعك ألا تسجد إذا أمرتك . (قال)

– أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين (قال)

– فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين .

فلما وقع عليه الحكم بالإدانة ، فلم يستسلم ، ولم يتقبل الأمر بالخروج على إطلاقه ، فطلب من الله – تعالى – أن يؤخره إلى نهاية الحياة الإنسانية ولايهلكه حينئذ ، ليكون فى صحبة الإنسان يتحداه وينتقم منه إذ كان سببا فى هذه اللعنة التى وقعت عليه (قال) :

– أنظرنى إلى يوم يبعثون . (قال) :

---

(١) الإغراب : تجاوز المعنى إلى ما يمتنع وقوعه عادة .

(٢) الغلو : تجاوز حد المعنى إلى ما يمتنع وقوعه .

(٣) المبالغة : إتمام الكلام بما وجب حصول المبالغة فيه كقوله تعالى :(أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض) «٤٠ :النور»

– إنك من المنظرين .   (قال) :

– فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين .

إنه ثأر لنفسه فى شخص هذا الإنسان الذى أراده الله ليكون خليفة فى أرضه ، ليفسد عليه أمره ، ويشوه وجه خلافته ، ويتربص به فى كل وجه ، ويأتيه من كل طريق ويدخل عليه من كل باب ليضله عن سبيل الله ، وجاء القسم الإلهى مستخفا بأمر هذا الشيطان اللعين المدحور المنهزم الضعيف الكيد (قال) :

– اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .

وموكب الإيمان الذى يرفع أعلامه رسل الله الكرام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وعيسى ومحمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – فما من قصة من قصص هؤلاء الأنبياء إلا وجاءت بحقيقة واحدة فى عبارة وألفاظ تجمعها وحدة الحوار (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . « ٥٩ : الأعراف » . (أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) . « ٦٨ : الأعراف » . لأن كل رسول من هؤلاء الرسل ، قد جاء إلى قومه بعد انحرافهم عن التوحيد الذى تركهم عليه رسولهم الذى سبقه ، فإذا القوم فريقان : مؤمنون ومشركون ، حتى يأتى أمر الله ، فينجى الله المؤمنين ، ويهلك المشركين المكذبين .

وعلى مدى الحوار فى القصص القرآنى نرى الوحدة مجسمة فى ملأ من أصحاب الجاه والثراء وعلية القوم وأصحاب الجاه والسطان إذ يرفضون الخضوع للدين الجديد ، بل يستهزئون بالرسل ويتعرضون لهم بالعذاب والتنكيل ، لأنهم يتوهمون أن الرسول إنما جاء لينزع عنهم سلطانهم ، وينزع الملك من بين أيديهم.

فجاء الحوار فى معظم هذه القصص مصّوراً الجدل العنيف بين الأنبياء

وأقوامهم ومشخصاً لطبيعة الإيمان وتثبيت الوحدانية لله ، وترسيخا بأن الله الواحد الأحد الذى لم يتخذ ولدا ولم يلد ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ومؤكدا يوم البعث والنشور والتبشير بالجنة والترهيب بجهنم ، وتكاد الوحدة الفنية تعرض صورا مكرورة فى كل قصة لهؤلاء الطغاة المستكبرين الذين يتواجدون فى كل زمان ومكان ، لأنهم نماذج موحدة ، وأنماط متفقة فى الاستعداد والتكوين ، ومن ثم تحل عليهم وحدة المصير ، وسنة الله التى لاتتبدل : نسيان لآيات الله ، وتكذيب لرسله ، واستهزاء بالإنذار وتعجيل بالعقاب ، وطغيان وتهديد ووعيد للمؤمنين وتعذيب للمستضعفين وتتدخل السماء لتحقيق وحدة العاقبة والمصير وإهلاك الكفار والطغاة والمشركين .

ورحلة الحوار فى قصص الأنبياء رحلة طويلة فى سورة الأعراف ، إذ تكشف عن كيفية معالجة موضوع العقيدة فى مجال التاريخ البشرى من لدن آدم – عليه السلام – إلى خاتم النبيين محمد – ﷺ – وكلهم يواجهون البشرية جيلا بعد جيل ، وقبيلا بعد قبيل وملأ بعد ملأ ، ويتخطون الأرصاد ويتغلبون على المشقات .

إن اللوحة التى ترسم هذه الرحلة الطويلة مع ملامحها الواحدة ومعالمها الواضحة ، تمشى خطوة خطوة ومرحلة مرحلة مع كل نبى وقومه فى تسلسل تاريخى سهل الإيقاع ، هادىء الخطوات ، إلا أنها قد تشتد فى مواقف التعقيب ، حين يشتد أوار المعركة بين الأيمان والكفر ، فيشتد تبعا لذلك الحوار ويحتدم الصراع ، ليقرر حقيقة أو يغير باطلا أو ينقذ جماعة المؤمنين ، ويهلك المكذبين والكافرين .

ففى لوحة الحوار التالية يدعو نوح قومه إلى الله ويحذرهم من عذاب يوم عظيم إذا هم لم يسجيبوا للدعوة ويستقيموا على الطريق الجادة ، فاللوحة تصور طريقة نوح – عليه السلام – فى التبيلغ ، وطبيعة الملأ المتعجرف وكيفية استقبالهم

للدعوة الجديدة قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا إلىٰ قومه فقال) :

– ياقوم اعبدوا الله . ما لكم من إلهٰ غيره .

فهى العبارة التى تتكرر على لسان كل نبى من بعده ، لأنها القاعدة الأساسية .

– إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

هو يخاف عليهم وهم برمونه بالضلال والسفه والتكذيب (قال الملأ من قومه)

– إنا لنراك فى ضلال مبين . (قال) :

– ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لاتعلمون .

فيتعجبون منه لاعتلائه كرسى القيادة فى توجيههم ، بل يحسدونه على هذه المكانة ، فيرد على عجبهم ودهشتهم وإنكارهم .

– أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . ولكن طبيعتهم النكدة لاتقبل التدبر والتفكير ، ولا يجدى معها الإنذار ، والتذكير (فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين) . « ٥٩ – ٦٤ : الأعراف » .

والحوار فى اللوحة التالية يستنطق لسان حال الشخصيات فى القرون الغابرة ، إذ تعبر عن واقعها المألوف آنذاك ، من خلال حالتهم النفسية والإجتماعية وطريقة إعاشتهم وتعاملهم فى بيئاتهم ، فالواقعية الممثلة فى تصوير هذه اللوحة الحوارية هى واقعية النفس البشرية ، وواقعية تعاملها مع أفراد البيئة من حولها ، ها هو ذا رسول الله هود – عليه السلام – يجابه قومه الحفاة العراة القساه العتاة المتمردين فى

عبادة الطاغوت ، (وإلى عاد أخاهم هودا قال) :

– ياقوم اعبدواالله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون .

– ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون؟

– وياقوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولاتتولوا مجرمين .

وفيه دليل على أن الاستغفار يجلب الرزق ويدر الغيث كما يدر اللبن إذا اجتمع فى الضرع ، فلما سمعوا منه ذلك (قالوا) :

– ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إنْ نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .

ليس لنا رد على قولك هذا إلا أن نقول : إن بعض آلهتنا قد أصابك بخبل فى عقلك إذ تطاولت عليها فخذ منها جزاءك (قال) :

– إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئا، إن ربى على كل شىء حفيظ «٥٠–٥٧ :هود» .

وهكذا ينتهى الموقف بين هود ووقومه ، وانتهى الحوار إلى طريق مسدود ، كما انتهى إليه الأمر بين نوح وقومه ، وجاء أمر ربك ، وحقت كلمة العذاب على «عاد» (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرعاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟) . « ٦–٨ : الحاقة » .

وقع عليهم العذاب نهارا وجاءهم عيانا (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم

قالوا:هذا عارض ممطرنا،بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) ،٢٤:الأحقاف،.
ولم تنفعهم فراهة أجسامهم – ولاضخامة أبدانهم ولاقوة كيانهم – لم تنفعهم شيئاً ولم ترد عنهم العذاب الذى تجرعوه قطرة قطرة .

وينعقد الحوار فى اللوحة التالية بين نبى الله ، صالح ، – عليه السلام – وبين قومه ثمود الذين كانوا يسكنون الحجر بين المدينة والشام ، ولم يكن موقفهم من نبيهم مشرفا ، إذ كانوا أسوأ من قوم هود وقوم نوح (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال:) .

– ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ، ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب .

فالعطف هنا عطف قصة على قصة ، وحدث على حدث ، ونبى على نبى وقوم على قوم فى قوله تعالى : (وإلى ثمود ....) وردّوا علي صالح بالسفه وأنكروا دعوته (قالوا) :

– ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب .

قد كنت فينا من العاقلين ، فكيف تدعونا أن نترك ما نحن عليه من يقين وقد وجدنا آباءنا على ذلك لها عابدين . أهذا ما يقوله عاقل ؟ فرد عليهم (قال)

– ياقوم . أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير . وياقوم هذه ناقة الله لكم آية . فذروها تأكل فى أرض الله ، ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب .

ورفع ناقة الله أمام أعينهم ، ونصبها لهم اية ليشهدو منها منافع لهم ، إنها آية من آيات الله ، إنها الدليل على صدق رسالته ، إنها تأكل فى أرض الله ، ولها

شرب يوم ، ولكم شرب يوم آخر ، فلا تمسوها بسوء حتى لاينزل عليكم العذاب الأليم ، ولكنهم استعجلوا هذا العذاب ، واستخفوا بهذا الوعيد (فعقروها ، فقال :)

– تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب .

ذكروا أنهم لما عقروا الناقة ، كان أول من سطا عليها « قدارين سالف » كبير قومه – لعنه الله – فعرقبها فسقطت إلى الأرض ، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها ، فلما عاين ذلك سقيها [1] شرد عنهم ، وعلا الجب ، ورغا [2] ثلاث رغوات ، ولهذا قال لهم نبى الله « صالح » – على السلام – (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) فلم يصدقوه ، وأرادوا أن يلحقوه بالناقة (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنة [3] وإهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) . « ٥٩ : النمل » .

فأرسل الله على هؤلاء المتقاسمين حجارة عجلت بموتهم قبل قومهم ، وأما بقية القوم فقد أصبحوا فى اليوم الأول ووجوهم مصفرة ، وفى اليوم الثانى أحمرت وجوهمم ، وفى اليوم الثالث اسودت وجوههم صباحا فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى الأجل ، فلما كان صبيحة اليوم الرابع تحنّطوا ، فلما اشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجفة شديدة من تحتهم ، فجمد الدم فى عروقهم ، ولم يتحرك منهم أحد ، وصاروا جثثا هامدة (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين معه برحمه منا ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود) . « ٦٦-٦٨ : هود » .

---

(١) سقيها : ابنها .

(٢) رغا البعير رُغاءً بالضم : صوّت وضجّ .

(٣) لنبيتنه ؛ البيات : اهجوم ليلا .

وفى اللوحة التالية ينعقد الحوار بين نبى الله « لوط » – عليه السلام – وبين قومه الفجرة الفسقة ، وإن كانت اللوحة هنا تكشف عن نوع خاص من الانحراف والشذوذ، حتى يبدو للناظر أنها قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد – كما جاء فى قصص نوح وهود وصالح–إلا أنها فى الواقع ليست بعيدة عن القضية التى سبقت، فالانحراف عن سنة الله وشرعه هو إنحراف عن عقيدة التوحيد والألوهية.

وإنحراف الفطرة – عند هؤاء القوم – أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وهم أول أناس فعلوا هذه الفعلة المنكرة واستمرأوها ، حتى عدّوا لوط ومن معه منحرفين رجعيين متجمدين على القديم لايحيدون عنه ، يدّعون الطهر والتعفف ، ولما كان هذا أمرهم أرسل الله – تعالى – ملائكته إلى لوط فقال : (فلما جاء آل لوط المرسلون قال) :

– إنكم قوم منكرون .

ففزع منهم لما رأى فيهم من ملاحة وحسن ، مما يغرى قومه بهم (قال) :

– إنكم قوم منكرون .

فواجهوا إنكاره وأخبروه أنهم أتوا لنجدته وتصديق وعيده لقومه (قالوا) :

– بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ، فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولايلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون .

وهكذا دبر الملائكة مع لوط – عليه السلام – الخروج بقومه فى الهزع الأخير من الليل ، وأن يقطعوا ما بينهم وبين القرية وأهلها كل شعور وعاطفة تعطفهم نحوها (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) .

وطارت قلوب قوم لوط فرحا حينما تسرب إليهم نبأ الضيوف عند لوط يريدون الفاحشة بهم ،فأقبلوا إلى لوط استبشارا بهذا الصيد السمين. (وجاء أهل

المد ينة يستشبرون) قصدهم لو ط (قال)

– إن هؤالاء ضيفى فلا تفضحون ، واتقوا الله ولاتخزون .

فردوا عليه (قالوا) :

– أو لم ننهك عن العالمين ؟

ونبى الله – عليه السلام – يردهم بكل وسيلة لدفع هذا المنكر ، حتى عرض عليهم بناته ليتخذوا منهم زوجات لهم ، ولكنهم رفضوا كل العروض ، ولاتختلف قصة لوط مع قومه عن قصة كل نبى سبقه ، إلا أن هؤلاء القوم تفشى فهم هذا الشذوذ الذى كانوا يعيشون فيه ، ويأتونه جهرة من غير حياء أو خجل ، (فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) . « ٦١-٧٤ : الحجر » .

وفى سورة هود جاء النظم فى الحوار على الوجه التالى : (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال :

– هذا يوم عصيب .

(وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال) :

– ياقوم . هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ؟؟ (قالوا) :

– لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد .

فلا يجد لوط لهذه السفاهة جوابا ، وماذا يفعل ؟ ومن أين له القوة وهو وحده ، وهم جميعا عليه حرب حتى امرأته (قا ل) :

– لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد .

وهنا جاءته نجدة السماء إذ كشف الرسل عن أنفسهم للوط فعرف من هم ،

والأمر الذى جاء بهم . (قالوا) :

- يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم . إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟

فهيا أسرع وخذ أهبتك للخروج من هذه القرية قبل أن يدركك الصبح وتقع الواقعة ، أما امرأتك فقد حق عليها العذاب لأنها كانت معهم بمشاعرها وعواطفها ، ولهذا التفتت إليهم وخالفت أمر الله (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) . « ٧٧ - ٨٣ : هود » .

ولوحة الحوار التالية تتضمن شيئا عن المعاملات بجانب قضية التوحيد والألوهية فالافتتاح كما هو لايتغير ولايتبدل (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال) :

- ياقوم اعبدوا الله . مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين .

ولم يذكر السياق نوع هذه البينة كما ذكرها فى قصة صالح ، ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها ، تثبت دعوته أنه مرسل من عند الله ، ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان والنهى عن الإفساد فى الأرض ، والكف عن قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوْه .

قال تعالى فى سورة « هود » (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال) :

- ياقوم اعبدوا الله . مالكم من إله غيره . ولاتنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان

بالقسط ، ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ .

هذه دعوة « شعيب » – عليه السلام – لم يكرر دعوته إلى الإيمان بالله ، لأنه جاءهم بها من أول الأمر ، ثم جاءهم فى دعوة تطبيقية فى الوفاء بالكيل والميزان وأن ما عند الله خير وأبقى ، ولكنهم ردوه بمنطق سفيه وأسلوب جاف غليظ (قالوا) :

– ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبدوا آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء .. إنك لأنت الحكيم الرشيد .

أى دين هذا الذى يتحكم فى أموالنا وعبادة آلهة أبائنا يا كامل العقل وحصيف الإدراك ؟ وكذلك كان نبى الله شعيبا – عليه السلام – غاية فى العقل وكمال الإدراك (قال) :

– ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وماأريد أن أخلفكم إلى ما أنهاكم عنه .. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

– وياقوم لايجر منكم شقا قى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثُم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

ولم تجد دعوته صدى فى نفوسهم ونادوا عليه باسمه مجردا فى جفاء وغلظه (قالوا) :

– ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول – وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .

وفى كل مرة يناديهم النبى الكريم (ياقوم) متوددا متلطفا ، وشتان بين أدب النبوة ومنطق السفهاء (قال) :

– ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط ، وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب .

وهذه هى خاتمة الحوار بين شعيب وقومه ، إنه يتركهم وشأنهم بعد أن أبلغهم رسالة ربه (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين) . « ٨٤–٩٤ : هود » .

فالصيحة والرجفة والجثوم جزاؤهم وجزاء تهديدهم ووعيدهم والاستطالة بالأذى والفتنة على نبى الله شعيب – عليه السلام – ومن تبعه من المؤمنين .

وبعد فلعل الحوار الذى ورد فى قصص أنبياء الله – عليهم السلام – نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب . لعله اتبع المنهج التاريخى ، إذ عرض سير مواكب النور ، وهم يناضلون شراذم الكفار والمشركين منذ النشأة الأولى من بعد آدم – عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ [1].

* * *

---

(١) أنظر التفاسير : القرطبى ، وابن كثير ، والنسفى ، والطبرى ، وظلال القرآن ، والتفسير القرآنى للقرآن .

« والقصص القرآنى لايتبع ذلك الخط التاريخى ، ولكنه فى سورة الأعراف يتبع هذا الخط ، ذلك لأنه يعرض سير الركب البشرى منذ النشأة الأولى ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماما عن معالم الطريق ، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه فى نهايتها إلى الجحيم . إن القرآن لايقص قصة إلا ليواجه بها حالة ، ولا يقرر حقيقة إلا لينير بها باطلا ، إنه يتحرك حركة واقعية حية فى وسط واقعى حى ، إنه لا يقرر حقا ثقة للنظر المجرد ، ولايقص قصصه لمجرد المتاع الفنى ، إنه يركز السياق على التركيز والإنذار فى وقفاته للتعقيب ، كما يركز على نقطة الانطلاق ، وعلى نقطة المآب » [1].

(١) فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٢٤٥ وما بعدها . سيد قطب .

الأحداث ... وطرق العرض

إن طريقه عرض القصة تنوعت بتنوع القصة نفسها ، ولما ازدهرت القصة وبلغت شأوها وتعددت أنواعها ، وتفرعت اتجاهاتها ، أصبح من الصعوبة تحديد نوع العرض ، لأن هذا الجنس الأدبى لاتحده القواعد كل التحديد ، فهو خاضع للفرض وللطريقة والإثارة ، ومرتبط بالمجتمع والبيئة .

ورأينا القصة الحديثة والمعاصرة ، بعضها يبدأ من أول الحدث ، ويتطور الحدث معها ، ويشتد الصراع ، وتتأزم المواقف ، وتبرم الحبكة حتى تنتهى القصة بحل العقدة وانفراج الأزمة .

فهناك القصة التى تبدأ من النهاية بوقوع الحدث ، ثم يأتى السياق فى تسلسل سببى وعقلى ليوضح هذا الحدث وكيفية وقوعه ، وتعليل أسبابه .

وهناك القصة التى تبدأ بحياة البطل – تلك الشخصية الرئيسية – فى القصة ، ثم يأتى التسلسل بالرجوع إلى مراحل الطفولة لهذه الشخصية ، وما يعقبها من مراحل ، وما يكتنف كل مرحلة من أحداث.

وهناك القصة التى تبدأ بالرواية والمحاكاة والسرد ، ثم تتطور إلى التحاور ، ثم يتراوح فيها الحوار والحكاية اختصارا للتفصيلات والأحداث .

وهناك القصة التى تبدأ بالمذكرات اليومية أو الرسائل ، ثم تتطور الأحداث وتأخذ طريقها .. بهذه العروض الكثيرة ، صارت القصة من أهم الأجناس الأدبية وأعظمها خطرا ، وأحفلها بالأغراض الرئيسية والإجتماعية والنفسية وألصقها بمشكلات الإنسان وعصره ، وفيها تصوير المجتمعات والشعوب والشخوص لا على

أنها نمادج عامة تصلح لكل عصر وبيئة ، ولكن على أنها مخلوقات حية ذوات جوانب نفسية متعددة تواجه مواقف إنسانية ومشاكل دينية أو اجتماعية ، ترسم المعالجة لهذه المشاكل وكيفية التغلب عليها .

أما الوحدة الفنية فى طريقة العرض للقصص القرآنى ، فهى لاتختلف كثيرا عما ذكرنا إلا أن لها سمات فنية خاصة يمكن إجمالها فيما يلى :

فى قصة لقاء موسى بالعبد الصالح – عليهما السلام – حدث عجيب جرى – على غير المأوف الذى ألفه الناس ، وعلى غير ما اعتادوا أن تجرى آمورهم عليه، وأن مشاهدها المعروضة فى سورة «الكهف ، قد تصادم ما تعارف الناس على تسميته بمنطق الأشياء والأحداث ، وقد تثير بطريقة عرضها الغريبة الاستنكار ، بيد أنها تحل أبسط حل وأيسره، إذا ما عرضت على الصعيد الغيبى بمفاجآته وآياته ومعجزاته ، [1].

ولقد تعرضنا للقصة فى فصل القصص الدينى ، وليس ثمة ما يدعو إلى تكرار عرضها ، ولكن الذى يهمنا هنا هو طريقة عرضها وتنوع المفاجآت فى هذا العرض ، فمرة يُكتم سر المفاجأة عن بطلها ، موسى كما فى المشهد الأول منها حين دبت الحياة فى الحوت بعد أن نسبه هو وفتاه ، والمفاجأة الثانية عدم إخبار موسى بأسم العبد الصالح ، والثالثة ، لم نعلم نحن القراء أو المشاهدون للمشهد مكان الحادث ولا أسم العبد الصالح أيضا إذ نحن أمام مفاجآت متوالية ، ولانعلم لها سرا – تماما – كبطل القصة – موسى – عليه السلام – إذ سكت السياق عن تعيين المنطقة الواقعة عند مجمع البحرين ، وان كان علماء الجغرافيا والتاريخ يحددونها بالتقاء خليجى العقبة والسويس والبحر الأحمر .

---

(١) مباحث فى علوم القرآن : ص ٢٢١ . د. صبحى الصالح .

ومرة يأخذ السر فى التحلى وتنحل عقدة المفاجأة حين يعلمها موسى ، وتعلمها معه بعد هذا الجو الغامض المجهول، وبعد خرق السفينة فى المشهد الثانى ، إذ يعلمه العبد الصالح أن خرقها كان سببا لسلامتها وصيانتها لمساكين يعملون فى البحر ، وكان ملكهم طاغية يغتصب السفن الصالحة .

وفى المشهد الثالث يتجسد الحدث فى قتل العبد الصالح غلاما ذا نفس زكية طاهرة ويشتد الصراع بين موسى والعبد الصالح ، وتبلغ الدهشة مبلغها فى نفوس النظارة، ثم تنجلى العقدة وتزول الغمة حين يخبر العبد الصالح موسى أن قتله كان رحمة بأبويه المؤمنين ، فلو عاش الغلام لأرهق أبويه طغيانا وكفرا « فقد طبع كافرا » [1] .

وفى المشهد الرابع يشتد الغموض ، وتجابه المفاجأة موسى – ونحن معه – إذ يدخلان قرية لاتطعم جائعا ، ولاتقرى ضيفا ، ثم يجدان فيها جدارا هائلا للسقوط ، فيقيمه العبد الصالح دون مقابل [2] ثم يكشف السر الغامض لموسى ،– ونحن معه – حين نعلم من العبد الصالح أن إقامة الجدار كانت فرصة لصيانة كنز تحت الجدار ليتيمين صغيرين خبأ لهما أبوهما ذلك الكنز ، ليستخرجاه متى بلغا أشدهما .

فالقصة تمثل الحكمة الكبرى التى ستبقى مجهولة أبدا ، لأنها من اختصاص علم الله للغيب الذى لايعلمه أحد سواه (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون) . « ٦٥ : النمل » .

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) . « ١٧٩ : آل عمران » .

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) . « ٥٠ : الأنعام » .

---

(١) انظر أحكام أهل الذمة ص ٢٨٤ لابن القيّم .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٠٩٨ قال « لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى ألا تعمل لهم مجانا »

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) . « ٥٩ : الأنعام » .

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) . « ١٨٨ : الأعراف » .

(فقل : إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) . « ٢٠ : يونس » .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) . « ١٠٢ : يوسف » .

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) . « ٣٨ : فاطر » .

(عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) . « ٢٢ : الحشر » .

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) . « ٢٦ : الجن » .

(لا علم لنا ، إنك أنت علام الغيوب) . « ١٠٩ : المائدة » .

(قل : إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) . « ٤٨ : سبأ » .

وطريقة العرض فى قصة « أصحاب الكهف » تغاير عرض قصة موسى والعبد الصالح وإن كانتا تلتقيان فى تصحيح عقائد المؤمنين فى شئون الغيب ، وفنية العرض هنا تتجسد فى صورتين .

أولاهما : ذكر ملخص للقصة تضغط فيه الحوادث ، ويطوى فيه الزمن والأمكنه فهو يبدأ بقوله تعالى : (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدد ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) « ١٠ – ١٢ : الكهف » . هذه هى القصة مجملة، وهى فى هذا الإجمال تمسك بخيوط القصة كلها، الأمر الذى يشوق القارئين والمشاهدين ويحرك الرغبة للتعرف على ما وراء هذه الإشارات واللمحات .ثانيها : تأتى التفصيلات ، ويبدأ عرض القصة كلها ، فى كلمات متناغمة ذات ظلال موسيقية خافتة عميقة ، وكأنها تجىء من بعيد ، ومن أغوار الزمن السحيق ، فتنقلنا ، ببراعة ولطف إلى حيث الماضى البعيد الذى عاشت فيه أحداث القصة

وأشخاصها ومواقفهم ، إذ تشاوروا قبل الدخول فى الكهف ، وحالتهم بعد الدخول ، ونومهم ويقظتهم وكيفية نقلهم ، وغمض أعنيهم ، وكلبهم باسط ذراعيه بالفناء كأنه يقوم على حراستهم ، وحركة الشمس متجافية عنهم ، ودب النشاط فيهم من جديد ففركوا العيون وتساءلوا فيما بينهم عن مدة لبثهم ، وتناجوا وارسلوا واحدا منهم ليشترى لهم طعاما ، ويحذرونه من مشركى المدينة ، حتى لا يعرفوا مخبأهم فيقتلوهم رجما أو يردوهم عن دينهم ، ويقع المحذور ويكتشف أمرهم ، ويتوفاهم الله تعالى ، ويتنافس أهل المدينة فى تكريمهم بعد أكتشاف أمرهم ، وينتهون إلى بناء مسجد فوق أضرحتهم تخليدا لذكراهم المجيدة ورقدتهم العجيبة.[1]

ويخيل لنا ونحن نشاهدهم فى كل مرة ونقرأ قصتهم أن هذه هى خاتمتهم ، ولكن سرعان ما تطوف القصة – عبر القرون – فى الأمم والشعوب ، فتسمع أصداءها تتردد فى كل أفق ، يتناولها الناس بتعليقاتهم كدأبهم فى التعليق على كل حدث عجيب ، ثم ينتهى بنا المطاف ولا نكاد ندهش لشىء فيها إلا ما تحمله الآيات من روعة التصوير وبراعة طريقة العرض ، وإعجاز البيان ، والتمهيد المشوق لهذا العرض الممتع إذ مهّد القرآن لوقائع هذه القصة بقوله الصريح : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم [2] كانوا من آياتنا عجبا) . « ٩ : : الكهف » .

إنها القضية الكبرى ، قضية القضاء والقدر ، التى لم يستطع أن يصبر عليها النظارة ، فخاضوا فى أسماء أشخاصها ، وعددهم وأشكالهم ، والطريقة التى صينوا بها فى فجوة من الكهف ، حتى جاء الوقت المعلوم ، إنها قضية العلم بالمستقبل ، إذ

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٨٤

(٢) أنظر تفسير الطبرى ١٥ / ١٣٢ ، الرقيم اسم قرية أو واد أو جبل أصحاب الكهف وقال آخرون: إنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف.

لا يحق للإنسانية أن تبحث عن شيء لا تستطيع أن تقطع فيه بقول ولا عمل، ولتقف عند علم الماضى الذى وقع، والحاضر الذى يمكن أن يقع (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا إن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت) « ٢٤: الكهف » .

وطريقة العرض فى « قصة أصحاب الجنة » [١] تغاير ما سبقها من عروض، فالحدث يقع أولا ، والمفاجأة بالنسبة للنظارة معلومه وملموسة ولكنها مجهولة بالنسبة لأبطالها وشخوصها ، ووقع الحدث (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) . « ١٩ - ٢٠ : القلم » فقضى الطائف على الجنة شجرة شجرة وثمرة ثمرة ، ولم يبق من ثمارها شيئا ، بينما كان أصحاب الجنة ينفذون خطتهم وتدبيرهم وهم يتخافتون خوفا من أن براهم المساكين ، والنظارة يثا بعونهم فى نهكم وسخرية منهم حتى انكشف السر لأبطال القصة بعد أن افتضح أمرهم للنظارة . وشبعوا منهم ضحكا وتعليقا وسخرية .

وطريقة العرض فى « قصة موسى » [٢] - عليه السلام - جديدة وكثيرا ما يستخدمها القصاصون المعاصرون ، إذ سرد القرآن الكريم عافية القصة ومغزاها فى البداية فقال تعالى: (تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم فى الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) «٣ -٦: القصص»

---

(١) - وردت قصة أصحاب الجنة فى فصل « القصة التمثيلية التى تضرب مثلا » .

(٢) وردت قصة موسى بالتفصيل عليه السلام - على حسب نزول آياتها - فى فصل ليس فى القصص القرآنى تكرار مطلق » .

ثم تبدأ القصة – بعد هذا المقرى وذكر عاقبتها – فى تطور الأحداث من بداية مولد بطلها موسى – عليه السلام – وتسير سيرا حثيثا فى صراعها وشخوصها حتى تصل إلى اشتداد عقدتها ، ثم تأتى لحظة التنوير وتحل العقد شيئا فشيئا ويحدث التطهير ، فكأن هذه المقدمه الموجزة للقصة كانت التمهيد وإثارة انتباه النظارة وتهيئتهم لما يتلى عليهم أو يشاهدونه على خشبة المسرح .

والعرض فى قصة «بناء البيت» من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام [١] عرض فيه حيوية وإحياء وحوار وأحداث ، حتى ليظن القارىء أن المشهد حاضر يحس ويرى ، إذ تحال القصة تمثيلية ، وتتحدث عن ألسنة أبطالها وتبين تصرفاتهم وتكشف أسرارهم وما تكن صدورهم .

واللوحة التالية تعرض قصة مريم بلامقدمة ولا تلخيص إلا أن مفاجآتها وهزاتها الكهربية التى جعلتها تدافع عن شرفها وعرضها كانت مباغتة لها فى الوقت الذى يتضح للنظارة كل شىء ، مباغتة الملك لها ، واستعاذتها بالله منه ، حملها بالمسيح ابنها – مقابلتها ومواجهتها قومها – تعرضها للأقاويل والاتهامات ، وأحاديث الإ فك عنها – كلام المسيح فى المهد إلى آخر هذه المفاجآت التى أبرزت العواطف والانفعالات فى نفس البطلة ، وكادت أن تثبت قلوب النظارة فزعا ، وإن تظل أفواههم فاغرة دهشة وعجبا .

فالحدث فى قصة مريم هو الذى حدد طريقة العرض ، وأملى طبيعة الحوار ، فشخصية مريم لها موقفها الخاص فى الموقف العام من القصة ، ولها لغتها الخاصة التى تطور بها الحدث وأزدهرت بها حركة الموقف ، فلم يكن الحوار جملا متتابعة

---

(١) وردت القصة فى فصل الوحدة الفنية فى اللغة والأسلوب .

بينها وبين الملك ، أو بينها وبين قومها أو بينها وبين إبنها ، لهذا وقع التأثير ، إذ لم يعتمد على الإقناع أو السخرية بها من قومها فحسب ، بل على الموقف الناتج عن الحدث الذى تجسد فيه الإيعازات والتلميحات والإيحاءات .

فها هى ذى فى خلوتها تعبد الله وتقنت فى محرابها ، فإذ الملك وقد تمثل لها بشرا سويا ، فتكون المفاجأة عنيفة ، ويحدث الرعب فتستعيذ بالله الذى تعبده وتختلى به فى محرابها .

– (فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا ، قالت :

– إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

لأن نبتتها طيبة ، وتربيتها صالحة ، وعاداتها وتقاليدها حسنه ومشروعة فرد عليها الملك مطمئنا للها ، منفسا عنها كربتها (قال)

– إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .

وتزداد الحبكة تأزما ، ويشتد الصراع النفسى والمادى ، وتتعقد الأحداث ، فكيف تتصور أن يكون لها غلام وهى البكر التى لم يطمثها بشر ، ولا سيما أن الذى يخاطبها ويحاورها بشر ؟ وسرت الخواطر فى نفسها سريعا ، وعمل عقلها ، وحضر ذهنها ، ومثل أمام ناظريها شرفها ، وشخص إزاء إدراكها عرضها ، فتمالكت نفسها ، وتشجعت شجاعة المستميتة التى تذود عن شرفها ، وتقتل دون عرضها (قالت)

– أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ؟

وهنا يتدخل الملك مهدئا روعها ، مخففا شدة الموقف ، ملطفا هول المفاجأة وتأثير الحدث المرعب (قال)

– كذلك قال ربك هو على هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .

لا جدوى من الحوار بعد ذلك ، لأن الأمر بت فيه وانتهى ، وهنا ينقطع السباق عن المشهد الأول من القصة المسرحية، لينفرج عن إزاحة الستار لمشهد آخر، وتتاح الفرصة للخيال أن يسبح، وللتصور أن يملأ الفجوة بين المشهد السابق والذى يليه، ويستمتع بما فات، ويستلهم ما آت، ويستقبل ما بقى من الأحداث والمفاجآت.

ويزاح الستار عن المشهد الجديد ، فإذا هى حاملة ، ويجيئها المخاض إلى جذع النخة ، لتلد عيسى ولادة طبيعية ، كما يولد غيره من الناس وكما تلد الأمهات أبناءهن من أرحامهن.

– فحملته فانتبذت به مكانا، قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت:

– يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا !!

مفاجآت بعضها فوق بعض ومواقف تؤدى إلى أخرى مما جعلها تتمنى الموت وتكون فى عداد المسنين ، وعبث الشكوك خواطرها مرة أخرى: كيف تواجه قومها ومجتمعها؟ وماذا تقول لهم مدافعة عن حياض شرفها وعرضها، وبم ترد على ألسنة السوء وقد حملت الدليل بين يديها ؟؟ إنها حديث المدينة ، ومجال السخرية والاستهزاء والإنكار .. وهنا تحدث المفاجآة الكبرى ، والمعجزة العظمى.

– فناداها من تحتها : ألا تحزنى .. قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى :

– انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا .

طفل حديث الولادة ، يتكلم وهو فى المهد ليبرىء أمه ، ويزيل عنها أعباء الحمل والولادة والصراع النفسى الداخلى ، والهواجس والأفكار الطاغية .

ونعيش المشهد مجسدا أمامنا ، وقد تجمع الناس حول مريم وبأحضانها فلذة

كبدها ، صامته لا تنبس ببنت شفة .

– فأتت به قومها تحمله .

وبدأ حديث الإفك ، وذاع أمرها .، وأتهموها ما وسعهم الاتهام (قالوا) :

–وما كانت أمك بغيا .

وسمعت منهم الكثير الذى أذاها فى نفسها وشرفها وعرضها ، ولم ترد على سخريتهم ونبكيتهم (فأشارت إليه) فتعجبوا من أمرها وأنكروا إشاراتها ، إنها البجاحة بعينها ، والصفاقة كلها ، عذراء تواجههم بطفل ، وهو دليل اتهامها ، ثم تسخف بعقولهم وتشير إليه ليسألوه عن أمرها وسرها (قالوا)

– كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

وذاد الرضيع عن أمه ، ودافع عن عرضه وعرضها وبرأها مما يقولون ، فكانت هذه المفاجأة لهم تناظر مفاجأة ولادته التى ينكرونها على أمه (قال)

– إنى عبد الله – آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا ، أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

والأحداث التالية فى قصة سليمان والهدهد ، وسليمان وملكة سبأ هى التى حددت العرض والطريقة – وهى أشد ما تكون قريبة إلى الحوار المسرحى وأبراز السمات الشخصية للأبطال الثلاثة : الهدهد وسليمان وبلقيس ، شخصية الهدهد الذى اعتبره القائد العام ، سليمان ، –عليه السلام – مخالفا للنظام والتغيب بلا أذن مسبق، ولكن الهدهد أعد للأمر عدته ، لأنه يعلم حزم الملك وشدة بطشه ، فله الهيبة والجلال وللرعية الطاعة والولاء .

ما كاد ، سليمان ، – عليه السلام – يفرغ من موقفه مع النمله وجنودها ، حتى يواجه موقف الهدهد الطائر الوديع ، فها هو ذا يمسك صولجان الملك ، ويرتدى زى السلطان ، ويشرع سيفه متفقدا أحوال جيوشه من الجن والإنس والطير . (وتفقد الطير فقال) :

– مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين .

فوقف موقف الشك والارتياب فى أسلوب تفكيره ، ثم أعاد البحث والنظر حتى تجلى الموقف عن غياب الهدهد . وما هى إلا لحظات وعاد الغائب بما لم يحتسبه القائد ، عاد بسلطان أقوى من سلطان القائد ، وعلم أكثر واشمل من علمه (فمكث غير بعيد فقال) :

– أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين .

وكانت المفاجأة لملك الملوك فى عصره مذهلة ، ودهشت الحشود الحاشدة من الجن والإنس والطير ، إذ كانت تتوقع مصرع الهدهد ، فإذا بالوضع ينعكس وانقلبت الآية ، ويحاكم الهدهد سيده سليمان .

– إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم

ولما أحس إصغاء الملك له واهتمامه بنبئه ، استطرد متفلسفا منكرا ما رأى من قوم هذه الملكة إذ تنكبوا الطريق وضلوا السبيل .

– وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

فماذا بقى لسليمان من فضل على هذا المخلوق الضعيف ؟ إنه لمح بأن هناك إلها هورب العرش العظيم ، ليطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية ، إنه يدين سليمان ويدين سلطانه ، إذ قصر عن أن يمتد إلى ما وصل إليه سلطان الهدهد وأحاط به علمه . فما كان من نبى الله سليمان – عليه السلام – إلا أن يلاطف الهدهد ويوادعه ويتيح له مجال التحقيق (قال) :

– سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

وسليمان يعلم تماما أن الهدهد صادق فيما جاء به من أخبار وأنباء ولكن سياسة الحكم والرعية توجب أن يلقاه بهذا القول وتجعل الهدهد حتى هذه اللحظة فى موقف المذنب والاتهام .

وها هو ذا الستار يتفرج عن المشهد الثانى الذى يرسم شخصية سليمان ملك الملوك فى عصره ، وقد تلقى الهدهد الأمر من القائد العام أو الملك الحازم العادل أن يحمل كتابه إلى سبأ وأن يلقيه إلى الملكة ، ونحن – النظارة – لا نعلم شيئا مما احتواه الكتاب ، ولم تتعرض القصة لشىء من رحلة الهدهد الوديع إلى سبأ .

– اذهب بكتابى هذا ، فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون .

لقد ترك السياق القرآنى هذه الفجوة ، فجوة كيفية تلقيها هذا الكتاب ، وما وقع

فى روعها من هذا الأمر العجيب ، كما لم يذكر السباق ما كان بينها وبين ملئها من حديث فى هذا الحدث العظيم ، ليعطى الفرصة لذهن السامع أو النظارة أن نستيقظ مشاعرهم ليتصدروا ويتخيلوا ويشاركوا بعقولهم ووجداناتهم فى بناء القصة ، وألا يكونوا فى عزلة منها ، بل يعيشوا المواقف كلها والأحداث والصراع ، الأمر الذى يكشف مواقع العبرة ويجسد العظة منها.

ويبدأ المشهد التالى ليكشف عن شخصية الملكة المرأة ، الملكة التى تتصدر ملأها ووجوه قومها وتذيع عليهم النبأ (قالت) :

– يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين .

وتنحل عقدة الكتاب أمام النظارة ، ويعرفون ما جاء فى هذا الكتاب الذى حمله الهدهد إلى الملكة ، هذه واحدة ، وأما الثانية فالملكة لم تكشف عن وجه الرسول الذى حمل إليها الرسالة ، وكيف ألقيت إليها ... ثم تطوى الكتاب وتوجه إلى خاصتها ومستشاريها الحديث طالبة المشورة (قالت) :

– يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون

هذه صورة كريمة لمجلس الشورى الحقيقى ، ونموذج فريد للديمقراطية النبيلةالتى يتبادل فيها الحاكم والمحكومون شئون الدولة ، فهى لم تستبد برأيها ، وإنما عرضت وجهة نظرها ، وتقبلت آراءهم بارتياح ونفس راضية ، على الرغم مما أظهره العسكريون من استعداد للدفاع والقتال والأهبة والتحفز والاغارة (قالوا) :

– نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين)وأبدت رأيها وعرضته – بعد أن فوض إليها القوم الرأى – ، وهنا تظهر ، المرأة من خلف الملكة ، المرأة التى تكره الحرب والتدمير ، والتى تفضل سلاح الحيلة والملاينة قبل

سلاح القوة والمخاشنة ، والتى تتهيأ فى صميمها لمواجهة الرجل بغير العداء والخصام ، [1] قالت :

– إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذله ، وكذلك يفعلون.

ولما لم تجد معارضة لوجهة نظرها ، صرحت بمكنون ما تريده ردا على هذه الرسالة .

– إنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون .

وهى بهذه الهدية تريد اختبار ما عند سليمان ، وتستطلع نيته التى ينتويها معها .

ويسدل الستار – على سبأ ليتفرج عن بيت المقدس فى لحظة خاطفة ، لنرى الرسول وبصحبته الهدايا التى حملها إلى ملك الملوك آنذاك – سليمان ،

(فلما جاء سليمان قال) :

– أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذله وهم صاغرون .

إن سليمان – الملك – يدرك بتجاربة وخبراته السياسية والعسكرية أن الملكة لا تريد حربا بدليل هديتها التى ردها إليها ، وأن الأمر سينتهى بالتسليم أو الحضور أو الدخول فى الدين الجديد ، وأن سليمان النبى الرجل ، يريد أن يبهر المرأة ويحاربها بنفس سلاحها ويستولى على قلبها بالإبهار والإعجاب ، بما آتاه الله من نعم لا تحصى ، فنادى فى قومه (قال)

– يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟

(قال عفريت من الجن) :

(١) التصوير الفنى للقرآن : مرجع سابق ص ١٧١

– أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوى أمين .

ولكن سليمان آتاه الله علما (ولقد آتينا داود وسليمان علما) فبهذا العلم رد على عفريت الجن (قال الذى عنده علم من الكتاب) :

– (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) إفحاما منه لهذه القوة التى أوتيها الجن أحد رعاياه والخطاب للجن والإنس والطير . (فلما رآه مستقرا عنده قال) :

– هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم .

وهذا إقرار بفضل العلم وقوته القاهرة التى يهديها الله لمن يشاء من عباده والتى استطاع بها سليمان أن يقهر أعتى قوة خفية تمثلت فى الجن .

، ولم نذهب بعيدا ؟ ألم يحقق العلم معجزات فى عالم المادة إذ ينقل صور الأشياء من سطح القمر إلى الأرض فى لحظة خاطفة على شاشة التليفزيون؟

فإذا كان هذا سلطان العلم المادى فما بالك بسلطان العلم الروحى المسجل فى اللوح المحفوظ الذى يتلقى منه أهل العلم (وعلمناه من لدنا علما) (١).

ويزاح الستار عن المشهد التالى ، وقد تيقظ الرجل فى النبى سليمان (قال):

– نكّروا لها عرشها ، ننظْر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ؟؟

وها هى ذى الملكة بين يدى سليمان ، وقد دخلت اختبارا لعقلها وذكائها من حيث لا تدرى (فلما جاءت قيل) :

– أهكذا عرشك ؟؟ (قالت) :

– كأنه هو ..

وأعجب النبى الرجل بردها وذكائها وجوابها الحكيم ، وعده من آيات العلم

---

(١) التفسير اقرآنى للقرآن : مرجع سابق .

وثمرة من ثمار الخبرة ، فحمد الله وشكره على نعماته ، وتمتم فى نفسه :

– أوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ... وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين

ولم يشأ سليمان أن يدخلها فى الدين الجديد بسلطانه وقدرته عليها ، بل فضل أن يقودها عقلها إلى التعرف على الله سبحانه وتعالى بنفسها ، فيكون هذا أوعى الى تثبيت الإيمان ، وأقوم إلى بناء العقيدة (قيل لها) :

– ادخلى الصرح [1].

(فلما رأته حسبته لجة [2] وكشفت عن ساقيها)

فلما رأى النبى الرجل سليمان دهشتها وابنهارها وإعجابها الشديد بمعجزاته تدخل مبسطا الأمر لها (قال) :

– إنه صرح ممرد من قوارير .

ورأت المرأة الملكة نفسها أمام معجزة قاهرة ، لا يستطيع العقل السليم أن ينكرها ، فأذ عنت وخضعت وأسلمت قيادها للنبى الرجل سليمان (قالت) :

– رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

فالأحداث والمواقف فى هذه القصة أوجبت أن يجرى العرض مجرى الحوار فى المسرحية ، إذ أشركت النظارة فى تصوير الأحداث وتملى المواقف ، وهذا ما يسميه المعاصرون ، وسائل التغريب ، [3] فالمعانى تخطر فى براعة على ألسنة

(١) – ذلك البناء العالى الصافى المزخرف الممدد من القوارير

(٢) ظلنته ماء لصفائه ونقاء جوهره .

(٣) هى وسائل شعورية لتعميق الفكرة ، ويقصد بها الطرق التى تجعل الحدث العادى غريبا فى نظر المشاهد بحيث يندمج فى الحدث بفكره أكثر من شعوره ، فعندما يصير الحدث غريبا فى نظر المشاهد يحمله على التفكير فى تغييره ، فيثار الشعور والفكر معا عن طريق تصوير الموقف .

الشخوص (الهدهد وسليمان وبلقيس) وتتحرك فى وداعة ولطف حيث تجسدت فى الأنوثه الكاملة لبلقيس ، إذ تستخدم الحيلة والملاطفة والموادعة ، وتنفر من المخاشنة والمجاهرة والمصارعة ، وأحست بغريزتها عناية الرجل بها واهتمامه وحرصه على إيمانها ، فالقت السلاح ، وسكنت إليه وأسلمت معه لله رب العالمين.

وتجسدت فى شخصية النبى الرجل « سليمان » ، إذ ابتكر من الوسائل السلمية والبراهين العقلية ما جعلها تحكم عقلها ، وتقدح ذهنها ، وابتكر من الوسائل المادية التى بهرتها ، ما جعلها تؤمن بأنها أمام معجزة كبرى ليست من صنع الإنسان ، فانتفت الحرب ، وحفظت الدماء وصينت الحصون والقلاع .

وذلك الهدهد الوديع ، لقد جرت المعانى على لسانه كأحد الشخوص فى القصة . كيف يعد العدة لمواجهة سيده الحاكم ؟؟ وبماذا يعتذر عن تغيبه ؟ وكيف يستهل حديثه ليجذب انتباه المللك والجنود ؟؟ ..

إن القصة بهذا العرض الفريد ، وتلك الأحداث المفعمة ، والمواقف الطبيعية ، والانفعالات النفسية – رسالة قائمة بذاتها تملكت مشاعر النظارة وأسرت قلوبهم ، وأصابت مواقع الإقناع من العقول السليمة ، وحققت وجهتها الدينية ووحدتها الفنية .

* * *

المراجع: ترتيبا أبجديا

القرآن الكريم

الاتقان فى علوم القرآن : السيوطى

أحكام أهل الذمة ابن القيم

إحياء علوم الدين الغزالى

الأدب المقارن : د . محمد غنيمى هلال القاهرة دار النهضة مصر للطبع والنشر

آدم عليه السلام : البهى الخولى . القاهرة مكتبة وهبه ١٩٧٤ م

أسباب النزول الواحدى

الإسلام فى حياة المسلم

الإسلام ومشكلات العصر مصطفى صادق الرافعى . بيروت . دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٢

أشهر المذاهب المسرحية : درينى خشبة القاهرة . مكتبة الأداب ومطنبها

إعجاز القرآن : أبو بكر اباقلانى

إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى

الإيمان والحياة . د . يوسف القرضاوى . القاهرة .. مكتبة وهبه ١٩٧٨ .

البحر المحيط

البخارى

البداية والنهاية : ابن كثير

البرهان فى علوم القرآن : الزركشى

بلاغة القرآن : محمد الخضر حسين

بيان إعجاز القرآن الخطابى

تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة

تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعى

تجديد التفكير الدينى فى الإسلام محمد إقبال

تفسير الطبرى ابن جرير الطبرى . القاهرة ١٩٠٣ .

تفسير ابن كثير : القاهرة . مطبعة الاستقامة ١٩٥٤ .

تفسير الجلالين : القاهرة . مطبعة بولاق ١٢٨٠ هـ

تفسير الرازى : الإمام فخر الدين الرازى . القاهرة ١٣٢١ . هـ

تفسير القرطبى : القاهرة . دار الكتب المصرية ١٩٣٩ .

تفسير المنار : محمد رشيد رضا . القاهرة ١٩٣٥ .

تفسير سورة الأنفال : مصطفى زيد . القاهرة . مطبعة الاعتماد ١٣٧٣ هـ

تفسير النسقى :

تنزية القرآن عن المطاعن : الماضى عبد الجبار

الحيوان . : الجاحظ

درة التنزيل وثمرة التأويل : الخطيب الإسكافى

دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجانى . القاهرة . دار المعارف

رياض الصالحين الإمام النووى . القاهرة . مطبعة الاستقامة د . ث

سنن الترمذى . القاهرة . مطبعة بولاق ١٢٩٢ . هـ

سنن أبن ماجة : القاهرة

سنن « أبو داوود »

سيرة الرسول : ابن هاشم . القاهرة د . ت

الصورة الأدبية : د / مصطفى ناصف
ظلام من الغرب محمد الغزالى . القاهرة . دار الاعتصام ١٩٧٩
العقد الفريد : ابن عبد ربه
عملاق الأدب : توفيق الحكيم د. محمد الدالى/ القاهرة .دار المعارف ١٩٨٧
غرائب القرآن : النيسابورى
فى ظلال القرآن : سيد قطب . القاهرة . دار إحياء الكتب العربية
الفن القصصى فى القرآن الكريم : د / محمد أحمد خلف الله . القاهرة . مكتبة الانجلو ١٩٥٣ م
الفن القصصى فى القرآن الكريم : محمد الخضر حسين
فن القصة : د / محمد يوسف نجم
فن القصص : محمد تيمور
فن الكاتب المسرحى : دريني خشبة القاهرة . دار النهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٨
القصة فى الأدب العربى : د / محمد يوسف نجم
القرآن وعلم النفس :د / محمد عثمان نجاتى . القاهرة . دار الشروق ١٩٨٩ . م
القرآن وعلم النفس : جمال ماضى أبو العزائم . الرياض . كلية التربية ١٩٧٨
القرآن وعلم النفس : عبد الوهاب حموده . القاهرة . دار القلم ١٩٠٠ م
القاموس المحيط : الفيروز أبادى
قصص الأنبياء : عبد الوهاب النجار
قصص الأنبياء : ابن كثير
قضايا الإنسان فى الأدب المسرحى المعاصر : د . عز الدين إسماعيل . دارالفكر العربى ١٩٦٨

القرآن وإعجازه العلمى : محمد إسماعيل إبراهيم
القرآن المعجزة الكبرى : الشيخ أبو زهرة
الكشاف : الزمخشرى . القاهرة . مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٤ هـ
مباحث فى علوم القرآن : مناع القطان . بيروت . مؤسسة الرساله ١٩٨٦ .
مباحث فى علوم القرآن : د / صبحى الصالح . بيروت . دار العلم للملايين ١٩٨٨ .م
مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى . القاهرة ١٩٥٥ . م
مجازات القرآن : الشريف الرضى
مجمع البيان فى علوم القرآن : الطبرسى
معجزة القرآن : محمد متولى الشعراوى . القاهرة . كتاب اليوم ١٩٨٠ . م
معجم ألفاظ القرآن الكريم . القاهرة . دار الكتب المصرية
المثل السائر ابن الأثير
المسرح الحى : ترجمة د / داوود حلمى السيد . القاهرة مؤسسة فرانكلين للطبع والنشر ١٩٦٥
مشاهد القيامة فى القرآن : سيد قطب . القاهرة . دار المعارف
منهج التربية فى الإسلام . محمد قطب . بيروت . دار الشروق
موطأ مالك
نصوص قرآنية فى النفس الإنسانية د . عز الدين إسماعيل . القاهرة مكتبة غريب
النقد التحليلى د . محمد عنانى
النقد الأدبى الحديث د / محمد غنيمى هلال . القاهرة . دار النهضة مصر.
النقد المسرحى : فؤاد دواره : القاهرة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف

الفهرس

القصص القرآنى الذى تناوله البحث
ترتيبا أبجديا

١ – ابتلاء داوود
٢ – إبراهيم مع أبيه وقومه
٣ – إبراهيم والملائكة
٤ – إبراهيم وإحياء الموتى
٥ – إبراهيم والنمرود
٦ – إبليس وغروره وأمانيه
٧ – أصحاب الجنة
٨ – أصحاب القرية
٩ – أصحاب الكهف
١٠ – بنو إسرائيل وطالوت
١١ – بنو إسرائيل والبقرة
١٢ – الثلاثة الذين خلفوا
١٣ – الرجل الذى مات مائة عام
١٤ – داوود وسليمان
١٥ – سليمان والهدهد
١٦ – سليمان وبلقيس وملكة سبأ
١٧ – شعيب وابنتاه
١٨ – صالح والناقة

١٩ – غزوة أحد

٢٠ – غزوة بدر

٢١ –غزوة الأخزاب

٢٢ – قابيل وهابيل

٢٣ –القرية التى كانت آمنه

٢٤ – لوط وقومه

٢٥ – المؤمن وصاحب الجننبن

٢٦ – موسى والعبد الصالح

٢٧ – موسى وفرعون

٢٨ – نوح وقومه

٢٩ – يوسف واخوته وامرأة العزيز

رقم الإيداع ٧٦٧١ لسنة ١٩٩٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 00 — 5719 — 3

